

# تفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي  
للقرآن الكريم



النبوة العامة

تمت الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ  
بمكة المكرمة

# نَفَاحَاتُ الْقُرْآنِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ  
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

النبوة العامة في القرآن

الجزء السابع

سَمَاحَةُ آيَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الشَّيْخِ  
نَاصِرٍ مَكَارِمِ الشَّيْخَانِي

بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةِ بَيْنَ الْفَضَائِلِ

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۴۰۵ -

تفحات القرآن / مكارم الشيرازي: بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، ۱۴۳۶ ق. = ۱۳۸۴.

ISBN:964-8139-75-X (دوره)

ج ۱۰

ISBN:964-533-001-7 (ج ۷)

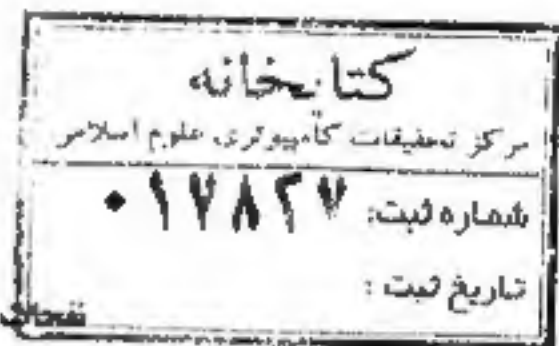
کتابنامه

۱. تفاسیر شیعه - قرن ۱۴. الف. مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام).

ب. عنوان

۲۹۷ / ۱۷۹

BP ۹۸ / ۷ م ۱۳۸۴



تفحات القرآن / الجزء السابع

المؤلف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) بمساعدة مجموعة من الفضلاء

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الاولى (التصحيح الثاني)

تاريخ النشر: ۱۳۸۴ ش - ۱۴۳۶ هـ

عدد الصفحات: ۳۲۰ صفحة

حجم الغلاف: كبير

المطبعة: مطبعة الزاهد

الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

ردمك: ۷-۰۰۱-۵۳۳-۹۶۴

ردمك الدورة: x-۷۵-۸۱۳۹-۹۶۴



ایران - قم - شارع شهدا - فرع ۲۲

تلفنکس: ۷۷۳۳۴۷۸-۲۵۱-۰۹۸

www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان



الاهداء

إلى الذين أحبوا القرآن  
إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين  
الحياة الصافي  
إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه  
أكثر فأكثر.



مركز تحقيقات علوم القرآن  
بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الأشثياني

محمد جعفر الإمامي

عبدالرسول الحسيني

المرحوم محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدي الاشتياري

فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ

في التصور القرآني

مركز تحقيقات كليات علوم ودراسات إسلامية

فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ

في التصور القرآني

مركز تحقيقات كليات علوم ودراسات إسلامية



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی



## القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل ﷺ

### تمهيد:

إن إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبعبارة أخرى، بعثة أنبياء الله ﷺ ونزول الكتب السماوية، لها علاقة مباشرة بالنظرة الكونية للقرآن الكريم.

حينما يقول القرآن الكريم: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ». (الذاريات / ٥٦) وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُكَايِهٍ». (الانشقاق / ٦) إننا نستطيع أن نفهم أن الإنسان في طريقه الطويل المملوء بالمخاطر والمحفوف بالمخاوف، والذي يهدف من خلاله الوصول إلى الكمال المطلق، يعني السير للوصول إلى الذات الإلهية المقدسة، فإنه لا يستطيع أن يجتاز هذه الطريق دون الحاجة إلى القادة والموجهين الربانيين.

إن من مستلزمات تجاوز هذه المرحلة مرافقة الخضر، وما عدا ذلك تكون النتيجة الولوج في الظلمات والابتلاء بالتيه والحيرة والظلال.

ومن هنا يعتبر الأنبياء ﷺ قادة الأمم والكتب السماوية بمثابة «القوانين»، التي تأخذ بيد الإنسان لتوصله إلى غايته وتخرجه من الظلمات إلى النور.

وبعبارة أخرى، لا يمكن تصور الحياة الاجتماعية للإنسان مجردة عن هداية عالم الغيب والذات المقدسة، لا في التقنين والتنفيذ، ولا في مجال ضمان العدالة الاجتماعية، فالأنبياء ﷺ في الواقع يمثلون همزة الوصل بين عالمي الإنسانية والغيب.

بعد هذه الإشارة العابرة نعود إلى القرآن الكريم ولنتأمل خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

- ١ - «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»<sup>١</sup>.  
(الجمعة / ٢)
- ٢ - «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»<sup>٢</sup>.  
(البقرة / ١٢٩)
- ٣ - «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»<sup>٣</sup>.  
(البقرة / ١٥١)
- ٤ - «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ»<sup>٤</sup>.  
(الحديد / ٢٥)
- ٥ - «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»<sup>٥</sup>.  
(الأعراف / ١٥٧)
- ٦ - «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»<sup>٦</sup>.  
(إبراهيم / ١)
- ٧ - «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»<sup>٧</sup>.  
(الأنعام / ٤٨)
- ٨ - «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»<sup>٨</sup>.  
(النساء / ١٦٥)
- ٩ - «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

١. قريب من هذا المعنى جاء في سورة آل عمران، ١٦٤.

٢. قريب من هذا المعنى جاء أيضاً في الحديد ٥٧، والطلاق، ١١ وإبراهيم ٥.

٣. قريب من هذا المعنى بخصوص جميع الأنبياء عليهم السلام جاء في البقرة، ٢١٣ والأنعام ٤٨ والكهف، ٥٦ وآيات أخرى.

٤. قريب من هذا المعنى جاء في طه، ١٣٤ والقصاص، ٤٧.

بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». (البقرة / ٢١٣)

١٠ - «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيَتَذَكَّرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أَوْلَئِكَ

الْأَلْبَابِ». (إبراهيم / ٥٢)

١١ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»

(الأنفال / ٢٤)

### جمع الآيات و تفسيرها

لأهداف وفلسفة بعثة الأنبياء

١ و ٢ - التربية والتعليم

ورد في هذه الآيات عشر غايات لبعثة الأنبياء ﷺ

ففي الايتين الأولى والثانية إشارة إلى هذين رئيسيين من أهداف البعثة وفلسفة إرسال الرسل ﷺ، ألا وهما «التربية والتعليم».

يقول تعالى في الآية الأولى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ». ونظراً إلى كون التلاوة لآيات «حق» تعني بمشابه المقدمة بالنسبة للتركية وتعليم الكتاب والحكمة ومحو آثار الضلالة والشرك، يصيف تعالى قائلاً: «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»

صحيح أن الغاية الرئيسية من تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة هو تركية وتطهير الروح والبدن والفرد والمجتمع، وأن تعلم الكتاب والحكمة له دور الطريقة، وبمشابه مقدمة بالنسبة إلى التركية، لكنها مع ذلك تقدمت عليها طراً لأهميتها



في حين أننا نجد الآية الثانية من آيات بحثنا التي تتعرض لدعاء إبراهيم عليه السلام في حق الأمة الإسلامية، تقوم بتقديم «تعليم الكتاب والحكمة» على «التركية»، وتضع كلاً في مكانه الطبيعي له، حيث تقول: «وَرَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أجل، هذا هو طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى للأمة الإسلامية واتباع محمد ﷺ، حيث أمان الهدف من بعثة هذا النبي العظيم (وسائر الأنبياء) بكل وصوح. إن التأمل في هاتين الآيتين يكشف عن نكت جديدة بالاعتبار.

/تولاء: العبارة الواردة في الآية الأولى دليل على معرفة الله تعالى من جهة، وعلى البيوة العاصنة لسي الإسلام ﷺ من جهة أخرى، حيث تؤكد الآية أن الله تعالى هو الذي بعث نبياً بهذه الخصوصيات وهذا لا يتم إلا عن طريق قدرة الإلهية فقط. «هُوَ الَّذِي بَعَثَ» وكذلك تقول: إن النبي هو ذلك الشخص الذي ظهر من بين جماعة أميين، لكنه على الرغم من ذلك فقد أصبح معلماً للمئات والآلاف، وأفاض على أتباعه العلم والحكمة حتى ظهر من بينهم بعد فترة قصيرة أكار العلماء الذين قاموا بأساس حضارة عظيمة مشرقة.

ثانياً: دار الحديث في كلتا الآيتين عن أربعة مواضع وهي «سلاوة آيات الله تعالى» و«تعليم الكتاب» و«تعليم الحكمة» وأخيراً «التزكية والنظهير والتربية».

إن الحالة الطبيعية لهذه المواضع الأربعة، هي كما أشير إليها، بأنه يجب ابتداء أن يتعرف ويستأسر سمع الإنسان بكلمات الحق تعالى بذكر بعد ذلك مضمون الكتاب من أعماق هذه الكلمات، ثم يتعرف بعد ذلك على الحكمة أي الأسرار الكامنة فيها، وأخيراً يُظهر وينمي الروح والجسم.

هذا الترتيب الطبيعي يلاحظ في لاية المرتبطة بدعاء إبراهيم عليه السلام لكن «التزكية» قد تقدمت على «تعليم الكتاب والحكمة» كما جاء في قوله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (الجمعة / ٢) (آل عمران / ١٦٤).

وذلك لكي تتبين هذه الحقيقة التي ترى أن الهدف الرئيس من كل هذه المقدمات في تلك الآيات هو الطهارة والتقوى وتربية الإنسان ومواعظ القيم الأخلاقية والإنسانية.

ثالثاً: نظراً لتقدم «التزكية» على «التعليم» في آيتين من القرآن الكريم وتأخرها عنه في

آية واحدة، يرد هذا السؤال وهو: أي منهما يكون الأصل حقيقة والآخر فرع؟  
الجواب عن هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك لأن «العلم» له  
حيثية الطريقة المقدمية، والهدف الرئيسي هو تربية الإنسان وتركيبه النفس وتكامل الروح،  
وبعبارة أخرى: إن تلاوة آيات القرآن الكريم وتعليم العلم والحكمة كلهما تهدف إلى هذا  
الهدف الأسمى، وبناءً على ذلك تعد كل هذه مقدمة بالنسبة للتركيبية التي تعتبر ذي المقدمة،  
وما السبب وراء ذكر «التركيبية» قبل «تعليم كتاب و لحكمة» في آيتين أحريين إلا لبيان  
دورها المحطير هذا.

فصلاً عن ذلك، فإن كل واحد من هذين الأمرين يترك أثراً على صاحبه، أي إن الإنسان  
لا يسعى وراء العلم ما لم يتحقق مرحلة تركيبة نفس، وما لم يتحقق العلم فسوف لن تحصل  
المراحل العالية من التركيبية، وبناءً على هذا فـ «التعليم» و «التركيبية» لهما أثران متقابلان، كما  
يحتمل أن يكون الغرض من تنوع الآيات حول هذا الموضوع هو إلقاء النظر إلى هذا الأمر.  
وسعي ألا يحفى أن البعض من العلوم كالعلوم التي تبطل بالمعرفة بصورة عامة ومعرفة  
الله تعالى ونظائرها لها حيثية دائمة وعسية، أو بعبارة أخرى فهي مطلوبة بالذات، في حين أن  
العلوم الأخرى ليس لها حيثية مقدمة، ولهد يمكن أن يكون تنوع الآيات الأنفة الذكر  
إشارة إلى هذه الملاحظة أيضاً.

رابعاً: حول الاختلاف المحتمل بين «لكتاب» و «الحكمة» يعتقد البعض بأن الكتاب  
إشارة إلى القرآن الكريم، والحكمة إلى الأحاديث والسنة النبوية الشريفة، أو أن «الكتاب»  
إشارة إلى مجموعة الأحكام والأوامر الإلهية و «الحكمة» إشارة إلى أسرار تلك الأحكام  
وفلسفتها، لأن الإحاطة بتلك الأسرار تزيد من هرم الإنسان على تنفيذها، كما أن هناك  
احتمالاً آخر وجيه أيضاً وهو أن ذكرهما معاً «لكتاب والحكمة» إشارة إلى مصدرين  
المعرفة الرئيسيين أي «الوحي» و «العقل».

خامساً: لفظة «الأميين» على حد قول الكثير من المفسرين، إشارة إلى أولئك الذين لا  
يعرفون القراءة والكتابة ويجهلون العلم والمعرفة على الإطلاق، أي كأنما ظلوا كما ولدتهم  
أمهاتهم بالضبط لم يتغيروا قيد أنملة أبداً.

وظهور النبي الأكرم ﷺ بين قوم كهؤلاء هو دليل على عظمته وصدق دعوته لكن البعض من المفسرين اعتبر لفظ «الأميين» إشارة إلى أهل مكة التي كانت تسمى «أُم القري»<sup>١</sup>، وربما قيل: إن المراد من «الأميين» هم العرب وذلك لجهلهم بالقراءة والكتابة أيضاً.

لكن المعنى الأول أكثر تناسباً من تلك المعاني سادساً: إن التعبير بـ «ضلال مبين» هو فصل تعبير يعكس حالة عرب الجاهلية، فهم كانوا في ضلال، وأي ضلال، إنه ضلال مبين ظهر بجميع أبعاده، ألم يكن وأدالينات وعبادة الأوثان والتعصبات القبلية المقيتة ولعروب سدائمة ولافتخار بالإغارة على الآخرين وأمثالها ضلالاً مبيناً؟



والآية الثالثة تشير أيضاً إلى مساندة التربية والتعليم التي حصلت عند المسلمين على يدي نبي الإسلام ﷺ مع هذا الفارق وهو التأكيد بصورة خاصة على العلوم والمعارف التي يستحيل كسبها بدون بعثة النبي ﷺ، حيث تقول: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وتفسير هذه الآية كسابقاتها، مع فارق وجود جملة في دليلها تشير إلى أن نبي الإسلام ﷺ قد علم الناس علوماً يستحيل لحصول عليها من دون الوحي، وهذا ينبغي ألا يفوتنا التفاوت الواضح بين جملة «لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» النافية لإمكانية التعلم و«لَمْ تَعْلَمُوا» النافية للعلم.

قال في «روح المعاني» بعد الإلتفات إلى محملة الأحيرة التي تشير إلى العلوم التي لا يمكن اكتسابها إلا عن طريق الوحي: على هذا المحملة المشار إليها هي من قبيل ذكر الخاص بعد العام<sup>١</sup>.

١. تفسير روح المعاني، ج ٢، ص ١٧

لكن المرحوم الشيخ الطوسي في «اسباب» والشيخ الطبرسي في «مجمع البيان» سبقاه في التوجه إلى هذه الملاحظة وأشار إليها بعبارة مختصرة واضحة.

إن كتابها السماوي القرآن الكريم يحتوي في الحقيقة على قسمين من العلوم، فبالقسم الأول هو من المعارف التي يمكن أن يكتسب عن طريق الاستدلال العقلي، وإن كان القرآن قد عرض هذا القسم بشكل أكمل وأكثر اضمثاناً من الاستدلال العقلي.

والقسم الآخر يستحيل اكتسابه بغير الوحي كما تقدم، وهو الذي تم الاستناد إليه في الجملة الأخيرة (كالكثير من الحقائق المرتبطة بعالم ما بعد الموت والقيامة)، أو التواريخ المعتبرة للأقوام والأنبياء عليهم السلام السابقين ولتى صاعت على مر الزمن، وكذلك العلوم والمعارف التي حجب عن أظار المفكرين في ذلك الزمان على أقل تقدير.

﴿﴾



### ٣- إقامة القسط والعدل

تمت الإشارة في الآية الرابعة بشكل عام إلى أحد الأغراض الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام ألا وهو إقامة العدالة الاجتماعية، وأن نزول الكتاب والميزان بمثابة المقدمة لذلك، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ»

لقد أشير في هذه الآية إلى ثلاثة أمور باعتبارها مقدمة لإقامة العدل، وهي «البيِّنات» التي تعني الأدلة كما لا يخفى، والمشملة على المعاجز والأدلة العقلية على أحقية دعوة الأنبياء عليهم السلام وأخبار السابقين منهم، و«الكتاب» الذي يشير إلى الكتب السماوية التي تحتوي على بيان المعارف والعائد والأحكام والأخلاق، و«الميزان» الذي يعني القوانين الحميدة للخير من الشر والفصائل من الرذائل والحق من الباطل.

تمتع أنبياء الله عليهم السلام بهذه القوى الثلاث التي تمكنهم من دفع البشرية نحو إقرار العدالة، والملفت للنظر هنا هو عدم سببه إقامة العدل إلى الأنبياء، بل التصريح بأن المجتمعات

البشرية تنشأ على نوع من التربية يدفعها باستبحه إلى إقامة العدالة بنفسها! والمهم أيضاً هو ظهور هذه المسألة في المجتمع بصورة إرادية لا قهرية.

والتعبير بـ «الميران» عن القوانين الإلهية بما هو لدورها المهم في المسائل الحقوقية المشابهة لدور الميران في بيان وزن كل شيء كما هو عليه، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع القائمة، ونظراً لكون القوانين البشرية، لوضعية صادرة من علم الإنسان الناقص فلا يمكن الاعتماد عليها ولا يمكنها أبداً تحقيق العدالة، بل يحصر تحقق هذا الأمر في القوانين الإلهية النابعة من علم الله تعالى اللاهائي الذي لا يحاطه الخطأ والاشتباه، ذلك العلم الذي تسبح معه النفس المؤمنة وتركن إليه.

ويوجد أيضاً فريق لا يبالي بأي من هذه الأمور، بل يصرح كل شيء تحت قدميه حفاطاً على مصالحه الشخصية، فلا بد من مهذومة هؤلاء بقوة السلاح، وما جملة «وأمرنا الحديد فيه بأس شديد» المتقدمة لهذه الآية إلا إشارة إلى هذا الفريق الذي لا يعرف سوى لغة السيف.

ومع أن العصف قد ذهب إلى أن التعبير بـ «أسود» يعني مسجى الحديد (الصخور الحديدية) إلى كرتنا الأرضية من الكواكب الأخرى، لكن تعبير أمرنا يأتي أحياناً في غير الحديد أيضاً فمثلاً في أنواع الحيوانات كما ورد قوله تعالى «وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانَةَ أَزْوَاجٍ...».

وجاءت أيضاً للأنيسة التي تعطي بدن الإنسان حيث قال تعالى «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ النَّصُورِ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ».

تبين هذه الآية أن المراد منه هو لحقة ولبداغ الإلهي هي نفس الأرض، ونزول هذه الموهبة الإلهية من مقام الربوبية الشامخ إلى مقدم الإنسان الداني، يعبر عنها بأنزلنا وبعثنا. كما يشاهد هذا التعبير أيضاً في المحاورات اليومية، فحينما تصدر أوامر أو تبعث هدية من رئيس دولة مثلاً إلى مادونه يقال إن هذه لأوامر أو الهدية قد جاءت من المراتب العليا!



## ٤- حرية الإنسان

وأشير في الآية الخامسة إلى بُعد آخر من أبعاد فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ، ألا وهو نجاة الإنسان من مغالب الأسر والاستبداد، بقول تعالى «أَنْذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخِيلُ لَهُمُ الْعُلَيْتَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»

إن القرآن الكريم يقيم عدة أدلة على أحقية النبي لأكرم ﷺ بذكره لهذه الأوصاف الأولى: كونه أمياً، فهل يمكن عرض كتاب كهذا أو علوم كهذه من قبل شخص لم يحضر حلقات الدرس.

والثاني: هو شهادته الأنساء ﷺ السابقين هي حقيقة بيوه.

والثالث: إسجام تعليماته مع أوامر العقل والوجدان (إذ يستحيل إيجاد مذهب ورسالة لها مثل هذا الإسجام مع حكم العقل والوجدان، والدفع به إلى الإحسان والنهي عن السيئات والتوجه نحو الفضائل وترك الرذائل في مستحيط مربيها بالخرافات والجهل والجاهلية والغطاظة).

والدليل الرابع: بيان حرية الإنسان والسمي لإنقاذه من مغالب الأسر فطالما كُتِل الحكم الماديون الإنسان بالأغلال والقيود لتقوية مكنتهم، وأجاروا أنواع العذب في حقه، بل قد سلبوا حريته باسم الحرية، ولم تكن هناك مدرسة تنادي بخلاص الإنسان من ظلم الطواغيت وتحريره سوى مدرسة الأنبياء ﷺ.

والجدير بالذكر هو أن كلمة «يُحَصِّر» على وزن (يُضَر) التي تعني عقد الشيء وحبسه وقهره على حد قول الراغب في مفرداته وقد فسرها البعض بالحبس المؤكد أيضاً، ثم استعملت في لوازم هذا المعنى<sup>١</sup> (مثل العهد والميثاق وثقل الدوب والحيل الذي تربط به العيाम وأمثال ذلك) وجاءت هنا كناية عن نوع القيود التي تُثقل كاهل الإنسان.

١. مفردات الراغب ومقاييس اللغة، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

و«الأغلال» جمع «غل» وهي مشتقة في لأصل من مادة «غَلَّ» المأخوذة من النفوذ التدريجي للأشياء كنفوذ الماء الجاري وسط لأشجار، ولفظاً لكون «الغل» هي تلك الحلقة التي تحيط بالرقبة أو بها مع اليد والرجل مجتمعين فقد سُميت «غلاً» وأحياناً يطلق عليها «الجامعة» لنفس ذلك الغرض أيضاً.

وأكثر ما استعمل القرآن الكريم هذه المعردة للتعبير عن «طوى العنق» ولذا قالوا: هي الأغلال التي في أعناق الكفار.

على أنه حال، فقد وردت هنا كناية عن «غلال الأسر» والعرب إن الكثير من المفسرين قد اعتبر «الإصر» و«الأغلال» إشارة إلى «تكاليف الشاقة التي فرضها الله تعالى على اليهود، وإن نبي الإسلام ﷺ قد رفعها بشريعته السهلة السمحاء في حين أنه لا يوجد أي دليل على هذا التقييد والتخصيص، إذ إن الآية مفهومٌ واسعٌ حيث شملت كافة أنواع الاتقال الممنوعة وقيود الأسر».

قيود عبادة الأوثان والحرافات والعادات والتقاليد الحاطنة.

قيود الجهل والنصايح.

قيود أنواع التفرقة والحياة الطبقية

قيود القوانين الحاطنة

وقيود الأسر والاستبداد في مخالط الطواغيت.

لقد أعاد نبي الإسلام ﷺ وسائر الأنبياء ﷺ حرية الحقيقية إلى الإنسان وذلك برفعهم لهذه الأتقال وفكهم لتلك القيود والأغلال عنه، فقد مسحوا حرية التفكير والتعبير عن الرأي والتأمل والتحرر من عبودية أهواء النفس، انتحروا من قبضة الحكام الظالمين والتحرر من شباك الشياطين والطواغيت و انتحروا من سيطرة العرافات والأوهام وعبادة غير الله تعالى.

ومن المسلم أن عدم إرياح الطواغيت لتحرر الآخرين هو لرعبتهم في تسخيرهم لتحقيق أغراضهم الشخصية، ولا رأت - في عصرنا الحاضر الذي يتطلق فيه شعار حرية

الإنسان في أقصى نقاط المعمورة - تفرض على الإنسان تلك القيود والأغلال والأنقال المضنية التي تعود إلى العصر الجاهلي وبعناوين ومصطلحات جديدة، فالقوى المعطى تسمى دائماً وبصورة علنية للسيطرة على الشعوب واسترقاقها وتسخيرها مستخدمة كافة الوسائل العسكرية أو الإعلامية أو بشر ألور ونهب ثرواتها الفساد الأخلاقي، وقد بلغ ظهور هذا الأمر اليوم حدّاً يستحيل إنكاره بل لا يكاد يحلوه منه التاريخ المعاصر في كافة أرجاء المعمورة، وهي تسمى للقضاء على شعرات الحرية الجميلة.

أجل، فإن أحد الأهداف الرئيسية من بعثة الأنبياء ﷺ هو إيقاد الإنسان وتخليصه من أسر وقيود العبودية المقيتة.



#### ٥ - النجاة من الظلمات

ودكر في الآية السادسة الهدف ولبه البعثة ونزول القرآن المجيد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

و «الظلمات» مطراً لورودها بصيغة الجمع فدنيا تمثل مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل أنواع الظلمات: ظلمة الشرك والظلم والجهل وهوى النفس، وأنواع الحجب التي تسدل على قلب الإنسان وكذلك الظلمات التي تخيم على المجتمعات.

فالهدف من نزول الكتب السماوية هو إيقاد الإنسان من كل هذه الظلمات والأخذ بيده نحو نور التوحيد والتقوى والعدل والإنصاف ولأحوّة و .

والملفت للنظر هنا مجيء «الظلمات» بصيغة الجمع و«النور» بصيغة المفرد، وذلك لأنّ طريق التوحيد والحق واحد لا يوجد طريق سواء، وهو ذلك الطريق المستقيم الذي يربط بين المبدأ والمعاد فهو يختلف عن طرق الصلال المتشعبة، فنور الإيمان والتقوى هو أساس الوحدة والاتحاد، أمّا ظلمات الشرك واتباع هوى والطغيان فهي السبب الأساس في الاختلاف والحيرة والضياء.

وحَصَرُ بعض المفسرين «الظلمات» بـ «شرك»، و «النور» بـ «التوحيد» فقط لا يستند إلى دليل، إذ ليس ما ذهبوا إليه إلا أحد المصديق الواسعة للآية وبناءً على هذا فأحد أهداف البعثة هو بقاء الإنسان من الظلمات العكرية والعقائدية والأخلاقية والعملية، وهدايته نحو لنور والحياة الواقعية ويمكن أيضاً إيراد هذا الهدف في أهداف تربية والتعليم وإقامة العدل والحرية، أو العكس، ولكن نظراً لورود كل هدف على حدة في القرآن الكريم، فقد راعينا عرضها بصورة مستقلة أيضاً

والنور والهداية لا يفتقران بالقرآن الكريم لحسب بل قد ورد تعبير «النور» في حق النبي الأكرم ﷺ أيضاً في الآية «وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِأَذِيهِ وَبِرَاجَا مُنِيرَا» (الأحراب/٤٦)، والتعبير بـ «الناس» بحسب ما ذهب إليه تفسير المبران، هو لسان الهدف من بعثة نبي الإسلام ﷺ هو لهداية عامة الناس (إلى كل رماح ومكان ما دامت السماوات والأرضون) والتعبير بـ «بِأَذِيهِ» هو لبيان أن هداية الأنبياء ﷺ هي في الواقع جزء من «ربوبية الباري حلم قدرته» وفي مساره الذي يرضيه هو، تسعاهم الربوبية في عالم التشريع مع ربوبيته في عالم التكوين.



## ٦- العنبري والإنذار

مع أن الترغيب بأنواع الهبات والمكافآت المادية والمعنوية الإلهية والترهيب والإنذار من العقاب الشديد النفسي والبدني هما الطريق إلى التربية والتعليم، والعامل المساعد للاخراج من الظلمات إلى النور، لكن نظراً لتركيز القرآن الكريم عليهما كثيراً يمكن اعتبارهما أحد أهداف بعثة الأنبياء ﷺ.

وفي الآية السابعة من آيات البحث تمت الإشارة إلى هذا الأمر إذ قال تعالى: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»

هذه الآية ونظائرها التي تعتبر «بشارة» و «إنذاراً» هي بمثابة برنامج رئيسي للأنبياء ﷺ، وتعدّ أيضاً رداً على أولئك الذين يعتبرون الأنبياء ﷺ آلهة ويرجون منهم إظهار كل أنواع القدرة الإلهية، وعلى أولئك الذين أنكروا دعوتهم وخالفوهم في مسيرتهم إذ يؤكد الله تعالى أن وظيفة الأنبياء ﷺ هي تبشيري والإنذار فقط، أما باقي الأمور فهي موكولة إليه تعالى وأن الهداية مربطة بالناس أنفسهم كما في الآية: «فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (والذين كذبوا بآياتنا عنهم العذاب بما كانوا يفتشون) ففي الواقع يمكن حصر كل اندوافع الإنسانية في هاتين الجملتين المعروفتين: «جلب المنفعة» و «دفع الضرر» (الأعم من المادية والمعنوية)، وقد ركزت «البشارة» و «الإنذار» عليهما، كما أنهما بمثابة الأساس الذي يعتمد عليه كل تربية إلهية وبشرية مادية ومعنوية.

البشارة لا تكفي لوحدها وكذلك الإنذار، بل لابد من حاكميتهما معاً على حياة الإنسان وفي كل مراحل التربية منذ مولده حتى الرشد الأخير، والذي يلزم بإحداهما دون الأخرى سيعشل في براحه، إذ كما أن التشويق بعد عاملاً محرّكاً، فكذلك التهديد بعد رادعاً قوياً بالنسبة للمعاند.



## ٧- إتمام الحجة

من الطبيعي إن فريقاً من الأنانيين والمنطرسين المعاندين الذين يرون دعوة الأنبياء ﷺ مخالفة لأعراسهم الشخصية يمتنعون عن قبولها ويقعون منها موقفاً سلبياً، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً فمن الممكن أن يدعي هؤلاء ادعاءات وحجج واهية، من بينها، أن الله سبحانه وتعالى لو بعث نبياً لاستقبلناه بصدور رحبة ولآمنا برسالاته وبما يقول، إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة.

وعلى هذا الأساس فإن أحد أهداف بعثة الأنبياء هو إلقاء الحجة على هذه المجموعة على كافة المعاندين، وأن إلقاء الحجة هذا، يمثل أولاً، العدل الإلهي بالشكل الواضح والدقيق.

وثانيًا، يقطع على أهل الكذب الطريق ويحول دون تقديمهم الحجج والادعاءات الجوفاء، أو بتعبير علمي أدق فإن مسأنة استحقاق الجراء بالسبب لهذه المجموعة تخرج من إطار «الاستعداد والقوة» إلى حيز «العملية».

ولذا قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، كما ورد نظير هذا المعنى في آيتين أخريين يتحد مصمونهما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه / ١٣٤)

وورد قريب من هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (النقص / ٤٧)

❦❦❦



#### ٨- رفع الاختلاف

المجتمعات البشرية كانت ولا تزال تعاني الأمرين من الاختلاف وتحترق بساره، وتصيح المرید من القدرات والإمكانات الهائلة بسببه، تلك الإمكانيات التي لو وصفت في مكانها المناسب لغدت الدنيا جنة الفردوس.

ومن جهة أخرى فإنه من المسلم أن الناس لا يستطيعون تسوية الاختلافات التي تقع بينهم، وذلك بسبب قصور ومحدودية علمهم بكل جوانب الحياة، بالإضافة إلى الأنانية والتكبر الذي يمنعهم من الازعان والركون إلى بعضهم لبعض.

أما الأنبياء ﷺ الذين يسع علمهم من بحر عدم الله تعالى اللامتناهي والذي لا يقارن بمستوى علم البشر، فإنهم يتمكنون من أداء دور فعال في حل تلك الاختلافات وإزالتها. صحيح أن عالم الماديات هو عالم الحجب، إذ لا يمكن رفع الاختلافات كلياً بين الناس بأي طريقة، ولكنه من المؤكد إمكان إزالتها سبباً في ظل عالم الأنبياء ﷺ.

❦❦❦

ولذا أشارت الآية التاسعة من البحث إلى هذا الهدف، قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

و«الأمة» في الأصل على ما ذهب إليه راعب في مردياته تطلق على كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما أن يكون دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر العام فسريراً أو اختيارياً، وجمعها أمم.

لكن هذه اللفظة وردت بمعنى العقيدة أيضاً، «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» (الرغرف / ٢٢ - ٢٣) وأحياناً جاءت بمعنى نفس الزمان قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ».

وكذلك قوله تعالى: «وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ بِالْفَقْدَانِ إِلَى أُمَمٍ مَعْدُودَةٍ لَقَوْا لِمَا يَخْبِيهِ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَعْنُ مَضْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» (هود / ٨)

وفي الآية مورد البحث يبدو أن «الأمة» جاءت بمعنى الجماعة الواحدة.

لكن ما هي هذه الأمة الواحدة التي عاشت في بداية الحلقة يا ترى؟ وما هي عقيدتها؟ يوجد بين المفسرين حديث طويل وعريض حول هذا الموضوع، ولهم احتمالات عديدة في تفسير لفظ «الأمة» ومصيرها، وأهمها ثلاثة احتمالات:

الأول: أنها كانت أمة مهتدية، وكانت هديتها نابعة من الفطرة الإلهية المودعة لديها، ثم اختلفت ذلك الاختلاف الشاسي من عمقها المحدود، وذلك لعجز أحكام الفطرة والمستقلات العقلية عن الأخذ برمام الأمور لوحدها، ومن هنا بعث الله تعالى الأنبياء ﷺ إلى البشرية لتحليصها من مشكلة الاختلافات الناشئة من الجهل ومحدودية معرفتها.

بعث الله الأنبياء ﷺ ووضعوا حداً لهذه الاختلافات وبيّنوا الحقائق، لكنه ظهر بعد ذلك اختلاف آخر نشأ من الجهل وانظلم ونعساد، وهنا أيضاً شملت الأنطاف الإلهية

المؤمنين المخلصين، فسلكوا الطريق إلى الحق مهتدين بنور إيمانهم وتقواهم إلى أن بلغوا الصراط المستقيم، بينما بقي الآخرون عارقين في ظلمات الاختلاف، وطبقاً لهذا التفسير، فالأمة الواحدة التي ظهرت أولاً كانت على الحق، لكن محدودية إدراك العقل البشري كانت سبباً في الاختلافات، ثم أعلن الأنبياء ﷺ عن خاتمة هذه الاختلافات عن طريق الوحي المعصوم من لحن، لكن هوى النفس والميول والتكبر والمجب كان السبب وراء بروز اختلافات جديدة، ولم ينح من هذه الاختلافات سوى المؤمنين الصالحين.

والدليل على هذا التفسير هو مصمور الآية التي تذكر نوعين من الاختلاف هي الأمة، الاختلاف الذي كان السبب في بعثة الأنبياء ﷺ وذلك لرفعهم، والاختلاف الذي ظهر بعد نزول الكتب السماوية والبيئات، أما بصرار بعض المفسرين على كون هذه الأمة الواحدة صالحة من معرفة بمجموعها منذ البداية لا يسعهم مع لحن الآية ومطردة الإنسان التوحيدية التي يصرح بها القرآن (خصوصاً تلك الفترة الملموسة عند الناس السذج في أول الخلقة الذين لم تكن الميول والرغبات النفسانية قد هيمنت عليهم بشكل خطير بعد). أما فيما يتعلق بالعصر الذي استوعب المجتمع البشري الأول الذي عبر عنه القرآن بـ «الأمة الواحدة»، فقد ذهب البعض إلى أنه إشارة إلى الفترة ما قبل بعثة نوح ﷺ وبعد هبوط آدم ﷺ وبناء على هذا فـ «الأمة الواحدة» هي نفس تلك الأمة التي ظهرت منذ زمن تناسل ذرية آدم ﷺ، والتي كان الإيمان والتوحيد حاكمين عليها إلى أن اتسعت فيها آثار الشرك يوماً بعد آخر، بسبب انجهد وقلة المعرفة، مما هبنا الأرمية المناسبة لرسالة نوح ﷺ. ومن الطبيعي أن استثناء من قبيل وجود «قبيل» بين أولاد آدم ﷺ لا يحول دون إطلاق كلمة «الأمة الواحدة» على مجموعة أولاده، وهناك احتمالات أخرى حول هذا الموضوع لا نفي بالفرص بحسب الظاهر.

على أية حال يستفاد من مجموع ما جاء حول تفسير الآية أعلاه أن أحد أهداف بعثة الأنبياء ﷺ هو رفع الاختلافات الناشئة من جهل الناس، ولا يخفى أيضاً أن الاختلافات



الناشئة من هوى النفس والعجب والتكبر ستبقى ما بقي الإنسان بالرغم من أن الأنبياء ﷺ قد خفضوا من نسبتها بتعليمهاهم القيمة.



#### ٩- التذكير (بالنسبة للعديهيّات والمستقلّات العقلية)

ثبت الإشارة في نفس هذه الآية إلى أن أحكام الأنبياء ﷺ وتعليماتهم تؤيد أحكام العقل وتدعمها، وهذه بنفسها أحد أهداف بعثتهم.

وتوضّح ذلك إن الإنسان يدرك الكثير من «حقائق» الكون وكذلك «ما ينبغي» و«ما لا ينبغي» بواسطة عقله، لكن هناك وساوس مرمية كامة في هذه الإدراكات العقلية، خصوصاً إشكالات السوفسطائيين أو الطوائف المسكرة للحس والقبح العقليين وأمثالها التي تؤدي إلى إضعاف العقل وبالتالي النظر إلى هذه الإدراكات والمستقلّات العقلية نظرة سلبية وهنا يسوجب اللطف الإلهي إرسال الأنبياء ﷺ ليؤكدوا صحتهم إلى الله تعالى صحة الإدراكات العقلية وعلى أن الفتن الواقعة إنما هي من فعل العقل البشري، وذلك من خلال بياناتهم الصادرة من الوحي السماوي، ويقطعوا الطريق أمام الوساوس التي تعترض هذه الإدراكات.

هذا هو الذي عبّر عنه القرآن بـ «لتذكر»، يقول تعالى في الآية مورد البحث «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيُرْتَبِّحُوا إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيُنذِرَ الَّذِينَ أُولُوا الْأَلْبَابِ» والتعبير بـ «الذكر» كثير جداً في القرآن، ومجموع ما ذكر إثنين وخمسون مرة في مختلف الآيات والتي تشير أغلبها إلى القرآن الكريم.

أمّا التعبير بـ «تذكر» (مخاطبة النبي بصيغة الأمر) فقد جاء في ستة موارد، وتعبير «يتذكرون» في ثمانية موارد، و«تذكرون» في سبعة عشر مورداً، و«يتذكرون» في سبعة موارد، وما أكثر مشتقات هذه المادة في القرآن الكريم والتي تبين بمجموعها أن قسماً عظيماً من تعليمات الأنبياء ﷺ لها صيغة تذكيرية وإعادة المسيات إلى الأذهان على أقل تقدير.

يستفاد من كلمات بعض أرباب اللغة أن «الذكر» لا يعي العلم والمعرفة، بل يعني «إعادة الإطلاع على الشيء»، يقول الراغب في مفرداته بعد مقارنته بين «الذكر» و«الحفظ». «التفاوت بينهما هو أن الحفظ يقر اعتباراً بالإحراز، والذكر يقال اعتباراً بالاستحضار»، ثم يضيف قائلاً: الذكر ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ.

وهذا التعبير يبين أن الذكر هو في كل الأحوال نوع من الإلتفات المستأنف للشيء الذي كان ساكناً في الذهن سابقاً، سواء كان بعد انسيان أم لا، وقد ورد «الذكر» بمعنيين أيضاً في «مقاييس اللغة». الأول إشارة إلى الجنس المذكّر في قبائل الجنس المؤنث، والثاني ما يقابل النسيان.

إن هذه التعابير القرآنية يمكنها أن تكون إشارة إلى ما ذكر أعلاه، وهو أن الإنسان يدرك سلسلة من الحقائق عن طريق العقل، كما يحصل على القسم الأعظم من (ما ينبغي) و(ما لا ينبغي) الذي يعدّ من المستقلات العقلية كحسن أنواع الإحسان وقبح أنواع الظلم والفساد، لكن الشك والترديد يراود هذه البديهيات أحياناً بسبب وساوس الشياطين.

وهنا يأتي دور الأنبياء عليهم السلام لمساعدة الناس وتأييد هذه الإدراكات العقلية، إذ يبطالون مفعول هذه الوسوس، أو بعبارة أخرى يعيدون هذه الأمور إلى الأذهان.

بعض الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه يعتبرون العلوم الإنسانية ضرباً من الدكریات، ويعتقدون بأن الروح الإنسانية قبل نزولها إلى هذا العالم كانت تدرك كل هذه الحقائق ولكن حجب عالم المادة تسببت في نسيانها، وبناء على هذا فالعلم والتعليم سواء أكان عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام أم عن طريق التجربة وشرح الأسناد لا تخرج عن كونها ضرباً من التذكر والتذكير ليس إلا.

ومن البديهي عدم وجود دليل واضح يدعم هذا الإدعاء بهذه السعة، بل الصحيح هو ما تقدّم أعلاه من أن قسماً من معلومات لإنسان نحصل عن طريق الفطرة أو العقل، وأحياناً

١ لمزيد من الإطلاع راجع «سير حكمت در اروپا» ج ١ ص ٢٣، بحث فلسفة أفلاطون (بالفارسية)

تودع في رايوة النسيان والإهمال، أو تجد نوساوس طريقها إليها. فمهمة الأنبياء ﷺ حينئذ بالإضافة إلى تعليم الناس مسائل جديدة، من شأنها تقوية بنية مثل هذه الأحكام الواقعية و تنقيتها من الوساوس التي تخاطبها

كما يستفاد من الآية الآتية الذكر دور لأنبياء ﷺ يكمن في أربعة أمور، الأول: إبلاغ الدعوة الإلهية للبشرية جمعاء، والثاني: إتمام الحجة، والثالث: الإنذار (والتبشير)، وأخيراً التعليم والذكر وقد تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة أيضاً

❦❦❦❦

#### ١٠ - الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة

لقد أشارت الآية العادية عشرة من آيات بعثنا هذا إلى نقطة اتفقت عليها الاهداف التي سبقت الإشارة إليها من بعثة الأنبياء، وهي أن الأنبياء ﷺ دعوا أفراد البشر لكي يحيون حياة طيبة حقيقية وشاملة لكل منطلقات العيش

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرُّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

وهذا التعبير هو أقصر وفي نص لوقت شمل تعبير ورد بحق دعوة نبي الإسلام ﷺ (ودعوة كافة الأنبياء ﷺ) والذي يؤكد على أن هدف البعثة هو الحياة في كافة أبعادها: المادية والمعنوية والثقافية والاقتصادية وسياسية والأخلاقية والاجتماعية.

مع أن الحياة في آيات القرآن قد وردت بمعنى الحياة النباتية في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (الحديد / ١٧) وأحياناً الحياة الحيوانية في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (فصلت / ٣٩)

لكنها وردت هنا بمعنى الحياة الإنسانية، قال تعالى (في بعض المؤمنين الذين آمنوا): ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾

(الأنعام / ١٢٢)

وبناءً على هذا علو رأينا البعض يعتبر الآية المعينة ناظرة إلى «الجهاد» لوحده باعتباره العامل الاساسي في حياة الأمم، أو «الإيمان بالله» أو العلم والمعرفة أو الحياة الأخروية، فهم في الواقع إنما يحددونها في بعض مصاديقها فحسب، وإلا فمفهومها أوسع وأشمل من هذه كلها.

والملفت للنظر أن الحياة في هذه الآية قد فسرت في الروايات<sup>١</sup> بمعنى ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي في الحقيقة أحد مصاديقها الهامة وذلك لأن ولايته عليه السلام هي السبب للدعوة إلى الإسلام في كافة المجالات، فولايته دعوة إلى العلم والزهد والتقوى والإيثار والإخلاص.



### ثمرة للبحث:

بالإمكان إدغام واختصار الأهداف العشرة من حجة الأنبياء والمذكورة سابقاً في ستة أهداف، وهي «التعليم، تهذيب النفوس، إقامة القسط والعدل، الحرية، إقامة الحجة ورفع الاختلافات»، ولكن بالنظر لأهمية الموضوع في القرآن الكريم تناول كل واحدة منها على حدة، ونتيجته لذلك فإنه يبدو واضحاً أنه لولا أنبياء وديانهم السماوية والتعاليم المقدسة التي جاءوا بها، ومنذ اليوم الأول لشيأة المجتمع الانساني، فأى مصير مظلم سوف ينتظر الانسانية؟

وفي عصرنا الحاضر، أيّ عالم رهيب ومخوف سوف يصبح فيه عالم اليوم لو تنكر الانسان لتعاليم الأنبياء والتزم بالقيم الجوفاء بعيدة عن الرحمة والنورانية وجعلها بديلاً للقيم الإلهية التي جاء بها الأنبياء في دعواتهم وتعاليمهم، وكما هو متعارف اليوم في بعض دول العالم؟!

كما يمكن الاستنتاج من الشرح أعلاه أن ندين والمدّهب على خلاف ما يراه الكثير من

البسطاء وذوى النظر الضيق، أنه لم يعد مسألة شخصية خاصة، بل حقيقة لها وجودها ودورها الفاعل في كافة أبعاد حياة الإنسان، وثمها تضيق على كافة شؤون الحياة صعبة الإهتة وإنسانية

إن الشعار الذي ترفعه اليوم كل القوى العظمى في العالم أي الدول التي يصطليح عليها بالمتطورة، هو الحفاظ على منافعها الخاصة، بكل خطوة تخطوها تعلن بكل صراحة أنها إنما تخطوها لأجل المنافع المادية للدولة، وليس من العريب أن يكون عالم كهذا بؤرة للأزمات ومركزاً للصراعات وأنواع الظلم والإعتداء، ونقص اليهود والإستعمار واستغلال المستضعفين، وذلك لأن هدفهم الرئيسي هو حفظ المصالح الشخصية والوطنية لا حفظ المثل والقيم كالعادلة الاجتماعية وإقامة القسط والحرية والأحلاق الإنسانية، إذ إن مثل هذه القيم لا توجد إلا بمعيتة دعوة الأنبياء ﷺ ولا غير



### توضيحات

#### ١ - فلسفة بعثة الأنبياء، والرسول في الروايات الإسلامية

ما تقدم في الايات المذكورة حول اهداف بعثة الأنبياء ﷺ وعللها، قد تم ذكره في الروايات الإسلامية أيضاً ويتمايز أخرى لا تخلو بنفسها من فائدة قصوى، وكنموذج على ذلك يمكن التأمّل في البعض من الروايات أدناه والتي تنظر كل واحدة منها إلى هدف واحد أو أكثر:

١ - ورد في الحديث: عندما أعلّى النبي ﷺ لأكرم ﷺ عن دعوته، جاء أشرف قريش إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أحيك يتهمنا بالسفّه ويطعن في آلهتنا ويفسد شبابنا ويحدث التفرقة بيننا لو كان يبي مالا لجعلناه أغنى رجال قريش أوجاهاً لأمرنا، علينا فذهب أبو طالب إلى النبي الأكرم ﷺ وأخبره بذلك، فقال ﷺ: **ولو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري ما أردته، ولكن كلمة يعطونها بها يكون بها العرب**

وتدين بها العجم ويكونون ملوكاً في الجنة.

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم، وعشر كلمات، فقال لهم رسول الله: تشهدون أن لا إله إلا الله وأتني رسول الله؟<sup>١</sup>

هذا الحديث يكشف بكل وصوح أن قبول دعوة الأنبياء ﷺ يعد في الحقيقة نصراً في الدارين وعزاً وحرية وحياة راضية مرضية.

٢- وفي حديث آخر عن هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام روي أنه عليه السلام وفي معرض الرد على سؤال أحد الكفار والرنادقة حول الفرض من بعثة الأنبياء ﷺ قال: «إنا لما ابتلنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً منا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، فيأشروهم ويحتاجهم ويحتاجونه ثبت أن له سفراء في خلقه يفترون عنه إلى خلقه وعبادته ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم»<sup>(١)</sup>

٣- ورد في نهج البلاغة بيان جذاب لأمر المؤمنين ﷺ حول فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ حيث يقول: «بعثت فيهم رسله، وأوتوا إليهم أنبياءه، ليستأنسوا بهم في طهرته، ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويهيروا لهم دلائل العقول»<sup>٢</sup>.

٤- وفي حديث آخر جاء عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إنا بعثت لأتكم صالح الأخلاق»<sup>٣</sup>، وعريب من هذا المعنى ورد في حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «بعثت لأتكم مكارم الأخلاق»<sup>٤</sup>.

٥- جاء عن الإمام علي عليه السلام في كتاب مروع لكافي أنه خطب ذات مرة فقال فيما قال: «أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ بالحق ليخرج عباده من عبادة عباده

١ تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٤٢، ح ٧، وفي ترجمة علي بن إبراهيم ج ٢ ص ٢٢٨

٢ أصول الكافي، ج ١ ص ١٦٨، كتاب المعجزة باب الاضطراب إلى حجة، ح ١

٣ نهج البلاغة، الخطبة ١.

٤ طبقات ابن سعد، ج ١، ص ١٩٢ (ط - بيروت).

٥ كنز العمال، ج ١١، ص ٢٠، ح ٣١٩٦٩

إِلَى عِبَادَتِهِ وَمِنْ عَهْدٍ عِبَادَةٍ إِلَى عَهْدِهِ، وَمِنْ طَاعَةٍ عِبَادَةٍ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمِنْ وِلَايَةٍ عِبَادَةٍ إِلَى وِلَايَتِهِ، بِشِيرٍ وَنَذِيرٍ وَدَاعِيٍّ إِلَى اللَّهِ يَلْذَنهُ وَسَرَاجًا مُنِيرًا<sup>١</sup>.

## ٢ - الغاية من إرسال الرسل في التصور العقلي

(أ) هُجَزُ الْإِنْسَانِ عَنِ التَّقْسِينِ الدَّقِيقِ

هناك علاقة وثيقة وواضحة جداً بين بعثة الأنبياء ﷺ والهدف من خلق الإنسان، ولا يمكن لأحد الجمع بين الإيمان بالله وبين إنكار حكمته في كل الكون، خصوصاً حلقة الإنسان، بناءً على هذا فلا بد من وجود هدف وراء خلق الإنسان، وليس هذا الهدف سوى تربية مخلوق كامل يشع منه نور من صفات جمال الحق وحلاله، ويليق بنيل القرب الإلهي ومن البديهي أن تربية موجود كهذا بدون تخطيط دقيق ومسق في كافة أبعاد الحياة غير ممكن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذه البرامح ليست تلك السهولة التي يمكن للإنسان الإحاطة بجميع أبعادها مستعياً بعقله الناقص ولعدم تمكن الجميع من التعامل مع الوحي الإلهي بصورة مباشرة.

ويُفهم من هذه المقدمات التي أُشير إلى كُنْ منها بصورة مختصرة، بدهية أن يختار الله تعالى نواباً من قبله ليحملوا مشعل الهداية الإلهية إلى المجتمع البشري ليحرصوه من الظلمات إلى النور، ومن النقص إلى الكمال، ومن الجهل إلى العلم، ومن الانحراف إلى التقوى ومكارم الأخلاق، ولا يخفى أن عدم تحقق بعثة الأنبياء يؤدي إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف.

وحيث إن الإنسان مدني بالطبع يستأسس بالحياة الاجتماعية، فقد أودع الله تعالى حب مثل هذه الحياة في باطنه ليفوده عن طريقها نحو الهدف الأسمى، إذ إن محدودية القوة البدنية والفكرية للإنسان المروى لا يمكن إنكارها، فهو عاش لوحدته بعيداً عن أفراد نوعه لما وجدت هناك حضارة ولا اختراع وكتشاف ولا علوم ومعارف، إذ إن اجتماع

١. فروع الكافي، ج ٨، ص ٣٨٦، ح ٥٨٦.

وتلاقح عقول وأفكار وتجارب بني الإنسان هي السبب وراء ظهور قوة عظيمة وثوقير الأرضية المناسبة للحركة التكاملية في تمام لجوانب المادية والمعنوية وبسرعة حاطفة. فلو عاش الإنسان على أفراد بقي لحدّ لأن في العصر الحجري، ولما تعلّم القراءة والكتابة على أكبر الظن، فصلاً عن كلّ هذه نعلوم والإختراعات والإكتشافات، وخلاصة القول هي أنّ أكبر إنجازين للإنسان هما حرية التفكير، والتمتّع بالإبتكار والابداع والإختراع، فصلاً عن الرعية في حياة اجتماعية في لمرحلة المتعدّمة

لكنّ من الواضح جدّاً أنّ الحياة الجماعية مع كلّ ما تحمله من بركات هي السبب من جهة أخرى وراء خلق المشاكل والمصادمات والارمات وتعارض الأهواء الشخصية، وإنّ طبيّ المسير التكاملي إنّما يسوّى بذلك المجتمع الذي يشخص فيه واجبات كلّ فرد وحقوقه، ومن هنا تظهر الحاجة إلى سنّ القوانين الاجتماعية وتنظيم حقوق أفراد المجتمع، والقانون هو الذي يمتن واجبات كلّ فرد بالصبط كما يمتن حقوقه، وأخيراً يقدّم خطة القضاء على المشاكل وحلّ العصورات ويبيّن كيفية مواضعها النحلّات والاحراف

وبناء على هذا فالحياة الجماعية يدور القانون السليم والنظام الصحيح هي أسوأ من الحياة الفردية بعدّة مراتب، وذلك لزول مدافع المجتمع وبسبب التناقضات ولبّ الكلام يكمن في السؤال عن الطرف الذي يسنّ هذه القوانين، فهل هو الإنسان أم الخالق؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بتحليل مختصر، وهو أنّ المقنن الكامل يجب أن يتمتّع بالشروط أدناه ليتمكن من سنّ أفضل قانون

١- يجب قبل كلّ شيء أن يكون المقنن حبيراً بالإنسان عالماً بكلّ أسرار جسمه ونفسه وعواطفه وغرائزه وميوله وأهوائه وأماهيه وفطرته وإدراكاته العقلية، وكذلك محيطاً بكلّ الأصول الحاكمة على الروابط التي تجمع الناس مع بعضهم البعض ليتمكن على ضوءها من وضع قوانين تتسجم معها

٢- يجب أن يكون له علم تامّ بالماضي والمستقبل البعيدين، ليقف على جذور مسائل



اليوم المعقّدة من خلال الماضي، ويتمكّن من تقييم آثار قوانين اليوم على مستقبل الحياة البشرية، نظراً لاستحالة إمكانية حلّ مشاكل اليوم مع الجهل بجذورها الماضية، كما هو الحال تماماً في استحالة فائدة قوانين اليوم مع عدم الأُحد بظن الإعتبار مضاعفاتها في الغد (تأمّل جيّداً).

٣- المقنّن المناسب يجب أن يتضمّن بـ «عدم كامل» ليتمكّن عن طريق قوانينه من إخراج كلّ القابليات والإمكانات والاستعدادات الكامنة في داخل أفراد المجتمع إلى حيز الوجود، ويصمّي العملية على ما هو كامن في طبيعة الإنسان بالإمكان والقوّة، ويغذّي المجتمع بأكبر قدر ممكن من الإنجازات وبأقلّ ثمن يكلف طبيعة الحياة الجماعية.

٤- يجب أن تكون القوانين ذات جنة وقمة لا حيالية، وتتمتع بصمان تميدها بشكل وافٍ من قبل مؤيديها، وبعبارة عن التعيد ليسهل على الجميع إدراكها.

٥- المقنّن الحقيقي هو الذي لا يرتكب ذنباً مَحْماً وسهواً. فضلاً عن ضرورة كونه رحيماً بأولئك الذين تُسنّ لهم القوانين، وحزناً قوياً للإرادة وشجاعاً في نفس الوقت.

٦- المقنّن اللائق من ليست له مصلحة شخصية في ذلك المجتمع، لأنّها إنّما تشغل فكر المقنّن وتجلبه نحوها، إذ إنّهُ لو تمكّن على سبيل المثال من اجتذاب آثارها الظاهرة للعيان لعجز عن الوقوف على آثارها المخفية بالتأكيد، وإنّ أكبر معضلة لعالم اليوم، والتي تسيّبت في خلق المواجهات والمشاحنات الدامية هي هذه القوانين التي تُسنّ من قبل ما يصطلح عليهم بمفكرّي كلّ مجتمع على حده، بدكّل واحد منهم لا يأخذ بظن الإعتبار سوى منافعه الشخصية أو مافع أتباعه ووطنه، ويديهي أنّ مثل هذا التكبر والأنانية وصيق النظر لا يحمل معه سوى زيادة في حدة الصراعات والمواجهات

وهل تتوقّر ياترى هذه الحثثات السئّة نعتقّدة في غير ذات الباري جعلت قدرته؟ الذي لا نهاية لعلمه بالماضي والمستقبل المحيط بجذور وأسرار كلّ شيء وكلّ موضوع ونتائجه والذي لا يجد الخطأ والسهو والإشياء طريقاً إلى ذاته المقدّسة.

وأخيراً هو الذي لا يحتاج شيء ولا لأحد لضمان مافعه.

ومن هنا نستدل على نقص وعدم جدوى كل قانون غير قانون الله تعالى، بل كل حكم دون حكمه تعالى زائل لا محالة ولا يمكن لاعتماد عليه، وحينما ندقق النظر القويم نجد أن كل مشاكل الإنسان ومعضلاته تابعة من رغبته في سن قانون لنفسه اعتماداً على علمه المحدود، وبدوافع هوى النفس! وهذا هو أحد الأدلة العملية على لزوم بعثة الأنبياء ﷺ.

﴿٥٥﴾

#### ب) التنسيق بين التكوين والتشريع

يمكن توضيح مسألة ضرورة بعثة الأنبياء ﷺ عن طريق منطق وبيان آخر وهو أن إلقاء نظرة واحدة على عالم الحلقه كافيه لإدراك حقيقة أن خالق الكون ومن أجل إيصال كل موحود إلى كماله النسبي، قد وضع تحت تصرفه كل ما يحتاجه وأزال عن طريقه كل الموانع، ولم يقتصر على اللوازم الضرورية فطرياً لهذا الطريق، وإنما منحه ما يحتمل كونه عاملاً مساعداً لبلوغ هذا الهدف وإن لم يكن ضرورياً، فالطائر الذي خلق ليطير مثلاً، يراه يتمتع بهيكل يسهل عليه طيرانه من كافة الجهات فضلاً عن أجسده القوية التي تكسبه قدرة عظيمة على التحليق عالياً.

وعندما منح الإنسان عينين لمشاهدة لمساتر لمحتلعه، فلم يكتف بالأعضاء الضرورية التي تستعمل الرؤية بدورها، بل وضع تحت اختياره الكثير من الأعضاء التكميلية إذ زود العين بـ «الأهداب» للحؤول دون دخول ذرات الغبار، ووضع في سقف الأجفان «غداً دهية» لتبقى رطبة دائماً وجهر العيون بـ «عدد دمية» ليبقى سطح العين رطباً دائماً لئلا تحدث حركة الأجفان أدنى جرح فيها، وأوجد «الحاجبين» كالسد فوق العينين لإكمال عملهما ولكي تمنع برول العرق من الحسین عليهما، وزود كرة العين بـ «عضلات» تمكنها من الحركة إلى الجهات الست بحرية.

كما أن بالإمكان الوقوف على الكثير من هذه المادج في عالم الحليقة كله. وهذا يرد هذا السؤال وهو أنه هل يمكن لمخالق، الذي وضع كل هذه الوسائل المتطورة

تحت تصرف الموحودات في عالم التكوين (الحلقة) أن يخصص النظر عن إرسال الأنبياء ﷺ والدور المهم لهذه البعثة في طريق تكامل النوع البشري وتحقيق الهدف من حياته في كافة أبعادها المادية والمعنوية كما تقدم ويعرم المجتمع الإنساني من هذه الموهبة العظيمة؟<sup>١</sup> أشار الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب «الشفاء» إلى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة وتمثيل رائع حيث قال:

«فحاجة الإنسان إلى هذا «بُعْثِ الرُّسُلِ» في أن يبقى نوع الإنسان ويتحفظ وجوده، أشد من الحاجة إلى انبات الشجر على الحاحيين وتغير الأحسن من القدمين وأشياء أخرى من الصافع التي لا ضرورة فيها في بقاء ... فلا يجوز أن تكون العناية الأزلية وتقتضي تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أشتها»<sup>٢</sup>.

وقد بين هشام بن الحكم التلميذ المعروف للإمام الصادق عليه السلام هذا الاستدلال بشكل آخر له «عمرو بن عبيد» العالم السني المعروف وقد سبق ابن سينا بذلك، ومن جملة ما ذكر في هذه المحاورة: «... قلتم: لا بد من القلم والبرق لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت له: يا أبا مروان فأنه تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟ قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً»<sup>٣</sup>.



### ج) التربية العلمية

الطريق الثالث الذي يمكننا أن نستفيد منه للحصول على تحليل منطقي لمسألة علّة إرسال الرسل، هو أن تربية الإنسان لها بعد علمي قبل أن يكون لها بعد وجانب عملي.

١ الشفاء، الإلهيات، المقال ١٠، الفصل ٢، ص ٤٤١.

٢ أصول الكافي، ج ١، ص ١٦٩، كتاب المعجزة، باب الإضرار إلى المعجزة، ح ٣.

والشرط في موقعه الربّي في مهمته أن يتمكن من الظهور كقدوة متكاملة في تطبيق تعليماته من الناحية العملية فضلاً عن التهيئة للارتماء، وأن يعكس كل المسائل التربوية من خلال صفاته وأخلاقه وتصرفاته. ولا يمكن هذا إلا أن ينتحب الأنبياء ﷺ من جنس البشر كقدوة حسنة، فيعكسوا صفات الإنسان الكامل وسلوكه من الناحية العملية ليقتدي بهم الناس، ويسيروا على خطاهم فيقطعوا هذا لطريق المنيء بالعثرات والعقبات بقيادتهم وبعبارة أخرى: هناك في وجود الإنسان شيء اسمه روحية «المحركات» أي أنه ينجذب بصورة لا إرادية نحو ما يراه في أمره حسنه، وهذا الإحساس طبعاً لا يبلغ مرتبة الدافع القهري بل هو بمثابة الأرضية المناسبة لحركة إرادية كما هو الحال في الظمأ فإنه لا يجبر الإنسان العطشان على شرب الماء لكنه يعدّ بمثابة الأرضية لذلك.

حينما يأتي الأنبياء ﷺ أو الأئمة المعصومون ﷺ الذين هم من جنس البشر بالتعليمات الإلهية الجامعة إلى من يمانحهم ويظهرهم هذه التعليمات عملياً ويعكسون الفصائل الإنسانية بالتعوي والصدق يحصل باقي البشر على أرضية مناسبة لاكتساب مثل هذه الصفات.

ولذا فالقرآن الكريم يصرّح بضرورة كون النبي الأكرم ﷺ من جنس البشر، كما أنه لو كان هناك ملائكة يعيشون في الأرض لوجب ظهور أنبياء من جنسهم، وذلك ردّاً على أولئك الذين يصرّون قائلين لماذا لم يكن أسير الأكرم ﷺ من جنس الملائكة أو لماذا لم يصطحبه ملك على أقل تقدير؟ يقول تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَخْشَوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» (الإسراء / ٩٤ - ٩٥)

يبدو أن التعبير بـ «ملائكة يخشون مطمئنين» لبيان هذه المسألة وهي أنه حتى لو كان هناك ملائكة يعيشون في الأرض متسالمين لبعضنا بلهم ملكاً من جنسهم كفائد يقودهم بالرغم من انعدام الخصومات فيما بينهم، بطراً إلى أن مهمة الأنبياء ﷺ لا تنحصر في إنهاء حالة التخاسم وإقامة القسط والعدالة الاجتماعية، بل تعدّ كل هذه مقدّمة لطريق

الكمالات المعنوية للتقرب إلى الله تعالى.

على أية حال فقد ورد ما يشبه هذا المعنى في لباس آخر كإجابة على تدرع المشركين، حيث قال تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾. (الأنعام / ٩)

كما أن هناك ملاحظة جديرة بالإعتبار، وهي أن لقرآن يؤكد على كون نبي الإسلام ﷺ أو سائر الأنبياء عليهم السلام قدوة ومثالاً يقتدى به ويوصي الناس بضرورة الاقتداء بهم في برامجهم العملية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. (الأحزاب / ٢١) ويقول في موضع آخر: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾. (المتحنة / ٤)

كما نكرر نفس هذا المعنى في الآية السادسة من نفس هذه السورة على أية حال فمسألة التربية والتعليم عن طريق الاقتداء بالقيادة الإلهية مؤيدة بالتحليل المنطقي والآيات القرآنية أيضاً.



### ٣- أسلوب الجفافين

في قبال الأدلة الكثيرة على لزوم إرسال الأنبياء عليهم السلام المتقدمة، والتي سالت قبول الأكثرية القاطعة من العقلاء في العالم، نجد أن مذهب البراهمة<sup>١</sup> نفى ضرورة بعث الأنبياء عليهم السلام من الأساس، بل اعتبرها مستحبة وغير معقولة، لاعتقاده بكفاية ما يعينه العقل للإنسان! وقد نقل الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» بعضاً من شبهاتهم حول هذا الموضوع وقال:

١. مذهب البراهمة هو من أقدم المذاهب المعروفة التي ظهرت في المشرق، ومركزه الأصلي «الهند»، قال الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل»: هذا الاسم مأخوذ من اسم «براهما» مؤسس هذا المذهب، في حين أن «فريد وجدي» يقول في «دائرة المعارف»: إن هذا الاسم مشتق من اسم أحد آلهتهم الكبيرة أي «براهما»، والبراهمة وفصلاً عن إنكارهم لنبوة يسوع من التثليث أي «آلهة الثلاثة».

أ/ أن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: فإما أن يكون معقولاً وإما أن لا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً فقد كما ما العقل تمام يادركه والوصول إليه، فأى حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حد البهيمية.

ب/ قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم ولحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدلّ عليه عقولهم. وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنه أعم على عباده نعماً توجب الشكر، فظهر في آيات خلقه بقوساً وشكره بآلائه علينا ... وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه فما بالما نتبع بشرأ مثلنا؟! ج/ إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع ربح هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب حتى تكون باسمية إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووصعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعصم يتقدم بملك أمراً ونهيماً، فأى تفوق له عليك؟ وأئمة عصيلة أوجبت استحداثك؟ وما دليبه على صدق دعواه؟ وما فصل حديثه على غيره؟ ولو أنهم جاؤا بأشياء تفوق العادة، فإن هناك من يخبر عن المفريات أيضاً.

د/ قد دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقع في عقولهم. وقد جاء أصحاب الشرائع بمستقيحات من حكم العقل، كالإحرام والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وأمثالها، فما فائدتها؟ لماذا حرّموا بعضاً من طعام الإنسان وحلّلوا ما يكون مضرّاً؟



### الجواب:

يمكن الإجابة عن هذه الشبهات بسهولة:

أ/ يجب ألا ننسى أن معلوماتنا وإدراكات العقلية ما هي إلا قطرة من محيط عظيم

وغيض من فيض بالنسبة إلى مجهولاتنا، وهذه الحقيقة يعترف بها جميع العلماء والمفكرين سواء من الإلهيين أو الماديين.

فمن يقول إنّ رسالات الأنبياء ﷺ إمّا أن تكون موافقة لعقولنا أو مخالفة، فإنّه يفهم من كلامه أنّ العقل يدرك كلّ شيء، لكنّ الأمر ليس كذلك، بل هناك شقّ ثالث أوسع من صاحبيه، وهو تلك الأمور التي ليس لنا علم بها أصلاً ولا يمكننا نفياً ولا إثباتاً، لكنّ حينما تثبت إجمالاً عن طريق الأدلة التي سشير إليها فيما بعد بأنّ الأنبياء ﷺ يتكلّمون نياحة عن الله تعالى ويحبرون من علمه اللامحدود فإنّه سوف لن يبقى هناك مجال سوى قبولها والإذعان بصحتها.

فإشكال البراهمة الأوّل يشبه قولنا بعدد لروم التوجّه إلى الأستاذ والاستفادة من علمه وتجربته، لأنّ ما يقوله الأستاذ إمّا أن يكون موافقاً لعقل التلميذ أو لا، ففي الحالة الأولى لا حاجة للذهاب وفي الحالة الثانية لا يجب التسليم وقبول قول الأستاذ. ويدهي أنّ هذا الكلام صيبي لا يخفى جوابه على أي معرّ، فالأستاذ إمّا يعلم التلميذ أشياء يعجز عقله عن فهمها أو إثباتها بالإضافة إلى ذلك قد يلتبس الأمر علينا فنقع في الشكّ والإضطراب أحياناً في مسائل عرفها بصورة صحيحة فلا يدري هل فهمناها بصورة صحيحة أم لا؟

وبدون شكّ فإنّنا سنظنّ ونتيقّن إذ ما يُدها الأنبياء وصدقوها، لذا فنحن محتاجون إلى الأنبياء في كلّ الأمور سواء علمناها أم لم نعلمها، (فتأمّل).



ب) صحيح أنّنا نعرف الله تعالى بالأدلة العقديّة، وأنّ حكم العقل هو الذي يفرض علينا شكر نعمه، لكنّ هذا لا يكفي، فطريق السعادة والكمال الإنساني مليء بالعقبات والمخاطر، ولا بدّ من وجود أشخاص مجهزين بالقُدرة الإلهيّة وإمدادات الغيبيّة ليأخذوا بأيدينا عند اجتيازنا لهذه المخاطر.

نحن لا تقتدي بإنسان مثلاً أبداً، بل بإنسان له اطلاع واسع جداً، وعلمه متصل بعلم الله  
اللامحدود عن طريق الوحي، واتباع شخص كهذا منطقي جداً.

❦❦❦

ج) ممّا تقدّم يتّضح الجواب على الإشكال الثالث أيضاً، إذ إنّ إطااعتنا لأوامر  
الأنبياء ﷺ والوقوف رهن إشارتهم لتقواهم التي لا مثل لها والتي لمسنّاها فيهم.  
نحن نضع أحياناً قلوبنا وعقولنا التي تعدّهم وأعزّ أعصائنا تحت تصرف الجراح الذي  
نتق به، فينهال عليها بمبضعه، وحينما موافق على تحديرونا من قبله ليفعل ما يريد، فهل يعدّ  
هذا العمل حماقة؟

بديهي إنه ليس كذلك، فعلم ومعرفة الطبيب بالجراح من جهة، وحسن ظننا بعمله من  
جهة أخرى، يبعثان على التسليم له بلا قيد أو شرط، لا يحفى أن الأنبياء ﷺ الإلهيين  
يفوقون الطبيب علماً وتقوى بكثير.

❦❦❦

د) أي أمر غير منطقي يوجد في تعليمات الأنبياء ﷺ؟ فهل مراسم الحجّ والسعي بين  
الصفا والمروة ورمي الحمرات والإحرام هي خلاف العقل؟  
إنّ تأملاً بسيطاً في فلسفة هذه الأعمال يكشف عن مدى حكمته، وكيف أنّها تربي  
الإنسان تربية صالحة.

فحين نعرح عند الإحرام من حجاب عالم العادة، ونترك كلّ الفوارق القومية والعرقية  
والطبقية جانباً ونقف كلّنا سواسية ونترك كلّ ما يشغل القلب جانباً ولو مؤقتاً، ونستفرغ له  
«معرفة وجودنا وخالقنا» في عالم معوي خالص

والجعرات الثلاث تمثل الشيطان، إذ يرميه بحصى سبع مرّات متعاقبة، وبهذا يعلن عن  
رفضنا واستيائنا من الأعمال والأفكار الشيطانية



وعند السعي بين الصفا والمروة نتذكر سعي «هاجر» تلك المرأة الطاهرة الصائمة وجهدها لنجاة وليدها «إسماعيل»، فنطوي المسافة بين الصفا والمروة عدة مرات، وقصاري الكلام، إن الأعمال التي نتجرها يعتبر كل واحد منها مثلاً لبرامج تربوي مسبق، وعند الانتهاء نشعر بأننا قد حصلنا على شخصية جديدة ومعرفة جديدة عن الله تعالى وعن نفوسنا، ذلك الإحساس الذي يحصل لكل إنسان بعد مراسم الحج.

إن تحريم الأنبياء ﷺ بعض المواد القذرة والمشروبات مثل «الخمر» و«لحم الحنزير» إنما للأضرار الكامنة فيها ولتي غفل الناس عنها سابقاً ثم أظلموا عليها بالتدريج في هذا العصر، فنحن لا نعرف شيئاً حثله الأنبياء ﷺ وتسبب في ضرر الإنسان مادياً أو معنوياً.

وخلاصة القول، إن هذه الإشكالات الأربعة لسببها قد نشأت عن جهلهم بالأنبياء ﷺ أو تعليماتهم من جهة وعدم معرفتهم لمدى قدرة العقل من جهة أخرى، وبهذا يصل إلى نهاية البحث حول فلسفة «البعثة»



مکتبہ اسلامیہ

# الخصائص العامة





مکتبہ اسلامیہ

## الخصائص العامة للأنبياء ﷺ

إنَّ مهمَّةَ هدايةِ الخلق وتهذيب النفوس وتعميم الناس وسريرتهم وإقامة العدل وإزالة الاختلافات وتحرير الإنسان من مخالب الأسر مهمَّة شاقَّة وصعبة ممَّا يجعلها تتطلب استعداداً خاصّاً من السَّاحَةِ الجسدية والروحية والعلمية والأخلاقية.

ولهذا السبب لا يتسنى لأيِّ إنسان تحمُّل أعباء مثل هذه المسؤولية، إلاَّ لمن حصل على القدرة على تهذيب النفس وبنائها من جهة والإمداد الإلهي من جهة أُخرى، ومن البديهي أنَّ الفرد العادي غير السَّاحِ لا يتمكَّن أبداً من تقبُّل مثل هذه المهمَّة الخطيرة والكلام هنا هو عن ماهية هذه الخصائص التي ينبغي توفرها لدى كلِّ سبي، ومن الطبيعي أنَّ الأنبياء ﷺ وأولي العزم وأصحاب الشرائع والسُّنن يجب أن يكون لهم النصيب الأوفى منها.

وهنا يسعنا القرآن في ذكر هذه لخصائص فضلاً عن الأدلَّة العقلية، المتوفرة في هذا المجال.

- بهذه الخلاصة نعود إلى القرآن لنعين حاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:
- ١- ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. (مريم / ٤١)
- ٢- ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِمَّااعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾. (مريم / ٥٤)

- ٣- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. (الشعراء / ١٠٦-١٠٧)

- ٤- ﴿أَتَلْعَقَكُمُ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾. (الأعراف / ٦٨)

- ٥- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الشعراء / ١٠٩)
- ٦- «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (الأنعام / ٨٤)
- ٧- «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا» (الأحزاب / ٣٩)
- ٨- «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ • مِنْ دُونِهِ فَكِهْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ • إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» (هود / ٥٤-٥٦)
- ٩- «وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (مريم / ٥٧)
- ١٠- «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران / ١٥٩)
- ١١- «وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (البقرة / ١٢٤)



## جمع الآيات و تفسيرها

### ١- صدق الحديث

إن أول حصلة لكل شيء قبل كل شيء هي صدق الحديث، وذلك لأنه يحبر عن الله تعالى، فمع عدم الإطمئنان بصدقه لا يمكن لإعتقاد على كلامه، ولذا فقد أكد القرآن على هذه المسألة عدة مرات، من جعلتها أول آية من آيات بحثنا إذ يقول تعالى: «وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا»، كما أن نفس هذا الوصف قد ورد بحق إدريس في سورة مريم، الآية ٥٦ ويوسف في سورة يوسف الآية ٤٦.

والملفت للنظر أن وصفه بـ «الصدق» قد سبق وصفه بـ «النبوة» في هذه الآية، وهذا

يُبين أن أصل النبوة إنما يركز على «صدق» خصوصاً إن «صدقاً» هي صيغة مبالغة للصدق<sup>١</sup>، وتعني كثير الصدق أو الذي لا يكذب أبداً والذي يوافق قوله عمله، وبناءً على هذا فالأرضية المناسبة لتقبل النبوة المتوقفة لدى جميع حملة الوحي الإلهي هي «الصدق المطلق» لئتم من خلاله إيصال أمر الله تعالى إلى عباده بدون أية تقيسة.

طبعاً يمكن للداس اكتشاف هذه العصمة في النبي لأكرم ﷺ من خلال تتبع حياته السابقة كما هو الحال تماماً في أهالي مصر عندما عرفوا يوسف بـ «الصدّيق» وخاطبوه بـ «يوسف أيها الصدّيق».

(يوسف / ٤٦)



## ٢ - الالتزام بالعهود والمواثيق

الكلام في الآية الثانية عن الصدق أيضاً فكلّ ما في القول بل في العهود والمواثيق، واللعيف هنا أيضاً هو ورود هذه الحصلة قبل الوصف بالرسالة والنبوة والتي تشير إلى صحتها الأرضية المناسبة لمرحلة النبوة، لأنّ القسم الأعظم من دعوة الأنبياء ﷺ إنما يركز على أساس الوعود التي تعطى للمستقبل، وبولم يكن النبي الأكرم ﷺ صادقاً في وعوده لانهارت أسس دعوته، قال تعالى في ذلك: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا»، ويدهي بـ من كان كاذباً في كلّ شيء حتى في وعوده لا يمكن أن يبلغ مقام الرسالة الشامخ وذلك لأنّ الشرط الأول لهذه المرحلة هو إيمان الناس بأقواله ووعوده واختبارهم لصدقه في كافّة الميادين

ولذا فحتّى الأفراد المعدودون الذين لا يعتبرون مكانة «العصمة» شرطاً أساسياً للنبوة في كافّة المجالات تراهم يعتبرون الصدق من بين الشروط

وفيما يتعلّق بكون «إسماعيل عليه السلام» صادق الوعد، فقد جاء في الكثير من كتب التفسير

١. يقول الزمخشري، الصدّيق من صيغ المبالغة وتعني العبادة في الصدق والتصديق بالآيات الإلهية (تفسير الكشاف ج ٢، ص ١٨).

والروايات أن الله تعالى قد اعتبره «صادق نوءد» نظراً لعزمه على الوفاء بالوءد حتّى إنّه انتظر شخصاً كان قد وعده فى مكان ما، لمدة سنة كاملة وحيما جاء ذلك الشخص قال له إسماعيل: لقد كنت فى انتظارك طيبة هذه ائمة!.

ولا يعمد أن يكون المراد من الإنتظار لمدة سنة هو التردد على ذلك المكان ومراقبته بين العين والآخر لعودة ذلك الشخص لا المكوث هناك سنة كاملة تاركاً كل أعماله ومشاعله الحياتية.

لكن هل يا ترى إن إسماعيل هذا هو نفس «إسماعيل بن إبراهيم ؑ» المعروف أم «إسماعيل بن حزقيل» الذى هو من أنبياء بني إسرائيل، فهذا محل بحث، وقد اختار الكثير الإجمال الأول، لكن تمّ التصريح بالإحتصار الثانى فى البعض من الروايات الواردة فى مصادر أهل الست ؑ، وذلك لوفاء إسماعيل فى حياة أبه إبراهيم طبقاً لبعض الروايات، وهذا لا يتلاءم والتعبير بالرسالة فى محقه، هي كهن أن القرآن يقول فى الآية الآتية الذكر: «وكان رسولاً نبياً»، وما قيل، إنه كان يمتلك رسالة من قبل أبه لهداية قبيله «بهرهم» من سكة مكة لا يبدو مناسباً أيضاً لأن ظاهر الآية هو أن «إسماعيل» المذكور هنا كانت له رسالة إلهية لا رسالة من قبل إبراهيم ؑ.

علاوة على ذلك فلو كان المراد هو إسماعيل بن إبراهيم ؑ لكان من المناسب ذكره بعد إبراهيم ؑ فى الآيات السابقة لا بعد موسى ؑ.

وعلى أية حال فلا أثر لهذا الكلام فى بحثنا الذى يدور حول مسألة خصوصيات الأنبياء ؑ.



### ٣- الأمانة

إن منزلة النبوة والرسالة هي مكانة تتطلب «الصدق» و«الأمانة»، الأمانة فى نقل الوحي



وإيصاله إلى الناس والأمانة في حفظ الأسرار الإلهية، والصدق والأمانة بعودان في حقيقة الأمر إلى أصل واحد، غاية الأمر أن اصدق أمانة في الحديث والأمانة صدق في العمل! ولذا يقول القرآن في ثاني آية من آيات بحث «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إني لكم رسول أمين». كما أن نفس هذا التعبير «إني لكم رسول أمين» قد ورد بحق كل من «هود» (الشعراء / ١٢٥)، و«صالح» (الشعراء / ١٤٣) و«لوط» (الشعراء / ١٦٢) و«شعيب» (الشعراء / ١٧٨) و«موسى» (الدخان / ١٨)، ومثلاً لا شك فيه هو أن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء لإلهيين كانوا قد أثبتوا أمانتهم للناس عملياً كما قرأنا عن النبي الأكرم عليه السلام أنه كان يلقب بـ «محدث الصادق الأمين» من قبل حاشية الناس وعامتهم وذلك قبل نزول الوحي، وقد كان عليه السلام يستدل بسابقته هذه أمام المحالفين بأنهم كيف لا يصدقون بإتذاره فيما يتعلق بالوحي الإلهي مع علمهم وإقرارهم بصدقه وأمانته!١.

والملفت هو أن القرآن قد وصف جبرئيل حامل الوحي الإلهي بهذا الوصف أيضاً حيث قال «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ» (الشعراء / ١٩٣-١٩٤) وفي الحقيقة إن حملة الوحي، سواء الملائكة الذين هم الوسطة في إبلاغ الوحي، أم الأنبياء أنفسهم أو الأئمة ونواب المعصومين لديهم أبطت بهم مسؤولية إبلاغ وحفظ الوحي الإلهي، هم أمناء الله في خلقه، ومن هنا فبما نرى أن الإمام علياً عليه السلام وباقي الأئمة الأطهار عليهم السلام يعتنون بأمناء الله في الرياسة المعروفة بزيارة «أمين الله»، حيث ورد هذا الخطاب: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه» وهو شاهد آخر على إثبات هذا الادعاء.

❦❦❦

١. جاء في التواريخ في ديل الآية «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» أنه عليه السلام صعد إلى جبل الصفا بعد نزول هذه الآية ودعا كلأ من «بني عبد المطلب» و«بني عبد مناف» فجلسوا حوله قال لهم عليه السلام، لو أخبرتكم بأن جيشاً عظيماً يقتحم عليكم بمحاذاة هذا الجبل فهل ستصدقوني أم لا؟ فقال الجميع بلى! ما عرفنا منك الكذب أبداً. فقال عليه السلام، «إذن فاعلموا أنني لكم نذير من العذاب الإلهي». (الكامل ج ٢، ص ٦٠).

## ٤ - الرغبة والشفقة الفائقتان

إنَّ الإنسان الذي يقود الناس ويتحمَّل مسؤولية هدايتهم وتربيتهم كمعلم صالح لهم هو ذلك الشخص الذي له رغبة شديدة بهذا العمل وفي قلبه شغفه على الناس، بل إنَّه يعشقهم فلولا حبُّ الأبوين لولدهما لما تحمَّل أبداً كلَّ هذه المشاكل لرعايته وتربيته، ولولا حبُّ الأنبياء ﷺ لهداية الناس لما تحمَّلوا أبداً أعباء هذا العمل الذي يفوق طاقته الإنسان، ولما عرَّضوا أنفسهم لأنواع المخاطر في هذا الطريق

وقد أكَّد القرآن مراراً على هذه لمسألة كما ورد في الآية الرابعة من بعثنا، ونقلاً عن لسار «هود» بيي الله تعالى حيث قال لقومه معاندين المتعصِّين: ﴿أُتِلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

ونفس هذا المعنى ورد بتعبير أدقَّ في حقِّ النبي الأكرم ﷺ حيث يواسيه تعالى ويقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. (الكهف / ٦) كما جاء بظن هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. (الشعراء / ٣)

«ناصح» مأخوذة من مادة «نصح» وتعني على حدِّ قول الراغب في معردياته، تحرِّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه (أي أنَّه يشمل تحرِّي الصلاح قولاً وفعلًا)، وقد جاء في القرآن أنَّ نوحاً ﷺ دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فتحمَّل أنواع المشقَّة لتبليغهم رسالات ربه وهدايتهم وبالنتيجة لم يؤمن به خلال كلِّ هذه المدة إلا نفر قليل، (ذكرت التواريخ أنَّ عددهم لم يتجاوز بيئاً وثمانين براً فقط)، وبعبارة علمية بسيطة فإنَّ نوحاً قد تحمَّل مشقَّة اثنتي عشرة سنة تقريباً لهداية كلِّ واحد منهم على انفراد، وبديهي أنَّ تحمُّل مثل هذا التعب والمشقَّة لا يتحقَّق إلا في ظلِّ الرغبة والحب الشديدتين لهداية الخلق.



## ٥ - الإخلاص والإيثار للتكامل

من الصفات المهمة للأنبياء ﷺ التي أكَّد عليها القرآن هي عدم انتظارهم لأي نوع من

الأجر والمكافأة المادية في مقابل دعوتهم إلى الله تعالى ودين الحق، فنقرأ مثلاً في الآية الخامسة من آيات بحثنا حول أول نبي من أولي العزم أي نوح ﷺ: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَبْتَنِي إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ» كما أن هناك آيتين أخريين بنفس هذا المضمون قد وردتا في حق نوح ﷺ أيضاً (هود / ٢٩) و (يونس / ٧٢).

وفي حق «هود» في موردين (هود / ٥١) (الشعراء / ١٢٧).

وفي حق «صالح» في آية واحدة (الشعراء / ١٤٥).

وفي حق «لوط» في مورد واحد (الشعراء / ١٦٤).

وفي حق «شعيب» في مورد واحد (الشعراء / ١٨٠).

وأخيراً فقد تكرر التأكيد على هذه المسألة في عدة مواضع من القرآن في حق نبي الإسلام ﷺ: (الأنعام - ٩٠) (سبا - ٤٧) (الفرقان - ٥٧) (ص - ٨٦)<sup>١</sup>

على أية حال فإن تأكيد القرآن على مسألة أن أول كلام للأنبياء ﷺ الإلهيين هو عدم انتظارهم لأية مكافأة في مقابل جهودهم، وسلوكهم وأفعالهم تكشف عن إمكانية التعرف عليهم من خلال هذه الحصلة.

إنهم ﷺ كانوا يقولون ذلك ويعكسونه من خلال سلوكهم وأفعالهم، في حين إن المذهبي زوراً ربما يقول مثل قولهم لكنه لا يلتزم به عملياً أبداً

ويحتمل أن ملكة سبا أرادت اختبار سليمان ﷺ وهل أنه نبي صادق أم ملك يبغى وراء تظاهره بالدعوة إلى الله تعالى منافع مادية، فقالت: «وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْكُمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

فإذا وافق سليمان ﷺ على الهدية ودرج بها لانتصح أن له دافعاً مادياً، بينما النبي من

١ الجدير بالذكر هو أن القرآن الكريم يقول حيناً في حق نبي الإسلام ﷺ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» (الأنعام / ٩٠) ويقول أحياناً: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» (الفرقان / ٥٧) وفي موضع آخر يقول: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِنُفْسِي» (الشورى / ٢٣) ولا يخفى أن هذه الآيات بمجموعها تبين أن مسألة مودة ذوي القربى إنما تعود فائدتها إلى الناس، وهذه في الواقع بمثابة تسرعة تصب في حانئة المطاف في نهر «الإمامة والولاية المنصوصة» التي عيَّن بها الله تعالى لهداية الناس وللحصول بتعليمات نبي الإسلام ﷺ. وبالنتيجة فكل منعة تحس من هذا الطريق إنما تصب في خير الناس ولأجلهم.

لا يهتم لزخرف الدنيا ورينتها ودافعه إلهي محض  
وعلى أية حال فإن تصريح القرآن بهذه النكسة في حق ستة من أنبياء الله ﷺ،  
والذين من بينهم إنسان من أولي العزم يثبت وجود هذه الحالة في كل الأنبياء ﷺ، ولا  
مناسبة لحصرها في خصوص هؤلاء الستة فقط، بل إن كل الأنبياء يتصفون بهذه الصفات.

❦❦❦

## ٦- البر والإحسان

من صفاتهم البارزة الأخرى هي الإحسان للصدق والعدو معاً، فلقد كانوا في الحقيقة  
مظهراً لصفات «الرحم» و «الرحيم» والمفضل والإحسان للجميع.

ولذا فقد نسب القرآن هذه الصفة إلى الكثير من الأنبياء ﷺ ومن جملة ذلك ما  
جاء في الآية السادسة من آيات بحثنا بعد الإشارة إلى «إسحاق» و «يعقوب» ولدي  
إبراهيم البارزين للدين وهبهما الله تعالى له في آخر عمره، وكذلك «نوح» و «داود» و  
«سليمان» و «أيوب» و «يوسف» و «موسى» و «هارون» (عشيرة من الأنبياء العظام) من  
بينهم ثلاثة من أولي العزم يقول تعالى: «وكذلك نجزي المحسنين» أي أن إحدى الصفات  
البارزة التي كانت لديهم هي صفة «الإحسان»

كما ورد نفس هذا المعنى أيضاً على انفراد في آيات متعددة من جملتها: «سَلَامٌ عَلَى  
نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ • إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفافات / ٧٩ - ٨٠)

و«سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ • كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفافات / ١٠٩ - ١١٠)

و«سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ • إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفافات / ١٢٠ - ١٢١)

وأخيراً: «سَلَامٌ عَلَى إِبْلِيسَ • إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصفافات / ١٣٠ - ١٣١)

وهذا التكرار في التأكيد هو خير شاهد على ما تقدم أعلاه من ماهية الصراط من البر  
و«الإحسان» الذي جاء في الكثير من الآيات، وللمعشرين عبارات شتى فالبعض منهم  
كالمرحوم الطبرسي قد فسر «الإحسان» في كثير من الموارد في «مجمع البيان» بمعنى

طاعة المولى جلّت قدرته بل قد صرح أنّه لو حصل هذا المعنى أي مقام العبودية والطاعة للآخرين لشمّلتهم مثل هذه العناية الخاصة أيضاً  
 لكنّ البعض الآخر كصاحب تفسير «روح البيان» قد فسّر ذيل الآية الثمانية من سورة الصافات بمعنى الصبر والتحمل أمام أذى العدو واعتدائه  
 كما يحتمل أيضاً أن كلّ واحد من الأنبياء ﷺ قد برّر في أحد فروع البرّ والإحسان نظراً إلى أن كلّ الطاعات والأعمال الحسنة تدرج تحت عنوان «الإحسان»، الصبر والتحمل، الطاعة والعبودية، العفو والمغفرة، وأمثالها.

❦❦❦

#### ٧ - عدم الخشية من غير الله تعالى

نظراً لتمتّع الأنبياء ﷺ بمقام رفيع في معرفة الله تعالى، فقد كانوا يدركون جيّداً أن الله تعالى هو المسع الرئيسي لكلّ خير وقوّة ولو أنّه تعالى دافع عن شخص لما تمكّن العالم بأسره من إلحاق الضرر به.

وثمرّة هذه المعرفة هي الخوف من مخالفة أمر الله تعالى وحده وعدم المبالاة بمن سواه كائناً من كان.

ولذا يقول تعالى في الآية السابعة من آيات بحثنا بعد أن أشار إلى عدد من الأنبياء ﷺ السابقين، «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا».

إنّ هذه الخاصيّة منحت الأنبياء ﷺ قدرة فائقة باعتبارهم قادة إلهيين، ومنحتهم صموداً أمام الأعداء المعاندين بل هي في الواقع أحد أسباب موفقيتهم.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو، أنّ الله تعالى خاطب نبي الإسلام ﷺ، في آيتين سابقتين على هذه الآية ٣٧ في نفس سورة لأحزاب حول زواجه من زوجة زيد المطلقة وقال: «وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»، أي أنّك تخاف غير الله فيما يتعلّق بموضوع

زواجك من هذه المرأة باعتبار أن زيدا هو إليك بالتبني لا حقيقة، ومن العار الزواج من زوجة الابن بالتبني عند عرب الجاهلية، في حين أن الأنسب أن تخاف الله تعالى.

هذا التعبير يبين أن النبي الأكرم ﷺ على الرغم من كونه أفضل الأنبياء ﷺ كان يخاف غير الله أيضاً في حين أن الآية تقول: «الَّذِينَ يُتْلِقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا» (الأحزاب / ٣٩)

فكيف يتم التوفيق بين هذين التعبيرين؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تنصح من خلال ملاحظة واحدة، وقد ذكرناها في «التفسير الأمثل» وهي أن خوف بني الإسلام ﷺ هــالـم يكن على شخصه بل كان يخشى في الواقع أن يكون إقدامه هذا على نقض عادة الجاهلية تلك (زواجه من زوجة ريد المطلقة) سبباً في خدش مكانته وتزلزلها في أذهان عموم ذلك المجتمع باعتباره واحداً من الأنبياء ﷺ وبالتالي لا يتمكن من تحقيق أهدافه الإلهية وإلا فالإقدام على عمل كهذا وسط ذلك المجتمع اندي تعمده الأمور العجيبة والغريبة لا أهميته له أهدأ من الناحية الشخصية مهما كان مخالفاً لفكر الناس وعاداتهم.

كما أن تقارب محلّ الأيتيم من بعض يمكن أن يكون شاهداً آخر على هذا المدعى أيضاً.

إذن فخوف النبي الأكرم ﷺ في هذه القصيدة هو مصداق للخوف الإلهي لا الشخصي (فتأمل جيداً).

## ٨- التوكل المطلق على الله تعالى

إن الأنبياء ﷺ كانوا يبعثون عادة بين قوم قد عرقوا في الفساد الأخلاقي فضلاً عن الانحراف الفكري والعقائدي، ولذا كانت دعوتهم لإزالة هذه الآثار السيئة تواجه بشورة عنيفة من قبل ذلك المجتمع حتى أنهم كانوا يتخذون العزلة في بعض الأحيان، والذي كان يقدّمهم بالقوة والمهنة لمواصلة تحقيق أهدافهم في مثل هذه الظروف هو مسألة التوكل على

الله، والتي نجد أحد مصاديقها في قصة هود في الآية الثامنة من بحثنا:

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ إِنَّكَ لَمِ تَأْتِنَا بِدَلِيلٍ وَاضِحٍ وَلَوْ نَتْرَكَ آلِهَتَنَا لَكَلَامِكَ هَذَا بَلْ لَنْ تُوْمِنَ بِكَ أَصْلًا. وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ بِأَنَّ آلِهَتَنَا قَدْ غَضِبَتْ عَلَيْكَ وَسَلَبَتْكَ لِبِكَ لَكِنَّهُ صَمَدٌ بِجَرَأَةٍ وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ \* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

عندما يرى الإنسان شخصاً جاهلاً ومتعصباً، فيصاب بالدهول والصرع، فكيف به إذا أراد أن ينهض لمواجهة قوم منحرفين ويحملون كافة الصفات الرذيلة، وهو لا يملك العدة والمعدة ليتغلب بها عليهم؟! من البديهي إن عملاً كهذا لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة المدد الإلهي، وهي القوة السابعة من التوكل، حيث أن التوكل لا يأتي إلا من الإيمان بالله سبحانه وتعالى المهيمن على كافة أرجاء العالم.

والملفت للنظر هو عدم تكرار الأنبياء ﷺ لتهميات أعدائهم وعدم إبراز أي رد فعل تجاههم، بل على العكس كانوا يحثقرون قدرتهم وعرضونها للإستهام ويهيمون بهم بأنهم لا يعيرون لكل ذلك المجتمع الوثني السعائذ أي اهتمام يذكر، فهذا التوكل المنقطع النظير هو أحد خصائص الأنبياء ﷺ.



#### ٩- الإخلاص المنقطع للنظير

وصف «المخلص» ورد ذكره في القرآن مرة واحدة فقط، وذلك في حق موسى بن عمران ﷺ فقد وصفه بالإخلاص قبل وصفه بالرسالة والنبوة، يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

لكن نظراً لما ورد على لسان الشيطان في آيتين من القرآن: ﴿وَلَا غُورِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. (الحجر / ٣٩ - ٤٠) (ص / ٨٢ - ٨٣)

ولبداهة كون الأنبياء ﷺ من الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم بأي حال من الأحوال

فيمكن استنتاج شمولية هذا الوصف لكل الأنبياء سواء موسى ﷺ أو غيره.

فما هو «الإخلاص»؟ إنَّ الإخلاص منزلة رفيعة جداً يؤكد عليها علماء الأخلاق والعرفان كثيراً وهو أن يعتبر الإنسان ذات الباري جلّت قدرته هي المؤثر الحقيقي في عالم الوجود لا غير، وهذا نابع من المعرفة التامة بتوحيد الله تعالى، فيتوحد العارف إلى الله تعالى بخالص نيته ويعتبر كل البواعث غير الإلهية عبثاً، ويصع كل وجوده رهن من يملك كل شيء، وأخيراً يرى كل ما سواه باطلاً قابلاً.

إنَّ عملية تهذيب الإنسان من شوائب الشرك والهوى والبواعث الوهمية، لها مرحلتان: **المرحلة الأولى:** عن طريق تربية النفس على قدر طاقة الإنسان أي أنه يرى نفسه بعد اجتباره هذا الطريق بالحدّ والسعي الحثيث في رتبة «المخلصين» (الذين قاموا بتنقية أنفسهم).

**المرحلة الثانية:** مرحلة تصفية الوجود الإنساني من شوائب التي تحفى عليه لدقتها. وهنا يأتي دور العايات الإلهية لمساعدة العبد في التخلص من تلك الشوائب والأخذ بيده إلى مرتبة المخلصين وهذه هي المنزلة الرفيعة لأنبياء الله تعالى ﷺ وأوليائه وخاصة عباده.

ولا يخفى أن آثار هذا الإخلاص تتجلى بكنّ وضوح في أعمالهم كما يمكن إدراك بلوغهم لهذه المنزلة من خلال حسن أقوالهم وتصرفاتهم بكل سهولة، وعلى أيّ حال فالإخلاص أحد الصفات البارزة لأنبياء الله تعالى ﷺ.



## ١٠ - اللين والمحبّة وحسن الخلق

إنَّ مسؤولية الأنبياء ﷺ القيادية تفرض عليهم ضرورة مسايرة الناس، واللين أمام غلظة وفظاظة الجهال المتعصّبين قدر الإمكان، وبعبارة أدقّ: النفوذ في قلوب مختلف شرائح المجتمع عن طريق المحبّة، وهذه صفة أخرى من صفات الأنبياء ﷺ.



يقول القرآن الكريم في الآية العاشرة من آيات البعث وخصوصاً فيما يتعلق بنبي الإسلام ﷺ: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ هُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» و«الْفُظُّ»: و«غليظ القلب» لهما نفس المعنى تقريباً وهو الشدة والخشونة وقساوة القلب. لكن البعض فرّق بينهما وقال: إن «الْفُظُّ» يعي الخش في القول، و«غليظ القلب» الخشن في الفعل. وذهب البعض الآخر إلى أن «فُظًّا» إشارة إلى الخشونة الظاهرية (الأعم من القول والفعل)، و«غليظ القلب» إشارة إلى خشونة لباطنية والقلبية والتي تعدّ المصدر الرئيسي لكلّ الخشونات.

والذي يقابل هذين الوصفين هو اتّين ولحبة والهدوء قولاً وفعلًا ممّا يؤدّي إلى استقطاب طبقات الأمة بشكل عجيب

ويرى محققو التاريخ أن وجود هذه الصفات في شخص نبي الإسلام ﷺ كان له أكبر الأثر في الإسراع من مهّة نجاح وانتشار رسالته خصوصاً في أوساط مجتمع يدور فيه كلّ شيء حول محور الخشونة المعنوية كالقتل والإغارة فضلاً عن الخشونة في القول. ومن هنا فمن السهل الوقوف على الدوز القائل لهذه الصفة «الأخلاقية للنبي ﷺ»

وهناك الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع في تاريخ حياة النبي الأكرم ﷺ، ولو تعرّضنا لها كلّها لخرجنا عن جوهر موضوع بحثنا لكثرتها، لكننا سنكتفي بمودج واحد فقط:

ففي معركة أحد التي وجّهت فيها أكبر ضربة لكيان الإسلام والمسلمين بسبب عدم التزام فريق ممّن كانوا جديدي العهد بالإسلام وهروب فريق آخر، فضلاً عن الجراح التي أنش بها شخص النبي الأكرم ﷺ وبشهادة الكثير من أقطاب الإسلام، نراه ﷺ بعد انتهاء المعركة حليماً مع المسلمين يكلمهم بلسان صيّب ولم يبد أي غضب بل كان يدعو لهداية أعدائه المجرمين أيضاً.

كما أن تاريخ باقي الأنبياء ﷺ يعبّر أيضاً تمتّعهم بهذه الفضيلة الإنسانية الخطيرة. إنّ تصريح القرآن بأن «نوحاً» ﷺ قد دع قومه تسعمائة وخمسين سنة وأنّه استعان

بكل الطرق والوسائل لهدايتهم على حدّ قوله، إذ أنّه كان يدعوهم علناً أحياناً وأحياناً أخرى سراً، ليلاً أو نهاراً، يذهب إلى بيوتهم أو يشاركهم في جلساتهم العامة في بعض الأحيان، وإنّه لم يؤمن به طوال كلّ هذه المدة إلّا نعر قليل، يعكس مدى مداراته لهؤلاء الوثنيين العاصين.

ولنحّن قوله تعالى الوارد في سورة نوح ﷺ بيّس بكلّ وضوح استخدامه أسلوب الترغيب، وإنّه لم يقدم على لعنهم والدعاء عليهم إلّا بعد أن ينس تماماً منهم ومن ذريّتهم. إنّ الإنسان تصيبه الدهشة أحياناً عندما يرى ما لبعض الأنبياء من رأفة وحنّ خلق، فقد ورد عن «لوط» ﷺ مثلاً في القرآن الكريم أنّه عرض بناته على قومه المذنبين للزواج منهنّ (بعد الإيمان) أملاً في أن يمسحهم من لقيام بأعمالهم الشبيحة تلك. وعلى أيّة حال فإننا كلّما تعمّقنا أكثر في حياة هؤلاء العظام كلّما وقعنا على معجزات وصفات أخلاقية أكبر لهم.



## ١١ - الفوز في المعن الشاقة

تعرّض الكثير من الأنبياء ﷺ خلال حياتهم لمختلف أنواع الاختبارات الشاقة، وكانت صفاتهم البارزة هي تحمّل أنواع الشدائد، وعدم الفرور عند النصر، وباختصار الفوز في الامتحانات الإلهية الصعبة.

فالنبي نوح ﷺ في فترته التبليغيّة البالغة تسعمائة وخمسين سنة، وموسى ﷺ خلال خدمته لشعب في مدين وحلال فترة تحدّيه بطويلة لفرعون وفترة انحراف بني إسرائيل عن التوحيد والخروج على أوامره، وكذلك سائر الأنبياء مثل أيّوب وعيسى ولوط وشعيب وهود ﷺ وخصوصاً إبراهيم ﷺ قد ابتلوا جميعاً في ميادين الإبتلاء هذه.

وقد جاء في الآية المعنيّة عن إبراهيم ﷺ أنّه تعالى قد محّه مقام الإمامة المطلقة مضلاً عن مقام النبوة وذلك بعد فوزه في الإختبار، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

## فَأَعْنُنْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

وبالرغم من أن الآية أعلاه قد أشارت إلى إبتلاءات بشكل غامض، لكن وكما ذكر المفسرون فإن هذه «الكلمات» (أي الأمور التي احتبر الله تعالى بها إبراهيم) هي من قبيل الاستعداد لتقديم ولده قريانياً وأخذ زوجته وإبنته إسماعيل إلى أرض مكة القاحلة وإسكانهم فيها بأمر من الله تعالى ووقوفه الشجاع أمام عبدة الأصنام والهجرة المقرونة بالحرمان إلى المناطق المؤهلة أكثر للإيمان ومثالها.

ويرى بعض المفسرين أن إبتلاءات إبراهيم ﷺ قد بلغت الثلاثين مورداً، لكن ما تقدم هو أهمها. فهو في الحقيقة قد وضع «حبه» و «أمواله» و «مكانته» و «زوجته» و «ولده» و «وطنه الذي كان قد ألفه» والتي تشكل مجموعها كيان الإنسان ووجوده في سبيل الله تعالى وخرج من بودقة الإحنار بقوة.

وعلى الرغم من أن هناك حديثاً طويلاً للمفسرين حول تفسير «الكلمات» إذ اعتبرها البعض إشارته إلى مناقشاته العادية مع لجنة النجوم والشمس والقمر وبينما اعتبرها آخرون إشارة إلى سلسلة من الأحكام الفرعية للدين. إلا أن ما تقدم هو أسبابها



## ثمرة البحث:

يمكن الاستنتاج مما تقدم أن الأنبياء ﷺ يتمتعون بحصيلة من الصفات والمميزات الخاصة من وجهة نظر القرآن، ولا نقول أن كل واحدة من هذه الصفات محصورة بهم، أو أنها

١ نقل كل من المرحوم الطبرسي في «معجم بيان» و لأكوسي في «روح المعاني» والقرطبي في تفسيره أن هذه الحصال الثلاثين من شرائع الدين قد وردت في أربع سور من القرآن الكريم عشرة منها في سورة (التوبة / ١١٢) «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...» وعشرة في سورة (الحرب / ٣٥) «إِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْلِكِينَ...» وعشرة في سورة (المؤمنون / ١ و ٢) «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...» أو في سورة «المعارج» «سأل سائل» لكن يجب الالتفات إلى أن الصفات الواردة في السور أعلاه لا يبلغ الثلاثين صفة من معنى ولا تتجاوز الثلاثين من معنى آخر فضلاً عن أن تكرارها مثلاً لا يمكن إنكاره، وبناء على هذا فقبول العدد ٣٠ لهذا الموضوع يبدو بعيداً بعض الشيء.

تعكس النبوة لوحدتها، بل نقول بإمكان العثور عليها بمجموعها عند الأنبياء ﷺ، وبأن لها أثراً عميقاً للتعرف عليهم لأن إحدى طرق معرفتهم كما سيأتي تفصيله هي جمع القرائن المختلفة والتي من جملتها «خصائصهم الحميمة».

﴿٥٨﴾

# شروط الرسالة





تجربہ نامہ

## التقوى والعصمة

### تمهيد:

بالنظر لتحمل الرسل وحملة الوحي الإلهي أهم وأخطر مسؤولية في عالم البشرية، وهي مسؤولية هداية الإنسان وتربية النفوس وتهذيبها وتنقيتها من كافة الشوائب والممارسات اللاأخلاقية، بالإضافة إلى تطهير المجتمعات البشرية من أنواع الظلم والتمسف، بطرق لا يمكنهم طيها اعتماداً على العمل والفكر والمعلومات المتاحة فحسب، بل لابدّ والحالة هذه من تمسكهم بأعلى درجات «التقوى»، والتي نطلق عليها منزلة «العصمة» التي لا يمكن ضمان أهداف الرسالة بدونها.

ومن المؤكد أنّ مرحلة العصمة لا تعني «العصمة من الذنب والمعصية» فحسب، بل لها فرع آخر لا يقل أهمية عنها، ألا وهو «العصمة من كلّ خطأ واشتباه وانحراف وضلال»، ولا يخفى أنّ تحقيق الهدف من البعثة مرهون بإمدادهم بالتأييدات الإلهية من هذه الناحية.

ولكلّ من هذين القسمين تشعبات أخرى أيضاً؛ كالعصمة من الذنوب كبيرها وصغيرها، في فترة ما قبل النبوة وبعدها والعصمة من الحيانة في تبليغ الوحي والرسالة و...

كما يندرج في قسم العصمة من الخطأ أيضاً كلّ من «العصمة من الخطأ في تلقي الوحي وإبلاغه»، والعصمة من الخطأ في القيام بالقرنض الدينيّة والأوامر الشرعية، وكذلك العصمة من الانحراف في الأمور الدنيوية والشخصية وهناك سؤال يتبادر للذهن وهو: هل تعود مسألة عصمة الأنبياء في كلّ هذه الأبحاث إلى هذين القسمين؟ وما هو الدليل على ذلك على فرض الصحة؟ وما هو الدليل على الاختلاف الحاصل بينهما لو وجد؟

هذه صورة عن مسألة عصمة الأنبياء أصولاً ومروءاً من الناحية المبدئية، والتي ينبغي بيانها في ظل الآيات القرآنية والأدلة العقبية طراً لأهميتها الأساسية والمصيرية، وبهذه الإشارة الحافظة نعود ثانية إلى القرآن وتأمّل خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

١- ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

(البقرة / ١٢٤)

٢- ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(الحشر / ٧)

٣- ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَبِيطًا﴾.

(النساء / ٨٠)

٤- ﴿قُلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(النساء / ٦٥)

٥- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

(الأحزاب / ٢١)

٦- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. (الأحزاب / ٣٣)

٧- ﴿قُلْ فِعْرَتِكَ لَا غَوِيَّ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ \* وَلَا عِبَادَةٌ مِنْهُمْ الْخَالِصِينَ﴾. (ص / ٨٢-٨٣)

٨- ﴿وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ \* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ \* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾. (ص / ٤٥-٤٧)

٩- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبُهِدَاهُمْ أَفْتَدِرْ﴾.

(الأنعام / ٩٠)

١٠- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

(المجم / ٣-٤)



## جمع الآيات وتفسيرها

كيف يكون المذنبون دعاة للتقوى؟

إن الآية الأولى من آيات بحثنا تكشف اسدب عن ثلاثة مواضع:  
**الأولى:** الابتلاءات الكبيرة التي أبلى بها إبراهيم من قبل الله تعالى، والتي اجتازها بنجاح تام.

**الثاني:** المكافأة العظيمة التي نالها إبراهيم من الله بعد هذا الاختبار، أي مقام الإمامة.  
**الثالث:** طلب إبراهيم منح هذه الموهبة لبعض ذريته، وجواب الله تعالى له بأن الظالمين من ذريته لن ينالوا هذا المقام لرفع أدا:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

أما فيما يتعلق بالقسم الأول فقد تقدم الكلام عن شكل وافٍ فيما مضى، كما أن هناك حديثاً طويلاً فيما يتعلق بالقسم الثاني أي نيل مقام الإمامة الرابع وماهيتها.

فهل أن الإمامة تسمى «النبوة»؟ على حين أن هناك الزائن واضحة تدل على أن إبراهيم عليه السلام قد تطرق لهذا الأمر بعد وصوله لمقام النبوة، وفي أواخر سني عمره، حينما كان له أولاده وذريته كإسماعيل وإسحاق، وعلى أمل امتداد ذريته هذه إلى الأجيال اللاحقة، ومن هنا فقد تسمى لهم أيضاً مقام الإمامة، إذ إنه وكما علم لم يرزق ولداً لمدة مديدة، حتى أنه أخذته الدهشة حينما بشره الملائكة الموكلون بهلاك قوم لوط، هو و زوجته بولد كما تقرأ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّيَ الْكِبَرُ نِمْ تَبَشِّرُونِ • قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

(الحجر / ٥٤ - ٥٥)

بل قد تعجبت زوجته أيضاً لهذه البشري واستغربت قائلة: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَقْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

(هود / ٧٢)

لكن الملائكة حذرت من تبعة اليأس من رحمة الله في كل الأحوال وبناءً على هذا فمن المستبعد جداً أن يكون المراد هو النبوة، بل المراد هو الحكومة

الإلهية المطلقة على الأموال والأنفس وكنّ شؤون الحياة الإنسانية، أو الحكومة الظاهرية والباطنية على الأرواح والأنفس عن طريق التربية لظاهرة والباطنية لإيصال الناس إلى الكمال المطلوب بإيدى تعالى، وعدم الإقتصار على رسم الطريق فحسب، والذي يعدّ من مهام كلّ الأنبياء.

على أيّة حال فإنّه مقام يفوق استوّة، ولم يبله إلّا البعض من الأنبياء فقط. وأمّا فيما يتعلّق بالموضوع الثالث وهو طيب إبراهيم هذا المقام لبعض أولاده، وسماعه الجواب في الحال من أنّ هذا المقام هو نوع من التعمّد الإلهي لا يناله الظالمون، فالكلام فيه يدور حول المراد من «الظالم» معنى ومفهوماً

يحب معرفة ما المراد بالظالم؟ هل هو فقط ذلك الشخص الموصوف بهذه الصفة فعلاً؟ مع أنّه يستبعد جداً بل يستحيل أن يطلب إبراهيم عليه السلام مثل هذا الطلب للظلمة من ذريته خصوصاً بعد اختياره لكلّ تلك الإحصارات الصعبة وشموله بمثل تلك العناية، هذا الشيء غير معقول أبداً سواء كان هذا الظلم بمعنى الكفر كما بصرّح بذلك القرآن الكريم، وإنّ الشّرّة لظلم عظيم». (لقمان / ١٣)

أو بمعناه الواسع الشامل لكلّ أنواع المنق والمجر والمعصية. وبناءً على هذا فالمراد بـ «الظالم» هنا هو ذلك الشخص الموصوف بتلك الصفة ولو للحظة واحدة طول عمره مهما انقضى على تلك اللحظة من مدّة، فإن مثل هذا المصداق بحاجة إلى بيان.

وفي الحقيقة إنّ الله تعالى أراد ببيان هذا إيقاف إبراهيم على هذه الحقيقة، وهي أنّ مقام الإمامة رفيع بدرجة لا يباله إلّا أولئك الذين يلبعون لهذه (النعمة) العظيمة المنزّهون عن كلّ أنواع الظلم والشرك والكفر والمعصية، وبعبارة أخرى، المعصومون. ولذا يقول الفخر الرازي حين يصل إلى تفسير الآية المذكورة: «هذه الآية تدلّ على عصمة الأنبياء من وجهين.

الأول: أنّه قد ثبت أنّ المراد من هذه العصمة الإمامة، ولا شك أنّ كلّ نبي إمام، فإنّ الإمام هو الذي يؤتمّ به والنبي أولى الناس بذلك، وإذا دلّت الآية على أنّ الإمام لا يكون فاسقاً،

فإنها تدلّ على أنّ الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلاً للذنب والمعصية أولى.  
 الثاني: إنّ التعبير بـ «عهدي» لو كان يشير إلى النبوة فالقصد منه أن أحداً من الظلمة لا ينال مقام النبوة، وأنّ النبي يجب أن يكون معصوماً، ولو كان يشير إلى الإمامة فالدلالة الآية تامة أيضاً، لأنّ كلّ نبي إمام نظراً لاقتداء الناس به (في كلّ الأمور بلا قيد أو شرط)¹.  
 مع أنّ كلام الرازي في تفسير الإمامة لم ينف بالمطلوب (كما تقدّم)، لكن اعترافه الصريح فيما يتعلق بالدلالة على لزوم عصمة الأنبياء (والأئمة) ملفت للنظر، والإشكال الوحيد الذي يمكن إبراده على هذا الاستدلال، هو أنّ عصمة الأئمة هي المستوحاة من الآية المذكورة لا الأنبياء (الأئمة بالمعنى المتقدم).

لكن هذا الإشكال يمكن رده بالقول: إنّ طيب إبراهيم عليه السلام مع أنّه يدور حول مقام الإمامة، فلعظ «العهد» الوارد في جواب الباري حيث قدره: «لَا يَمُنُّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» تشمل كلاً من «الإمامة» و«النبوة» معاً لكون كلّ منهما عهداً إلهياً لبداية شموله لهما كعصا هسرياه، وموهبة كهده لا تكون من نصيب الظالمين كما جاء في روح البيان أيضاً. «وفي الآية دليل على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكائنات قبل البعثة وبعدها»².



في الآية الثانية يأمر الله تعالى المؤمنين بكفّة بالامتناع لأوامر النبي الأكرم عليه السلام واجتناب ما ينهى عنه، ويحثهم على اتقوا الله تعالى شديد العقاب.  
 «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»  
 التأمّل في الآية يكشف عن أنّ المراد من: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ»، هو كلّ أوامر النبي الأكرم عليه السلام، باعتبار أنّ نواهيه هي الطرف المقابل: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، ومن هنا فقد صرح الكثير من المفسرين بعمومية معاد الآية (كالطبرسي في مجمع البيان، أبي الفتوح

١. تفسير الكوثر، ج ٤، ص ٤٨.

٢. تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٣٨.

الرازي في روح الجنان، القرطبي في تفسيره، والفخر الرازي في التفسير الكبير، بالإضافة إلى العديد من المفسرين المعروفين أيضاً؟

وطبقاً لهذه الآية يجب التسليم المصق في مقابل أوامر النبي الأكرم ﷺ ونواهيه، ولا يمكن تصور التسليم والطاعة بلا قيد أو شرط لشخص غير المعصوم، إذ مع ارتكاب الخطأ أو المعصية والذنوب يجب على المؤمنين تسيبه على ذلك أو نهيه عنه فضلاً عن حرمة التسليم له.

كما ورد نظير هذا المعنى أيضاً بصيغة أخرى في الآية الثالثة من آيات بحثنا حيث تقول كحكم مطلق: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا». الملمت للظن هو ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: «إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هِيَ مِنْ أَقْوَى الْأَدَلَّةِ عَلَى عَصَمَةِ سَيِّدِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَوَاهِيهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ هُوَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ لَوْ أَخْطَأَ فِي شَيْءٍ فَلَنْ تَكُونَ إِطَاعَتُهُ إِطَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا فِي أَعْمَالِهِ أَيْضًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ» (بشكل مطلق).

وَكَمَا قَالَ:

وكذلك فقد جاء نظير هذا المعنى أيضاً بقالب آخر في الآية الرابعة من آيات بحثنا حيث تقول: «فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَرِّجُوكَ فَيَا شَجَرَ بَنِيهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا أَلَّا يَفْضَلُوا وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

من الواضح أن هناك مجالاً للاعتراض أو عدم قبول حكم القاضي إذا قطعنا بخطئه، فلا يجب الانصياع لحكمه، في حين أننا يجب أن لا نشك طرفه عين في صوابية أحكام الرسول الأكرم ويجب أن نسلم تسليماً مطلقاً وبرضى من الأعماق بما يقضي ويحكم به الرسول الأكرم ﷺ من دون أن يساورنا الشك أو يدخل في نفوسنا الحرج، وما أكدت عليه الآية أعلاه دليل واضح على معصوميته، ولد يصرح الفخر الرازي في ذيل هذه الآية بأنها

تدلّ على أن الأنبياء ﷺ معصومون من الخطأ في الفتاوى والأحكام، لأنّه تعالى أوجب الإتيان لحكمهم وبالع في ذلك لو حوب، ويثبت أنّه لا بدّ من حصول ذلك الإتيان في الظاهر وفي القلب، وذلك ينفي صدور الخطأ عنهم<sup>١</sup>.

صحيح أن الآية قد نزلت في تحكيم بني الإسلام ﷺ، لكنّها توجب إطاعته في كلّ شيء، طبقاً للقرائن التي تحفّ بها، وقد قرأ في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لو أنّ قوماً عبدوا الله، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا شهر رمضان، وحجّوا البيت، ثم قالوا شيء صنع رسول الله إلا صنع خلاف ما صنع أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم لكانوا مشركين» ثم تلا هذه الآية...<sup>٢</sup>.

واضح أن هذه الآية لا تختصّ بزمن النبي الأكرم ﷺ فقط، بل هي قائمة إلى يوم القيامة، وقد أشار البعض من المفسرين إلى ذلك أيضاً<sup>٣</sup>.

وبناء على هذا فكلّ من خالف سنة النبي الأكرم ﷺ القطعيّة وأحكامه، أو وجد من ذلك حرجاً في نفسه أصبح مصداقاً لهذه الآية.

وبالجملة فالآيات الثلاث السابقة هي بصديقيان حقيقة واحدة بعبارات شتى، ألا وهي ضرورة التسليم المطلق أمام أوامر النبي الأكرم ﷺ وأحكامه، ولا يتمّ هذا إلا بالقول بصروته عصمته.

والعريب هو أن بعضاً من مفسري أهل السنة قد استدلّ بما جاء في صحيح مسلم أن النبي الأكرم ﷺ مرّ يقوم يلقحون (الحل) فقال: «لو لم تفعلوا الصلح، قال: فخرج شيخاً (لم يصر)، فصر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم»<sup>٤</sup>. ومن هنا فقد قسم البعض منهم أحاديث النبي الأكرم ﷺ إلى قسمين: ما يقوله عن الله

١. تفسير الكبير، ج ١٠، ص ١٦٥.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٩.

٣. تفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٦٥.

٤. جاء في صحيح مسلم في هذا الموضوع ثلاثة أحاديث متّقة مضموناً وبعبارات شتى، (صحيح مسلم، ج ٤، الباب ٢٨ ص ١٨٣٥، ح ١٣٩ و ١٤١ باب وجوب امتثال ما قلناه شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي).

تعالى في المسائل الدينية والشرعية، وما يقول عن نفسه في أمور الدنيا، فهو معصوم في الأول دون الثاني!!

لكننا لا نعتقد بصحة مثل هذه الأحاديث مطلقاً لأنها من أجلى مصاديق الروايات المخالفة لكتاب الله تعالى، لأن القرآن اعتبر كلام الرسول ﷺ وأحاديثه مقياساً وميراناً، واعتبره عين الوحي، حيث ورد في قوله تعالى «وَمَنْ يَنْطِقْ مِنْهُ الْهُوْيُ» (النجم / ٣) فكيف يمكن التصديق بأن نبياً بكل تلك العظمة يدعو الناس إلى شيء من دون علم، بحيث يكون سبباً لدمار معاصيلهم ثم يشارل عن كلامه هذا ويقول لهم: أنتم أدري مني بأمور دنياكم، في حين أنه وبلا شك يعد من أعم وأدكى الناس وله اطلاع واسع بأمور من قبيل تأبير النخل و... بل كيف يمكن لشخص يدي رأيه رجماً بالذهب (والعياد بساغة) أن يكون رئيساً لحكومة إسلامية بتلك العظمة.

ولهذا السبب لا نستبعد كون مثل هذه الأهمام من الموضوعات التي دبرها المنافقون وأعداء الإسلام، وأدخلوها بين طيات الكتب الإسلامية للخط من عظمة ومرة النبي الأكرم ﷺ، وعلمه وعقله وتعرضه للشك والريبة والاستفهام.

إن عدم نقل هذا الحديث في الكثير من لمصادر الإسلامية الأخرى، يعدّ بنفسه دليلاً على عدم اطمئنان علماء الإسلام بمثل هذه الأحاديث الواهية، والذي يدعو للعجب هو الاستشهاد بها من قبل أشخاص كـ «المراعي» وصاحب «المصارف» في تفاسيرهم، في الوقت الذي يُشكلون على الكثير من المسائل الأخرى.

على أية حال فتقسيم أقوال وأفعال وتقريرات الرسول الأكرم ﷺ إلى قسمين، يفتح الطريق أمام الذين في نفوسهم مرض، لتفسير ما يقوم به النبي الأكرم وفي شتى المجالات الاجتماعية والحياتية والبشرية، والتشكيك به، ثم الاستفهام هل هو من القسم الأول أو الثاني؟

لذا - وكما سيأتي إن شاء الله - لو وجد الخصاص والإشتباه طريقه إلى شيء من كلام النبي الأكرم ﷺ، لما بقي هناك مجال للاعتماد على كافة أحاديثه، ولهذا نعتقد نحن بوجوب

عصمة الأنبياء والأئمة من جميع الجهات.

الآية الخامسة مخاطب المسلمين وتقول لهم: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

«الأسوة»: لها معنيان. فهي تارة تعني الإصلاح والعلاج ومن هنا قيل للطبيب «آسي». وتارة تعني «الغم والحزن».

يعتقد البعض أن هذه المفردة لو كانت «معتكلاً واريكاً» لكانت بالمعنى الأول، ولو كانت «معتكلاً ياتيكاً» لكانت بالمعنى الثاني.

كما احتتمل أيضاً عودة كلا المعنيين إلى معنى واحد باعتبار أن الغم والحزن والأسى إنما يكون على ما فيه الصلاح والعلاج.

على أية حال فظاهر معنى الآية الخامسة هو الاقتداء والإقتفاء (باعتبار أن الاقتداء بالمعلماء بعد من أفصل طرق الصلاح).

الملفت للنظر أن «الأسوة» كـ «القدوة» لها معنى تصديري وهو الاقتداء والمتابعة وليس معنى وصفي كما هو متداول اليوم، وبعبارة أخرى فالقرآن الكريم لا يقول: النبي الأكرم ﷺ قدوة لكم، بل يقول: في وجوده قدوة حسنة (تأمل جيداً).

التعبير بـ «لقد» للتأكيد، وذكر «كان» إشارة إلى حقيقة كون النبي الأكرم ﷺ قدوة للمسلمين على مر الزمن.

مع أن المخاطب في هذه الآية (لكم) يشمل كل المؤمنين، لكن جملة: «لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» تفيد أن لأشخاص الدين يتصفون بهذه الأوصاف، وهي رجاء رحمة الله واليوم الآخر والذكر الكثير لله تعالى، هم فقط أولئك الذين يتسنى لهم الاستفادة من هذه القدوة الحسنة.

وبالرغم من أن هذه الآية ناظرة إلى استقامة النبي الأكرم ﷺ وشجاعته المخارقة في معركة الأحزاب؛ ولكن هذا لا يحدد مفهوم لآية نظراً لإطلاقه وخلوه من كل قيد أو شرط.

## الإجابة عن سؤال:

وهنا يتبادر في الذهن هذا السؤال وهو هل يمكن الإقتداء المطلق بلا قيد أو شرط بمن لا يتمتع بمقام العصمة؟ والجواب واضح وهو يمثل دليلاً وشاهداً على مسألة العصمة، إذن فالأمر بالإقتداء هذا خير دليل على حقيقة معصوميته، وإلا لما جاز أن يكون قدوة في كل شيء، ولكل شخص في أي زمان ومكان.

ومن هنا فالآية الآتية الذكر متفقة مع الآيات التي تأمر المؤمنين بإطاعة النبي الأكرم ﷺ بلا قيد أو شرط (الآيات السابقة).

ربما قيل: إن التعبير بـ «الأسوة» قد جاء في القرآن في موضعين آخرين (المتحة / ١ و ٦) وأنه شامل للمؤمنين الذين كانوا مع نبي عظيم كإبراهيم عليه السلام. بالإضافة إليه، بالرغم من عدم عصمتهم، يقول تعالى «فَدَكَائَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (المتحة / ٤).

لكن التدقيق في الآية المذكورة يكشف أن الإقتداء والتأسي هما في بعد واحد فقط، ألا وهو مسألة الهرامة من المشركين، إذ إن هناك طائفة من المسلمين في عصر النبي الأكرم ﷺ حديثو عهد لم يستسيحوا التحلي عن قربانهم ومعارفهم من المشركين بسهولة، وهنا يقول القرآن: اقتدوا بإبراهيم وأصحابه فعندما أصبحوا موحدين أعلنوا عن استيائهم من المشركين والبراءة منهم.

كما أن الآية السادسة من هذه السورة تؤكد على هذا الموضوع أيضاً، وبناءً على هذا فالخطاب لم يقصد منه مطلق الإقتداء والتأسي بأصحاب إبراهيم عليه السلام (تأمل جيداً).

❦❦❦

والمخاطب في الآية السادسة هم أهل بيت النبي الأكرم ﷺ إذ يقول تعالى: «وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

جاء في مقاييس اللغة أن أصل «الرجس» هو «الإختلاط»، ثم أطلق على الأشياء النجسة لاختلاطها بشيء آخر.



لكن «الراغب» فسر أصل الرجس في «مفردته» بمعنى «الشيء القذر» وقال: إنه يكون على أربعة أوجه: إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك.

وقد ذكر البعض مصاديق أو معاني عديدة لـ «الرجس» كالذنوب والشرك والحسد والبخل، والقذارة، النجس المحتلط، الصيد، والجرح، الصباح الحارج عن الحد المتعارف، الشك، الكفر، اللص، الرائحة الكريهة وأمثالها.

يبدو أن «الرجس» في هذه الآية ونظراً لإطلاقها، له معنى واسع شامل، لكل أنواع الذنوب والشرك والبخل والحسد والفسوق الظاهري والباطني والأخلاق والعادات السيئة التي تشمشر منها النفوس، والحقيقة أن أهل بيت النبي الأكرم ﷺ وبإرادة من الله تعالى كانوا مطهّرين من كل هذه الأمور، ولا شك أن هذه الآية تبين مسألة المهمة في شخص النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته (إما فيما يتعلق بالمراد من أهل البيت ومن هم؟ فسيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله تعالى)، إن إرادته تعالى لا بد وأن تتحقق، وإرادته في إذهاب الرجس عن هذه الأسرة لا يصح سوى «حسان صحتهم» مفهومًا، لبذاهة كون الشرك والذنب من أجلى مصاديق الرجس والقذارة، ولا شك أن نفي الرجس بشكل مطلق يشمل الذنوب أيضاً.

هل أن هذه الإرادة تشريعية أم تكوينية؟ وبعبارة أخرى، هل أن الله تعالى أمر أهل البيت بعدم ارتكاب الذنوب والقبائح، أم أنه تعالى أودع الطهارة في نفوسهم؟  
بدیهي أن المراد ليس المعنى الأول، نظراً لعدم انحصار الإرادة التشريعية (التكليف بأداء الواجبات وترك المحرمات) بأسرة النبي فقط، بل شمولها لكل الناس بلا استثناء في اجتناب الذنوب، في حين أن كلمة «إمّا» تدلّ على اختصاص وانحصار هذه الموهبة في أهل بيت النبي الأكرم ﷺ (تأمل جيداً).

وبناءً على هذا «الإرادة» هنا تنحصر بالإرادة التكوينية، لكن ليس بذلك المعنى الذي يستلزم القول بالجبر وأن أهل بيت النبي الأكرم ﷺ مجبرون على الصفة، لأن الأنبياء

والأثقة - وكما سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل - لا يدينون مع قدرتهم على ارتكاب الذنب، حيث إن الله تعالى قد منحهم سلسلة من المعارف والمبادئ الفطرية التي تدعوهم إلى الطهارة، بالصبط مثل العاقل الذي تمنعه معرفته ومبادئ الفطرية من حروجه إلى الرقاق عارياً كما خلقه الله تعالى، مع بدهة قدرته على ذلك (سيأتي شرح وافٍ لهذا الموضوع في ذيل الآيات).



### من هم أهل البيت؟

مع كون عبارة **أهل البيت** مطلقة، لكن المراد منها هم أهل بيت النبي الأكرم ﷺ بقرينة الآيات السابقة واللاحقة، واتفاق علماء الإسلام والمفسرين على ذلك.

المهم هنا هو من المراد من أهل البيت ﷺ، حكم اسبي الأكرم ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ (هذه الأنوار الخمسة المقدسة) فقط، أم زوجات النبي الأكرم ﷺ وباقي أقربائه أيضاً؟

عموم علماء الشيعة والبعث من علماء السنة أخذوا بالقول الأول، في حين ذهب الكثير من علماء أهل السنة إلى القول الثاني<sup>١</sup>.

ولأجل الوقوف على حقيقة المراد من أهل البيت في الآية الشريفة، لابد من التأمل في الروايات الكثيرة المذكورة في ديل هذه الآية عن الكثير من الصحابة عن النبي الأكرم ﷺ ١ - **السير طي في الدر المنثور** الذي يعد من أشهر كتب أحاديث تفسير القرآن عند أهل السنة، ذكر حوالي عشرين حديثاً في ديل هذه الآية، جاء في خمسة عشر منها أنها نزلت في حق الخمسة أهل الكساء، أي النبي الأكرم ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، واللطف هنا هو انتهاء عشر من هذه الروايات الخمس إلى النبي الأكرم ﷺ

١. جاء في **في خلال القرآن** أن التعبير بأهل البيت بشكل مطلق إشارة إلى أن البيت الحقيقي في العالم هو بيت النبي الأكرم ﷺ، مثلما أن هذا التعبير قد ورد بشكل مطلق في حق بيت الله الحرام في بعض من آيات القرآن وفي الواقع فإن هذا التعبير هو نوع تكريم وتعظيم خاص لأهل بيت النبي الأكرم ﷺ

وكون روايتها هم أم سلمة، أبو سعيد، عائشة، سعد، واصل بن أصدق، أبو سعيد الخدري، أنس، أبو الحمراء، (البعض من هذه الروايات ينتهي سندها إلى أم سلمة زوجة النبي الأكرم ﷺ).

في حين أن أربعة من هذه الأحاديث فقط تشير إلى أن الآيات ناظرة إلى زوجات النبي الأكرم ﷺ، والملفت للنظر هو أن أياً من هذه الأحاديث الأربعة لا ينتهي سنداً إلى النبي الأكرم ﷺ، بل قد نقلت عن ابن عباس وعروة وآخرين كما شهدوا على ذلك بأنفسهم، فضلاً عن راحة الوصف التي تشتملها، إذ قد ورد في أروعها أن المراد من الآية زوجات النبي الأكرم ﷺ فقط في حين أن الخطاب بـ «كم» في جملة «لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ» و«وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، الوارد بصيغة المذكر يبيّن أن هناك رجالاً محاطين في هذه الآية أيضاً، على خلاف الآيات السابقة المأزلة في خصوص نساء النبي الأكرم ﷺ، والتي استعمل فيها «نور النسوة»، إذن فالحديث القائل بأن المراد هو زوجات النبي الأكرم ﷺ، هو خلاف ظاهر القرآن ولا يمكن قبوله.

❦❦❦

٢ - هناك العديد من الروايات في باب حديث انكسار بين طهات المصادر الإسلامية (وخاصة مصادر أهل السنة) التي يستخلص منها هذا المعنى وهو أن النبي الأكرم ﷺ، دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين (أو أنهم حضروا عنده) وغطاهم بردائه، وقال طبقاً لرواية عن جعفر الطيار (ابن عم النبي الأكرم ﷺ) اللهم لكل نبي أهل وإن هؤلاء أهلي، فأنزل الله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ لِرِجْسِ أَهْلِ النَّبِيِّ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، وفي هذه الأثناء تقدمت رينب زوجة النبي الأكرم ﷺ وقالت: ألا أدخل معكم؟ قال مكانك فإنك على خير إن شاء الله.

هذا الحديث يصرّح بعدم دخول زوجات نبي الأكرم ﷺ في آية التطهير.

والأهم من هذا هو الحديث الوارد عن عائشة بسفس هذا المعنى والذي تقول في خاتمته: فقلت: يا رسول الله ألسنت من أهلك؟ قال ﷺ: «إنيك على خير، ولم يدخلني معهم»<sup>١</sup>.

كما أنّ نفس هذا المعنى جاء في صحيح مسلم، غاية الأمر أنّ ذيل الحديث الذي يرتبط بطلب عائشة لم يرد فيه<sup>٢</sup>.

وورد نفس هذا المعنى في حديث آخر عن «أم سلمة» وأنها قالت في ذيله: يا رسول الله وأنا معهم؟ قال إنيك على خير (لكك لست منهم)<sup>٣</sup>.

ونقل «الحاكم» نفس هذا المعنى بصراحة كبر في «مستدرك الصحيحين» عن أم سلمة أمه ﷺ قال «إنيك على خير وهؤلاء أهل بيتي»<sup>٤</sup>.

حديث أم سلمة هذا ورد في الكنهر من الكتب المعروفة، من جعلتها ما جاء في «صحيح الترمذي» أنّ النبي الأكرم ﷺ «ختمنا خطي علناً وعاطمة والحسن والحسين بردائه وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فعالت أم سلمة. وأنا معهم يانبي الله؟ فقال النبي ﷺ: أنت على مكانك وأنت على خير» (وإن لم تكوني في زمرة أهل البيت في هذه الآية)<sup>٥</sup>.

هذه التعابير تبين مجموعها ويكنّ وصوح أنّ الآية لم تشمل أياً من زوجات النبي الأكرم ﷺ، لا «أم سلمة» ولا «عائشة» ولا سواهما، والذي يدعو للإستغراب هو إصرار البعض من معسري أهل السنّة على شمول هذه الآية لزوجات النبي الأكرم ﷺ مع عدم أكثراتهم بكلّ هذه الأحاديث المعروفة المعتمدة

١. شواهد التتريل للحسكاس، ج ٢، ص ٢٨، ح ٦٨٣.

٢. صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٨٣ (باب فضائل أهل بيت النبي) ح ٦١.

٣. ابن الأثير نقل هذا الحديث في أسد الغابة، ج ٣، ص ٤١٣.

٤. مستدرك الصحيحين، ج ٢، ص ٤١٦ (ط) حيدر آباد دكن، نقلاً عن حقائق الحق، ج ٣، ص ٥١٨.

٥. صحيح الترمذي، ج ٥، كتاب تفسير القرآن، الباب ٣٤، ص ٣٥١، ح ٣٢٠.

والعجيب من الفخر الرازي المعروف بشروحه وتعليقاته الوافية ودقة ملاحظاته عند تناول آيات القرآن، هو مروره من الكرام على هذه الآية التي يطول فيها الحديث من كافة الأبعاد، وتفسيره لها لفظياً بسطرين أو ثلاثة لا غير؟<sup>١</sup>

لماذا يتلى عالم يمثل هذا التعصب الذي يعنى عليه أبواب الحقيقة مع ما تميز به من قابلية واطلاع واسع؟



٣ - الملاحظة الأخرى هي أنه. قد جاء في الكثير من الأحاديث، والتي أشهر إلى البعض منها فيما تقدم أن النبي الأكرم ﷺ ويمد رول هذه الآية كان يتادي لمدة أربعين يوماً أو ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو أكثر من ذلك عند صلاة الفجر، أو كل الصلوات أو حين مروره ببیت فاطمة الزهراء عليها السلام الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليهذب عنكم السرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً، وجاء في البعض منها أنه عليه السلام كان يقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنما يريد الله...»

التفاوت الملحوظ في هذه الروايات من ناحية لرمية لا أهمية له أصلاً، إذ من الممكن أن «أنساً» قد شهد هذا الموقف ستة أشهر، وأبا سعيد الحديري ثمانية أشهر وغيرهما أكثر أو أقل، إذ في الواقع كل يذكر المدة لتي شهدها هو بنفسه دون أن يبقى ما زاد عليها

ولكن على أية حال فهذه الرواية دليل واضح جداً على أن النبي الأكرم ﷺ، كان يريد بيان هذه الحقيقة لعموم المسلمين وترسيخها في أذهانهم، وهي أن هذه الأسرة فقط دون سواها هي أهل بيته في هذه الآية.

والقائمه الرداء على هؤلاء الفر من أهل بيته وتشخيصه لهم به، وحجب الآخرين حتى

١ جاء هذا الحديث في شواهد التنزيل عن أنس بن مالك، ج ٢، ص ١١، وعن أبو سعيد الحديري في نفس الجزء، ص ٢٨ و ٢٩، وفي الدرر المستور في دهل الآية مورد البحث عن ابن عباس وأبو الصرماء.

زوجاته من الدخول تحته إنما هو بيان أن مصاديق هذه الآية هم أهل الكساء فقط.  
نحن لا ندري لو أن أحداً أراد تمييز أفراد معدودين من بين جمع كثير، ومخاطبتهم،  
بحيث لا يعترض عليه أهل الشبهات والجمع، ماذا ينبغي له أن يفعل؟ ألا يكفي لهذا  
الفرض إلقاء الرداء عليهم، أو مخاطبتهم عند المرور بالقرب من منازلهم لشهور متوالية؟  
ألا يثير الدهشة والعجب إهمال البعض بهذه الحقائق، والإصرار على توسيع دائرة تلك  
الفضيلة المهمة المحدودة بالحممة أهل الكساء لتشمل غيرهم؟  
والملفت للنظر أن الحاكم الحسكاني من علماء أهل السنة المعروفين، قد ذكر أكثر من  
مائة وثلاثين حديثاً حول هذا الموضوع

وهـ السيد علوي بن ظاهر الحضرمي يقول في كتاب «القول الفصل»: «حديث آية  
التطهير هو من الأحاديث المشهورة المتوافرة التي تقبلتها الأمة الإسلامية واعترفت  
بصحتها سبعة عشر من كبار حفاظ الحديث»<sup>١</sup>  
أحر ما يتعلق بهذا الموضوع، هو أن أكثر من الروايات الواردة بهذا الشأن مذكورة في  
كتاب «فضائل الخمسة من الصحاح الستة» عن صحيح مسلم، صحيح الترمذي، تفسير  
الطبري، مستدرک الصحيحين، مسند الإمام أحمد، حسانن النسائي، تاريخ بغداد، مسند  
أبي داود، أسد الغابة، وكتب أخرى يمكن الرجوع إليها لمزيد من الإطلاع والتحقق  
ولإمكانية الحكم بشأنها بشكل أفضل<sup>٢</sup>



في الآية السابعة نطالع تعبيراً آخر يشير هو الآخر إلى مسألة عصمة الأنبياء أيضاً،  
وذلك حينما طرد الشيطان من رحمة الله تعالى (وبدأت عداوته مع الإنسان)، إذ يقول: «قَالَ  
فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

١. هذه الأحاديث ذكرها في القول الفصل، ج ٢، ص ١٠ إلى ٩٢، (ص ٨٢) مراجعها

٢. فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١، ص ٢٧٠ إلى ٢٨٩.

هذا التعبير لا ينحصر بالآية المذكورة ، بل قد ورد نفس هذا المعنى أيضاً بتفاوت ضئيل: «وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» . (الحجر / ٢٩ - ٤٠)



وفي الآية الثامنة نرى هذا المعنى أيضاً بشكل آخر حيث يحكي تعالى عن فريق من الأنبياء الكبار: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» .

وكما قلنا في خصائص الأنبياء ~~الذين~~ «المخلص» (بكسر اللام) هو الذي يسمى لتصفية قلبه وهي المرحلة الرفيعة من التقوى وطهارة القلب والمرحلة الأرفع والأسمى منها هي «المخلص» (يفتح اللام) وهو يختص بأولئك الذين طهرهم الله تعالى من كل الشوائب والقبائح، نتيجة سميتهم المتواصل لتهديب أنفسهم، ولهذا يرتبطون بالله تعالى بكل وجودهم، ويدهي أن الشيطان لا يجد إلى نفوسهم طريقاً أبداً، إذ لا مكان لغير الله في قلوبهم ولذا لا يفكرون بمن سواه ولا يتمنون غير رضاه.

ومن المسلم أن صفة كهذه ملازمة لمرتبة العصمة، وذلك لخروجهم عن دائرة طاعة الشيطان، وبالشكل الذي جعله لا يفكر في صرفهم أبداً، كما أنهم خالصون لله تعالى من ناحية الصفات النفسانية والميول والرغبات، ولهذا السبب لا تدنسهم الخطيئة ولا يتبعون الهوى.

ومن البديهي أن استثناء الشيطان للأنبياء من بين بني آدم، وعدم السعي لإغوائهم، ليس لاحترام خاص يكتنه لهم باعتبارهم مخلصين، بل ليأسه وقنوطه ويقينه بعجزه عن الوسوسة لهم.

وبالرغم من أن الآيات الآتية الذكر لا تشير صراحة إلى الأنبياء أو الأئمة المعصومين، لكن لفظة «المخلصين» وكيفما فسرناها تخص الأنبياء وأوصياءهم، لعدم وجود أفصل منهم من بين عباد الله، والملفت للنظر أن هذا التأييد الإلهي المانع من ارتكاب المعصية وهو السبب في العصمة، والذي يدور حول محور الإخلاص متجسد في قصة يوسف أيضاً، يقول

تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. (يوسف / ٢٤)  
 هذا التعبير يبين أن من يكون «مخلصاً» يتخلص من ثورة هوى النفس وطغيانه،  
 والوساوس الشيطانية ببركة الإمدادات بعبية، وحملت «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» هي من  
 قبيل القياس منصوص العلة، الذي يضمن العمومية على مفهوم الآية.

مفهوم عصمة الأنبياء في ظل الإخلاص يتضح من خلال مقاومة يوسف عليه السلام مع  
 كونه شاباً أعزباً، وصموده أمام أمواج العطية المتلاطمة التي أحاطت بزورق وجوده من  
 كل حدب وصوب، وفي ظروف حساسة تفوق المتعارف أمام الوسوس الكثرية، التي  
 أثارها تلك المرأة الجذابة، ولذا نجد أن لأقطاب المفسرين عبارات تشير إلى مقام عصمة  
 الأنبياء في ذيل الآيات المذكورة<sup>١</sup>.

وفي الآية التاسعة خطب نبي الإسلام ﷺ صم الحديث عن الأنساء السابقين،  
 كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وهنسي، وفريق آخر من الأنبياء الكبار  
 بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُمْ<sup>٢</sup>﴾

الملتفت للنظر أنها تأمر النبي الأكرم ﷺ بالإقتداء بهدايتهم بلا قيد أو شرط، فهل يعقل  
 عدم حصول أولئك الأنبياء عليهم السلام على مقام لعصمة ثم يؤمر نبي الإسلام ﷺ بالإقتداء بهم بلا  
 قيد أو شرط؟

وبعبارة أخرى في الآية أعلاه تم التأكيد أولاً على الهداية الإلهية لهم، ثم تم التفريع  
 على ذلك بالقول الآن وبعد أن شمنتهم الهداية الإلهية اقتد بهداهم (تأمل جيداً)  
 ومن المسلم أن المراد، بالهداية لإلهية هنا ليس رسم الطريق فحسب، لعدم اختصاصه  
 بالأنبياء فقط بل لشموله لكل الناس حتى بكفار، وعليه فالهداية المذكورة هي نفس معنى  
 الإيصال إلى المطلوب (ويلوغ المقصود) بعيداً عن أي خطأ وانحراف واشتباء ومعصية.

١ راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي، تفسير جامع أنهار للشيخ الطوسي، وتفسير الميزان للعلامة الطباطبائي،  
 تفسير روح البيان للقرطبي، وتفسير في ظلال القرآن سيّد قطب في ديل الآيات مورد البحث.

٢. يجب ألا يهوت أن «الهاء» في لفظة «اقته» ليست ضميراً بل هي، السكتة التي تلحق الكلام عند الوقوف على  
 الحرف المتحرك.



يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان» إن هذه الآية خاصة بالمعصومين.

بديهي أن المراد بهداية الأنبياء هي تلك لأصول و لمعارف التي بلغوها بأنفسهم. مضافاً إلى أصول تعليماتهم العبادية والسياسية والأخلاقية والترهوية، ولا منافاة لهذا مع نسخ قسم من تفاصيل أحكام شريعتهم، كما أن تفسيرهم للهداية بمعنى الإيمان أو الصبر وأمثالهما إنما هو لاقتناعهم بما ذكره البعض من المصاديق.

واعتقاد البعض بأن الآية مسوغة ليس في محله، بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾  
(المائدة/٤٨)

وهذه لأن هداية الأنبياء التي تشكل الأصول العامة لتعاليمهم غير قابلة للتغيير، ولا تتأثر بالتغيرات الحربية للشرائع الناجمة عن الظروف الزمانية والمكانية، ولذا يقول القرآن على لسان المؤمنين الحقيقيين: ﴿لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾

(البقرة/٢٨٥)

وخلاصة الكلام هي: أن الإقتداء بهدى الأنبياء مسابقين هو نوع من «التحقيق» لا «التقليد» كما يراه البعض، لأن التحقيق هو قبول الشيء بالدليل، ومقام عصمه الأنبياء وصدقهم هو بمثابة الدليل على حقايق ما يقولونه، ولذا فاستنباط صفات الله تعالى أو تفصيلات المعاد من القرآن، هو في الحقيقة نوع من التحقيق لا التقليد، وذلك لعدم احصاء الدليل بالعقل، بل هناك الدليل النقلي الثابت عن طريق الوحي والمقبول كالدليل العقلي (تأمل جيداً).



الآية العاشرة من آيات البحث إشارة إلى شخص النبي الأكرم ﷺ يقول تعالى: ﴿وَمَا يَنْطَلِقُ عَنْ الْغَوَىٰ ۖ إِنَّمَا وَهْوَ إِلَّا وَهْيٌ يُوحَىٰ﴾

يستفاد من هذا التعبير بكل وصوح أن نبي الأكرم ﷺ لا يكذب ولا يخطأ في كلامه أبداً، ولا سبيل للضلال والإنحراف إليه. ﴿وَمَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

ولذا - وعلى حد قول بعض المفسرين - يستفاد من هذه الآيات بما لا يدع مجالاً للشك، أن سنة النبي الأكرم ﷺ هي كـ «الوحي المنزل»<sup>١</sup>.

أمّا إلى ماذا يعود الصمير «هو» في جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى»؟ الظاهر أنه يعود على «النطق» المستفاد من جملة «وَمَا يَنْطِقُ عَنْ لَهْوٍ»، أي أن «كلامه وحي إلهي»، سواء أكان هذا الكلام آيات قرآنية أم أحكام وموعظ وحكم، وأمثال ذلك، فكلها تتمتع بجدور إلهية.

وكما يستفاد من الآيات أعلاه أن المصدر الرئيسي للضلال والانحراف هو اتباع هوى النفس، وأن من يسيطر على هوى نفسه بشكر تام لا يعصي الله تعالى، لأن تقواه تحفظه من الانحراف لاقترائها بوصوح الرؤية في كافة المراحل، وحين بلوغ المرحلة السامية، يصل وضوح الرؤية بدوره إلى مرحلة الكمال أيضاً، وبإزاء على هذا لا يرتكب دنياً ولا خطيئة (تأمل جيداً).



### ثمرة العصمة:

مما لا شك فيه أن الآيات السابقة لا تتحدث ولا تتشابه في بيان كيفية وأبعاد عصمة الأنبياء، فبعضها يعتبرها عصمة من الذنب أو الصياحه من المحطأ فقط، والآخر يعتبرها عمومية وشمولية لكل الأمور، والبعض تحدثت عن نبي الإسلام ﷺ، والبعض الآخر عن الأنبياء السابقين، بعضها وصفت العصمة بعصمة القول، بينما البعض الآخر اعتبرتها شاملة للفعل أيضاً.

لكن مجموع هذه الآيات يشهد هذه الحقيقة، وهي، أن الأساء منزهون معصومون من أي ذنب أو خطأ، كما أن عصمة أهل بيت النبي الأكرم ﷺ، الثابتة بالآيات المذكورة، هي مثلاً لا يحصى وهو ما كتبنا بصدد.



١. يقول القرطبي في تفسيره، ج ٩، ص ٦٢٥٥ وفيها أيضاً دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل.

# تنزيه الأنبياء ﷺ





## تنزيه الأنبياء

إن أول ما نتناوله في هذا البحث التعابير الواردة في آيات القرآن المجيد، التي توهم لأول وهلة أنها دليل على صدور ذنب أو خطأ من أولئك الأنبياء العظماء في بعض الأحيان. سنذكر فيما يلي أهم الآيات التي تحدثت حول هذا الموضوع، طبقاً للترتيب التاريخي للأنبياء عليهم السلام.

❦

### ١ - آدم عليه السلام

نقرأ في القرآن الكريم: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (طه / ١٢١)

وكذلك في قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِى وَلَمْ يُخِذْ لَهُ عَزْماً»

(طه / ١١٥)

لقد نسبت الآية الأولى العصيان ولغى إلى آدم، والثانية نسبت إليه النسيان وعدم العزم مع أن هذا لا يتناسب مع عصمة الأنبياء ويعيد عنهم كل البعد.

### الجواب :

هناك أبحاث متنوعة للمفسرين منذ قديم الأيام وإلى الآن حول الإجابة عن هذا السؤال، لقد ذهب بعض المفسرين - ودون الأخذ بنظر الاعتبار الأدلة العقلية والنقلية - إلى أن ما صدر من آدم عليه السلام يعدُّ من الذنوب الكبيرة، إلا أنه يرتبط بالفترة التي سبقت نبوته.

وبعضهم حمل هذه المعصية على كونها من الدوب الصغيرة ولم يعرها أية أهمية. وبالرغم من الآيات الواردة والمتعلقة بعصمة الأنبياء والمنزلة الرفيعة التي أولاها الله سبحانه وتعالى لهم، وبالأخص لآدم عليه السلام، حيث جعله خليفة وحيته، إلا أنهم لم يدعوا لمثل هذه الأدلة ولم يسلموا لها، بل أحد كل واحد منهم يبتكر حلاً ويذهب مذهباً للخروج من هذه المعضلة، ومن بين هذه التفاسير يمكن أن يكون إلى ثلاثة آراء باعتبارها الطريق الأمثل لحل هذا الإشكال وهي:

أ) كان نهي آدم نهياً اختيارياً - مع الأخذ بنظر الاعتبار أن آدم كان قد خلق للعيش في الأرض لا الجنة، وأن فترة وجوده في الجنة كانت فترة اختبار لا تكليف، إذن فأوامر الله ونواهيه هناك كانت لغرض إعداد آدم، بحيث يتلاءم وحوادث المستقبل فيما يتعلق بالواجب والمحرم.

وبناء على هذا فقد خالف آدم أمراً اختيارياً فقط لا أمراً واجباً قطعياً. في حديث للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وفي معرض رده على «علي بن محمد بن الجهم»، الذي يحدّ من متكلمي ذلك العصر المعترفون، وكان يعتقد بعدم عصمة الأنبياء استناداً إلى بعض ظواهر الآيات القرآنية، قال عليه السلام: «ويحك يا علي أتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ولا تتأول كتاب الله برأيك فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم أضاف قائلاً: أما قول الله عز وجل في آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضه وخليفته في بلاده، لم يخلق للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض، (والجنة لم تكن دار تكليف بل دار اختبار) لتتم مقادير أمر الله عز وجل، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة الله وخليفته عصم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِصْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>١</sup>.

ب) كان نهي آدم نهياً إرشادياً - يعتقد جمع من المفسرين أن أوامر الأنبياء ونواهيه ومن جعلتهم آدم عليه السلام والتي لم تطبق، كانت ذات جانب إرشادي، مثل أمر الطبيب للمريض

بتناول الدواء الفلاني، والاجتناب عن الطعام لعلني غير المناسب، فمتى ما خالف المريض أمر الطبيب فسيضر نفسه، لعدم أكثرته بإرشاد لطبيب وتعليماته.

فمن الممكن هنا عصيان أمر الطبيب ومخالفته، ولكن من المسلم أن هذا سيكون على حساب صحة المريض، ولا يعني الإستهانة بمقام الطبيب أبداً، وهكذا فقد قال الله تعالى لآدم: لا تأكل من هذه «الشجرة» ولا فستطرد من الجنة ومعيمها، وتلاقي المشقة والعذاب: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْزِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى • إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى • وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ». (طه / ١١٧-١١٩)

وبناءً على هذا فقد خالف آدم نهياً إرشادياً، لا أمراً إلهياً واجباً، فواجه المصاعب، كما أن التعبير بـ «العصيان» لا يحدث في عصمة آدم أبداً، لو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الموجودة في سائر الآيات.

ومن هنا يتضح أيضاً تفسير جملة «فَعَرَى» في قول نفس هذه الآية، وأن المراد منها هو حرمانه من نعم الجنة، لا «العواية» التي يحثي التصرفات المسيئة عن الاعتقادات الحاططة، أو الأمور التي تحول دون بلوغ الإنسان لمراده، وعلى أية حال فلو أن آدم لم يحالف هذا النهي الإرشادي لمكث في الجنة فترة أطول.

(ج) كان تركاً للأولى بهذا الجواب له مؤيدون أكثر ليس هنا فقط، بل في كل الموارد التي ينسب فيها الذنب إلى الأنبياء فإنها تمر بهذه الطريقة

لنوضح ذلك: الذنب والمعصية على نوعين، مطلق، ونسبي، والمراد بالقسم الأول هو كل تلك الذنوب التي تعدّ ذنباً حين صدورها من أي شخص ولا استثناء فيها أبداً، كأكل المال الحرام والظلم والزنا والكذب

أما الذنب النسبي فهو ذلك الذنب الذي يعدّ تصرفاً غير مرغوب فيه قياساً بمقام وشخصية ومعرفة الأشخاص، وما أكثر ما يعد صدور هذا الشيء من الآخرين فضيلة فضلاً عن عدم اعتباره عيباً.

فمثلاً الصلاة المناسبة لشخص أُمّي لا تليق أبداً بعالم عارف له تاريخ علمي طويل، أو

أن تبرعاً متواضعاً من عامل بسيط يكلفه أجره يومه لمشروع خيري عام كبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد بعد في نفسه عملاً حَيَّراً بل إثارةً كبيراً، في حين أنه لو تبرع أحد الأثرياء المعروفين بنفس هذا المبلغ، لتمرّض للذمّ والإتهام بضعف الهمة والبخل وهذا هو مصداق القول المعروف بين العلماء والفضلاء بـ: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

وبناءً على هذا فما يصدر من الأنبياء يستحق عصبياً لعدم لياقته بمنزلتهم الرفيعة وإيمانهم ومعرفتهم، قد يكون عين «إطاعة» حين صدوره عن غيرهم، فأداء الصلاة بقليل من حضور القلب بعد للشخص العادي فضيلة بينما يعدّ دنياً بالسبب للنبي أو الإمام (ذنب نسبي لا مطلق).

كلّ التعابير حول معصية الأنبياء ودنوبهم سواء فيما يتعلق بآدم أو بعاتم الأنبياء عليهم السلام، والتي تلاحظ في الآيات والروايات، يمكن أن تكون إشارة إلى نفس هذا المعنى كما ويعبر أحياناً عن هذا المعنى بـ «ترك الأولى»، والمراد به ذلك العمل الذي يكون تركه أولى من فعله، هذا العمل الذي يمكن أن يكون من «المكروهات» أو «المباحات» بل وحتى «المستحبات» أيضاً، فالطواف المستحب مثلاً، ومع كونه عملاً حسناً مقبولاً، لكن تركه والسعي وراء قضاء حاجة المؤمن أولى وأفضل «كما جاء في الروايات».

الآن لو أنّ أحداً لم يقدم على قضاء حاجة المؤمن، وذهب بدل ذلك للطواف حول بيت الله تعالى، فقد ترك الأولى مع إتيانه بعمل مستحب بذاته، ولا يليق هذا الشيء بأولياء الله وأبيائه وأئمة الهدى عليهم السلام وتوهم البعض بأن ترك الأولى يطلق على الموارد المكروهة فقط، إلا أنّ هذا الوهم في غير محله بل هو خطأ محض. (فتأمل)

على أيّة حال فمقولة الذنب النسبي وتحت عنوان ترك الأولى يمكن أن يكون جواباً حسناً لكلّ الأسئلة التي تثار حول الآيات والروايات التي نسب فيها الذنب إلى المعصومين.

الملفت للنظر أنّ التعبير بـ «المعصية» فيما يتعلق بـ «ترك المستحبات» قد ورد في الروايات الإسلامية أيضاً، من جملتها الحديث المعتبر عن الإمام الباقر عليه السلام في حديثه



عن التوافل اليومية قال: «إنما هذا كله تطوع وليس بمفروض إن تارك الفريضة كافر وإن تارك هذا ليس بكافر ولكنها معصية»<sup>١</sup>.

كما أن معنى «العصيان» لقوياً وكما ذكره الراغب في مفرداته، هو كل خروج عن دائرة الطاعة (سواء أكانت هذه الطاعة في الأوامر الوجوبية أو الاستحبابية)<sup>٢</sup>.

سؤال: يمكن أن يقال هنا: صحيح أن عصيان والذنب مفهوماً واسعاً بحيث يشمل أحياناً ترك المستحب والأولى أيضاً، وأنه يعاوت بتفاوت الأشخاص، لكن ما هي الحكمة من تكرار الله تعالى التعبير بالمعصية بحق أنبيائه المكرمين في آيات القرآن المجيد؟

جواب هذا السؤال ذكر في حديث لطيف نقله المرحوم الطبرسي في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو حديث طويل جاء في فقرة منه أن زنديقاً قال: إني أجد الله قد شهر دعوات أنبيائه مثل «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (فما الحكمة من هذا؟)

فقال الإمام عليه السلام: «وَأَمَّا دعوات الأنبياء ﷺ وما آتاه الله في كتابه و... فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عز وجل الباهرة وعلوته القاهرة، لأنه علم أن براهين الأنبياء تكبر في صدور أئمتهم، وأن منهم من يتخذ بعضهم إلهاً، كالكذبي فكان من النصاري في ابن مريم، فلذلك دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرد به عز وجل» (ولئلا يراود فكر ألوهيتهم ذهن أحد أبداً)<sup>٣</sup>.

❦❦❦

### ثمرة للبحث:

ما جاء عن آدم وكذلك سائر الأنبياء من أنهم ارتكبوا الذنب والمعصية، له ثلاثة أوجوه رئيسية تعي بالمطلوب مجتمعة أو مفردة، ولا منافاة بينها في نفس الوقت، أي أن هذه التعابير يمكن أن تُشير إلى ترك الأوامر الإحصارية والإرشادية وكذلك ترك لأولى، هذا

١ تهذيب الأحكام (طبقاً لما نقله تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٠٤، ح ١٦٥).

٢ مفردات الراغب مادة (عصى).

٣ تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٠٣، ح ١٧٢.

بالنسبة لآدم، أما سائر الأنبياء فيمكن أن تنظر إلى القسمين الأخيرين، أي ترك الأوامر الإرشادية وترك الأولى (تأمل جيد).

❦❦❦

## ٢- نوح عليه السلام

تقرأ في قصة نوح عليه السلام أنه حينما بدأ الطوفان بسبب الأمطار الغزيرة المسهورة من السماء، والمياه المتدفقة من باطن الأرض، ثم تعص مدة طويلة حتى أحاط الماء بكل مكان، وأن نوحاً وأصحابه ركبوا السفينة، وتعرض إليه للفرق لثمرته على أمر أبيه، وعدم إيمانه الذي يعد شرطاً لركوب السفينة. فظفر نوح إلى السماء وقال: «رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِكَ وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ».

(هود / ٤٥)

أي قد وعدتني بإنقاذ أهلي، فعاتب الله سبحانه نوح على الفور بخطاب قال فيه: «إِنَّكَ كُنْتَ مِنْ أَهْلِكَ»

(هود / ٤٦)

فلم تطلب ما ليس لك به علم؟ فاعتذر نوح وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشَاكَ مَا كُنْتُ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

(هود / ٤٧)

في هذه الآية يعتذر نوح عليه السلام عن طلبه ما ليس له به علم، ويطلب من الله تعالى العفو والرحمة والمعصية، كما ويقول أيضاً: إن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين.

السؤال هو: كيف تتلاءم هذه المواضع الثلاثة ومقام عصمة الأنبياء؟

الجواب: يجب أولاً التدقيق في نوع الخطأ الذي ارتكبه نوح؟ هل كان ذنباً، أم تصرفاً في حدّ ترك الأولى؟ طبعاً كان الله تعالى قد حذر نوحاً من مقبلة الشماعة للظالمين (المشركين) لأنهم مغرّقون، قال تعالى: «وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ».

(هود / ٣٧)

ولكن هل أن نوحاً كان يعلم بأن أبيه من زمرة الكفار؟، إذ من الممكن وكما احتمله بعض المفسرين أن الولد كان يخفي حاله عن أبيه، وما أكثر أولئك الأبناء الذين نسمع عنهم أو نراهم يتظاهرون أمام آبائهم بالصلاح، في حين يتهاجون بهجاً آخر في غيابهم.

مضافاً إلى ذلك، وطبقاً للآية «قُلْنَا اخْلُفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»<sup>١</sup>. (هود / ٤٠)

فقد كان نوح يتصور أن إيمه سيكون من أهل النجاة، إعتماً على الوعد الإلهي، ولذا طلب من الله تعالى ذلك في الآيات مورد البحث «وَوَدَّعَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» (هود/ ٤٥)

في هذه الحادثة لا نشاهد أي مصداق للدب والمعصية من نوح سوى ترك الأولى، إذ كان يسمي عليه أن يتحقق أكثر في حال ولده قبل أن يطلب من الله تعالى نجاته، كما أن تعبير نوح بالنسبة لولده حين ناداه وقال له «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» (هود/ ٤٢) ولم يقل (من الكافرين) قريبة على أن نوحاً لم يكن يعتبر ولده من الكافرين بل معهم كما قال البعض أيضاً، إن نوحاً كان يعلم بكفر ابنه، لكن حبه الشديد له (بالإضافة إلى حالة الإضطراب التي أحاطت به عند حدوث الطوفان، والتي كانت تفوق العادة) كان السبب وراء تجاهل نوح لوصع إيمه ولو مؤقتاً لنحوه إلى الله تعالى لإيقاظه، لكنه انتبه بعد الإنذار الإلهي واعتذر لتركه الأولى.

❦❦❦

### ٣- إبراهيم عليه السلام

هناك تعابير تبدو عند تفسيرها لأوّل وهلة وكأنّها نوح من الدنّب، وردت حول هذا النبي العظيم الذي يتميز بمكانة خاصّة حتى من بين الأنبياء عليهم السلام، من حيث الإيمان والإخلاص والإيثار والشجاعة والصبر والإستقامة، نقرأ في القرآن الكريم أنه القي القبض عليه بعد تعظيمه للأصنام ومثّل في المحكمة فسألوه: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمَ؟» (الأنبياء / ٦٢-٦٣)

فأجاب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَسْطِقُونَ».

١ يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى الآية ٢٧ من نفس سورة هود «عِدَّةٌ آيَاتٍ قَبْلَ الْآيَةِ مَوَدَّعَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» وأنّ واحداً من أجسّ مصاديقها يتحقق في زوجة نوح التي التحقت بالكفار وأنّ نوحاً بسوره لم يتمرّ من الحديث عن نجاتها أبداً

وهنا يرد إشكال وهو: كيف سب إبراهيم عليه السلام عمله هذا إلى كبير الأصنام، أليس هذا كذباً؟

وفي نفس هذه الحادثة وعندما طلب منه المشركون الخروج معهم خارج المدينة للاحتفال بعيد الأصنام، إعتذر من الذهاب معهم بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات / ٨٩) ومع أنه لم يكن مريضاً، فكيف يتناسب هذا الكلام مع منزلة عصمته؟ كما نقرأ في القرآن الكريم أن إبراهيم بصرح بأنه يتمنى غفران ذنوبه ويقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. (الشعراء / ٨٢)

ألم يكن هذا الإعراف دليلاً على صدور الذنب من ذلك النبي العظيم؟ كما وأشكّلوا عليه أيضاً أنه عليه السلام لماذا تنص موقعه مع عبدة النجوم والقمر والشمس بالرغم من إيمانه بالعالم المتزه من أي شائبة من شوائب الشرك حيث قال بمقولتهم ﴿هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام / ٧٦ و ٧٧ و ٧٨)

هذه هي المواضع الأربعة الواردة في القرآن المجيد والتي أثار كل واحد منها بدوره جدلاً حول منزلة وعصمة إبراهيم وتبرهه من الذنب والمعصية.



### الجواب :

ذكر كبار المفسرين ورواة الحديث أدلة ومواضيع جمة لإجابة عن هذه الاستفسارات الأربعة، ولكن بعض تلك المطالب ليس لها أسايد معتبرة، والجواب الذي سنذكره هنا هو أنسب تلك الأجوبة وأكثرها اعتماداً.

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول، فإن إبراهيم لم يقل: إن كبير الأصنام قد فعل هذا، إنما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

هذه العبارة يمكن أن تكون من باب «التضيّة الشرطية»، أي أن إبراهيم قد سب هذا العمل إلى كبيرهم بشرط نطقهم، ولا يحفى عدم وجوب الكذب في هذه القضية الشرطية.

هذا هو نفس ما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث أنه قال: «ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، وحينما استفسر السائل عن كيفية ذلك؟ قال عليه السلام: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب إبراهيم)»<sup>١</sup>.

كما أن نسبة إبراهيم عليه السلام هذا العمل إلى كبير لأصنام إنما جاء من باب الكناية، التي هي أفضل من التصريح، فلقد أراد أن يوقف عبدة الأصنام على خرافة عقائدهم عن هذا الطريق، وبهمهم أن هذه الأحجار والأخشاب الجامدة عاجزة حتى عن التفوه ولو بعملية واحدة وأنها محتاجة إلى عبادتها، فكيف يمكنها والعادة هذه من حل مشاكلهم؟

وبمباراة أخرى، فالكذب إنما يكون فيما لو لم تكن هناك قرائن تدل على أن المقصود كناية، وهنا تشير كل القرائن إلى أن إبراهيم لم يكن جدياً في كلامه هذا، بل كان يسحر من أفكارهم، وما أكثر أمثال هذه التعابير في المعاصرات اليومية، كما لو فرس وقوع سرقة ما في محيط محدود يظن فيه أشد من معين، وعند التحقيق يبيى كل منهم هذا الإتهام عن نفسه، فيقول المحقق، أنت لم تفعل هذا وذلك ثم يعللوا. حتماً قامت به ملائكة السماء! وبديهي أن هذا الكلام لا يعتبر كذباً، بل الهدف منه هو تكذيب أقوالهم الواهية التي لا أساس لها.

هناك احتمال ثالث أيضاً، وهو أن جملة «بل فعله» مطلقة، وهي في الواقع إشارة إلى تحليل منطقي مطابق لعقائد الوثنيين، وهو أنه، ألا تعتقدون أن حادثة تحدث داخل المعبد لا يمكن أن تكون بفعل من خارج المعبد، وذلك لهيئة الأصنام على كل شيء وكل فرد، ومهما كان فهو داخل المعبد، وحيث إن كبير الأصنام أكثرهم قوة ومنعة، بالإضافة إلى وجود الفأس في عنقه (يقال أن إبراهيم وضع فأس على رقبته)، فصلاً عن كونه الصنم الوحيد الذي لم يلحق به أي أذى.

إذن بناءً على هذا فالقرائن تشير إلى أنه من فعل كبيرهم، وهذا نظير التحاليل التي

١. تفسير نور الثقلين ج ٣، ص ٤٣٤، ج ١٨ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٦، ج ٤ (باب عصمة الأنبياء).

يستخدمها المحققون لمعرفة الجاني عن طريق تتبع آثاره وبصمات أصابعه، حينما يدخلون في محيط قد وقعت فيه جريمة، وكما قلنا فإن هذا التحليل كان مطابقاً لعقائد الوثنيين لغرض إدانتهم بما يعتقدون

وفيما يتعلق بالآية الثانية فلا دهل أصلاً على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مريضاً حقاً، فهناك علّة في بدنه، غاية الأمر أنها لم تكن بتلك الخطورة التي تقعه عن نشاطه البدني بالمرّة، وتستعمل عليه بحيث تمنعه حتى عن تعظيم الأصنام، وما أكثر المرضى المشغولين بأعمالهم طول النهار، خصوصاً تلك التي تبعث على ترسيخ العقيدة كتعظيم الأصنام لبطل التوحيد إبراهيم هذا أولاً.

ولأنّنا مع أن «السقم» و«السكران» هو المرض المختص بالبدن، لكنّه قد يكون في النفس أيضاً كما صرح به البعض من أصحاب السعة، وبديهي أن روح إبراهيم كانت متعبة وكالمريضة في ذلك الحو السلي. بالشركاء الذين يقولون أنّهم إشارة إلى العاصب النفسي ثم إنّ الأمراض النفسية حين نشأ وطنتها تظهر مصاعفاتها السلبية حتى على البدن أيضاً. وقد أصبحت هذه المسألة اليوم من المسلّمات. والقرآن الكريم أيضاً يحاطب النبي الأكرم عليه السلام: «فَلَعَلَّكَ نَادِعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَءًا»

(الكهف / ٦)

كما أن بعض المفسرين قال: إنّ لإبراهيم عليه السلام مرضاً (كالحمى المزمنة) ينتابه بين الفينة والأخرى، وأن مراده من جملة، (أي سقيم) هو اقتراب رمن هذا المرض فانا معذور من مرافقتكم، كما أنّ الجملة التي قبلها «فَقَطَّرْ نَظْرَهُ فِي الْجُجُومِ» (الصفات / ٨٨) دليل على هذا المدعى، لأنّ النظر إلى الججوم إنّما يكون لحساب الوقت أي للوقوف على زمن ظهور ذلك المرض.

وفيما يتعلق بالآية الثالثة، فالجواب هو نفس ما تقدّم تفصيله في الآيات المتعلقة بآدم عليه السلام، وهو أن مراد إبراهيم من «الخطيئة» هو «الذنب السبي» و«ترك الأولى» و«حسنات الأبرار سيئات المقربين»<sup>١</sup>.

١ مع أن «الخطيئة» مأخوذة من مادة «خطأ» والتي تعني في الأصل الزلات الصادرة من الإنسان لكنها اتسعت

لكن ما هو «ترك الأولى» بالنسبة لإبراهيم ي ترى؟ قال البعض: إن المراد به هو كل تلك الحالات التي تتسبب في غفلة الإنسان عن الله تعالى بأي نحو كان، كالإشتغال بشؤون الحياة مثل الأكل والشرب وأمثالها التي يصيرها أولياء الله ذنباً لغفلتهم عن الله تعالى ولو بهذه الدرجة<sup>١</sup>.

وفيما يتعلق بالآية الرابعة، أي إشارة إبراهيم إلى النجم والقمر والشمس، ووصفه إياها «هذا ربي» فللمفسرين فيه أقوال وآراء كثيرة أيضاً، أقواها أن يقول: إن إبراهيم كان في مقام الحوار والاستدلال مع المشركين من عبدة اسهم والقمر والشمس (بقرنة الآيتين اللتين تحقن بهذه الآية، واللذين تتعرضان لحوار إبراهيم واحتجاجه على الوثنيين).

وبناء على هذا فقد وقف إبراهيم ﷺ بوجه هذه المحاميع الثلاث كل على حدة، إذ وافقهم على آرائهم في أول الأمر، وعلى سبيل العرض لحين أقول هذه الكواكب السماوية لكي يبين لهم خطأهم، بالضغط مثلما نواجه بقوانين يسكنون الأرض وحركة الشمس حول الأرض فعول لهم حساً، كما يقولون، لكن هل تعلمون أية دائرة عظيمة يستلزمها كلامكم هذا لكي تتمكن الشمس التي تفصلها عن الأرض تلك المسافة العديدة، وأي سرعة عظيمة تحتاج للدوران حول الأرض دورة كاملة كل ٢٤ ساعة، وثوب هذه السرعة لمثل هذا الجرم السماوي من المستحيلات، إذن، يتضح من ذلك بطلان فرضيتكم، (فتأمل جيداً).

هذا هو أحد أفضل الطرق التي يمكن استخدامها لإبطال نظريات الخصم، أي الوقوف معه أولاً، وموافقته (على سبيل الفرض)، دون إثارة روح التعصب والعناد عنده، ثم إيقافه على نتائجها الباطلة، كما قال البعض أيضاً: إن استخدام جملة «هذا ربي» أمام هؤلاء القوم كان بمثابة «استفهام»، ذلك الاستفهام الذي يعد مقدمة لإبطال نظرياتهم عند غروب وأقول تلك الكواكب.

تدرجياً لطلاق على كل ذنب يشغل العبد وغيره، واستغاثته في الذنب غير العمد واسع جداً، لكن «الإثم» يطلق على الذنوب العمدية، وهو يمي في الأصل الشيء الذي يتنب الإنسان عن عزمه، وحيث إن الذنب يحول دون بلوغ الإنسان للمنزلة الرفيعة ويسم عنه الكثير من الحيرات والبركات فقد سمي «إثماً».

١. تفسير الميراث، ج ١٥، ص ٢٨٥.

أمّا القول: إنّ إبراهيم عليه السلام قد نطق بهذه الجملة لتحقيق بنفسه ولا مانع من قبول الإنسان لمختلف الآراء مبدئياً واختبارها، فلا يبدو صحيحاً لأن جملة: «يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» (الأنعام / ٧٨) دليل على أنّه كان بمثابة الاحتجاج على هؤلاء المشركين لا التحقيق بنفسه.

وقول البعض تأييداً لهذا الإدعاء: إنّ إبراهيم لم ير السماء إلى تلك اللحظة بصورة جيّدة، لأنّ والدته كانت قد خبأتها في عار حارج بمدينة حوفاً من عيون مرود، فيبدو كلاماً بعيداً جداً، إذ كيف يعقل أن يبقى إبراهيم في العار طوال سنين عديدة منذ طفولته وحتى ريعان شبابه ولا يخرج منه ولو لمرة واحدة، لاليلاً ولا نهاراً؟! هذا الكلام أقرب إلى الأسطورة من الواقع<sup>١</sup>.

فصلاً عن أنّ هذه الآيات قد وردت على العموم، بعد الآية التي تتعرّص للحوار الحدي لإبراهيم مع ارب حول مسألة نسفيه اعتقاده بالأصنام، أي أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ مقام التوحيد الرفيع والقياس الراسخ قبل ذلك، وأنّ الله تعالى كان قد أطلعه على ملكوت السماوات، وقد بدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة الآخرين لا التحقيق لنفسه.



الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أنّ إبراهيم وأبيهان بطلان ربوبية هذه الكواكب الثلاثة، أورد دليلاً بعدد من أدق البراهين الفلسفية، في الوقت الذي يسهل على الجميع استيعابه، فيقول في هذا الدليل إنّ «الرب» يجب أن يبقى على اتصال دائم بمخلوقاته، وبناءً على هذا فالموجود الذي يغرب فينقطع نوره وبركاته لساعات طوال، لا يمكن أن يكون ربّاً لهذه الموجودات

فصلاً عن أنّ الشروق والغروب المستمرين لهذه الأجرام السماوية، دليل على خضوعها لقانون ما، وكيف يتسنّى للموجود الواقع في قبضة لقوانين الكونية، والطبيعية أن يكون

١. وقد جاء ذلك في عيون أخبار الرضا عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ إبراهيم خرج من مخبئه والتقى بثلاث طوائف من المشركين (تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٥).  
بعد في ذاته دليلاً على خلاف هذا الإدعاء فضلاً عن دعمه له «تأمل جيّداً».



حاكماً على هذا العالم وخالفاً له؟

بالإضافة إلى أن «الحركة» بذاتها موجود «حادث»، وبناءً على هذا فالشيء المتحرك مخلوق وحادث حتماً. ومثل هذا لا يمكن أن يكون موحوداً أرلئاً أبدياً (هذا هو نفس الشيء الوارد في البراهين الفلسفية تحت عنوان «العالم متغير» و«كل متغير حادث»). وبناءً على هذا فقد كان لحوار إبراهيم ثلاثة مفاهيم مختلفة ومشيرة، ولا يمكن الاستغناء عنها لإبطال ألوهية التجم والقمر والشمس.



#### ٤ - يوسف ﷺ

أما في شأن النبي يوسف ﷺ فنحن نواجه بعض آيات التي تبدو لأول وهلة غير منسجمة مع منزلة عصمته، من أهمها ما جاء في القرآن الكريم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَيِغَتْ عَنْهُ لُكُوءٌ وَاتِّفَافٌ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

(يوسف / ٢٤)

إذ يتصور القارىء في البداية أن هذه الآية تجعل من يوسف شريكاً لرليخا في قصد المعصية.



#### الجواب :

يكفي التمعّن في نص هذه الآية لرفع هذا الالتباس، لأن القرآن يقول: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» ومفهوم هذا الكلام هو بانضبط أنه لم يقصد المعصية لأنه رأى برهان ربه. ما هو المراد بهذا البرهان؟ (علماً أن البرهان يعني كل دليل قوي ومحكم يتبنّى بيان الحقيقة وإيضاحها، وهو مأخوذ من مادة «بره» التي تعني: إيضاح). للمفسرين هنا احتمالات متعددة، أفضلها هو القول: إن المراد من برهان الرب، هو



وحاولوا أحياناً توسيع دائرة الإشكال فدنوا لماذا لم يكشف يوسف ﷺ النقاب عما جرى له بسرعة ليطلع اخوته على حقيقة الأمر وليوصلوا خبر حياته وعظمة مكانته إلى أبيه الشيخ؟، ليطمئن ويتخلص من ألم الفراق ندي أضواء كثيراً، فهل أن مثل هذا التصرف يتناسب مع الوضع الذي كان يعيشه ذلك الأب لمسئ؟ ثم ما هي عقوبة السارق في ذلك الزمان ليقضى أخو يوسف عندهم كرهينة بتهمة السرقة؟ هل كان هذا حكماً إلهياً، أم سنة أهل مصر الحرافية؟ لو كانت سنة أهل مصر، مماذا وافق يوسف على تطبيق هذا الحكم الجائر بحق أخيه؟

❦❦❦

### الجواب :

من الممكن العثور على أجوبة هذه الأسئلة بشكل واضح، من خلال الآيات الواردة في سورة يوسف وقرائن أخرى.

**أولاً:** يبدو حسب الظاهر أن هذه الأمور قد تم بموافقة «بنيامين نفسه» (الأح الأصغر ليوسف)، إذ إن آيات هذه السورة تشهد كاملاً على أن يوسف قد عرّف نفسه لبنيامين قبل ذلك، فعلم بنيامين أن هذه الحطة قد وضعها يوسف للاحتفاظ به عنده فوافق على هذه الحطة.

**ثانياً:** إن القائل: «إنكم لسارقون» مجهول؟ غاية ما عرفه عنه أنه كان من حاشية يوسف ﷺ، وحينما وجدوا الوعاء المحصوص داخل متاع أحد أخوة يوسف تيقنوا من كونه هو السارق، وبديهي أن ارتكاب عمل ما من قبل أحد الأفراد في مجموعة واحدة، يُعرض كل أعضاء تلك المجموعة لحطاب: إنكم قمتم بهذا العمل.

على أية حال فهذا الكلام والتشخيص إنما يتعلق بحاشية يوسف ولا علاقة له به، بل الشيء الوحيد الذي قام به يوسف هو وضع الوعاء في رحل أخيه لإثارة ذلك الإتهام، الذي كان السبب وراء خلاص وراحة أخيه ندي وافق على ذلك، كما تقدم.

**ثالثاً:** هذا المخطط بمجموعه سواء فيما يتعلق بالاحوة أو الأب، كان إتماماً لاختبار إلهي لهم، وبعبارة أخرى كان يوسف طبقاً لأمر الإلهي الذي تلقاه عن طريق الوحي سبباً لاختبار مقاومة يعقوب مقابل فقد ولده الذي كان ولهائاً بحبه، ولتتم من خلال ذلك دائرة تكامله ومكافأته وثوابه، كما تم هنا وضع الاخوة ثانية في بودقة الاختبار، لمعرفة مدى استعدادهم للوفاء بالعهد الذي عقده مع أبيهم في عدم ترك «بنيامين» وحيداً؟ ولنعرف من جهة أخرى الأشخاص الذين قالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ».

(يوسف / ٧٧)

وأراد اخوته من هذا الكلام يوسف ﷺ

**الخلاصة:** إن قصة يوسف ﷺ مليئة بالإشارات سواء فيما يتعلق بيوسف، أو أبيه، أو اخوته، وهي الآية أدناه إشارة إلى هذا القول

«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ»

(يوسف / ٧٦)

كما أن هذا التعبير يكشف التقدير عن السؤال الأخير أيضاً ويجب عنه، وهو أن تطبيق خطة «عبودية السارق» كان أمراً إلهياً إلى يوسف (الإكمال الإمتحان المذكور) في خصوص هذا المورد «تأمل جتهاد»، وبناء على هذا فلا سجد في البيس إشكالاً يمكن توجيهه إلى هذا السبي العظيم فيما يتعلق بمنزلة العصمة

❦❦❦

## ٥- موسى ﷺ

هنالك آيات قرآنية في مختلف السور مرتبطة بمنزلة عصمة موسى ﷺ، وقد تعرضت للاستفهام أيضاً:

نقرأ في الآية ١٦ من سورة القصص، أن موسى ﷺ وبعد صراعه مع أحد أعدائه (أتباع فرعون)، الذي كان في شجار مع رجل من بني إسرائيل، وتوجيه ضربة قاضية إليه أردته

قتيلاً، توجه إلى الله تعالى وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

يا ترى «ألم يكن التعبير يأتي طلمت نفسي وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، دليلاً على ارتكاب الذنب»؟

ثم إنه ورد في الآية التي قبلها أن موسى وبعد قتله لعدوه قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» (القصص / ١٥)

وبعد هذه الحادثة وحينما بلغ موسى مرتبة النبوة، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى الله، عاتبه فرعون وقال: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الْبِئْسَ مَا لَكَ مِنَ الْكَافِرِينَ • قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ» (الشعراء / ١٩ - ٢٠)

صحيح أن موسى لم يكن قد بلغ مرتبة النبوة في ذلك الوقت، ولكن نظراً لضرورة تمتع الأنبياء بدرجة العصمة حتى قبل النبوة، فالنصير **بسم الضالين** يبدو غير مناسب هنا بعض الشيء.

وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الجواب.

**أولاً**، وقبل كل شيء يجب البحث في ماهية هذا القتل الذي لم يكن بقصد وسبق إصرار، وهو مما يصطاح عليه بقتل الخطأ، هل كان جائراً أم لا؟

لا شك أن هذا العمل لم يكن معصية، مع لأحد بظر الإعتبار ذلك الموقف المعادي الذي كان يتخذه قوم فرعون الظالمين من بني إسرائيل، حتى أنهم كانوا يديحون أباءهم الرضع ويأخذون بساتهم للخدمة، بل كانوا قد أذافوهم أقسى أنواع الظلم والعذاب، حتى أصبحوا مصداقاً للتعبير القرآني: «مفسد في الأرض» خصوصاً أن موسى كان في مقام نصرة المظلوم والدفاع عنه، إذن معواز قتل هذا فرعوني لطالم هو مما لا شك فيه على أقل تقدير، فكيف يمكن الخدش في درجة عصمة موسى في مثل هذه الحال.

إذن، فالذي يحتمل كونه مخالفاً للوجود يمكن حتماً في ترك الأولى المتجسّد في كهيّة تصرّف موسى (الأصل تصرّفه).

ويبدو أنّ مراد موسى ﷺ من: «ظلمت نفسي» هو الوقوع في المشقة، باعتبار أنّ قتله لأحد الأقباط ليس بتلك السهولة التي يتناسها أتباع فرعون، ولا يخفى أنّ ترك الأولى يعني العمل المباح دائماً، إلّا أنّه يحرم صاحبه من العمل الأفضل.

وجملة «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» إشارة إلى أصل سزاع القبطي والسبتي (الفرعوني والاسرائيلي)، أي أنّ نزاعهم الأعلى النافذ هذا هو من عمل الشيطان.

إذن، فطلب المغفرة من الله إنّما هو لتركه الأولى، وقد ورد طيره في القرآن الكريم بحق آدم وحواء أيضاً. حيث أنّهما قد أوقعا نفسيهما في المشقة وذلك بتركهما للأولى، وأكلهما من الشجرة الممنوعة، فطلبوا المغفرة لذلك «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (الأعراف / ٢٣).

أمّا التعبير بـ«الضالّين» المأخوذ من مادة «الضلال» التي تعني في الأصل ترك الطريق السوي، فله معنى واسع ولا يحصر بمعنى الإغراض عن الدين والحق فقط، بل يصدق بحق شخص كموسى ﷺ الذي عرّض حياته للخطر بقتله لذلك الفرعوني أيضاً، وبعبارة أخرى فقد ترك طريق السلامة، وسلك طريق دت الشوكة، ولذا لم يتمكن من البقاء في مصر بعد تلك الحادثة فغدى مشرداً في البوادي والحبال إلى أن وصل أرض «مدين»، وشملته الأنطاف الإلهية في خاتمة المطاف، حيث عاش هناك ولعدة سنين وتربى على يد شعيب ﷺ، ونهياً لتحمل مسؤولية الرسالة.

لا يخفى أنّ البعض يعتقد بأنّ معنى «الضلال» هنا هو عدم الإطلاع، أي لم أعلم بأنّ تلك الضربة ستقتضي على الرجل، وبناءً على هذا دلفقت المذكور بعد مصداقاً لقتل الخطأ لا العمد، لكن المعنى الأوّل يبدو أنسب، رغم أنّ فرعون قد يفهم من كلام موسى ﷺ شيئاً آخر، ولذا اقتنع بذلك ولم يعلق عليه بشيء.

ثانياً في الآية ١٤٣ من سورة الأعراف نستوقفا هذه الحادثة، وهي أنّ موسى ﷺ

طلب من الله تعالى أن ينظر إليه ببصره وسمع لجواب: إنك لن تراني أبداً  
 ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ فِي هَذِهِ  
 الْأَنَاءِ جَاءَهُ الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْجَبَلِ ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَوَىٰ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فِيهَا  
 نَجْبِلُ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعْلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ  
 الْمُؤْمِنِينَ﴾. (الأعراف / ١٤٣)

من هنا يقال:

**أولاً:** لماذا طلب موسى مثل هذا الطلب من الله تعالى مع كونه يتمتع بميزة رفيعة في  
 المعرفة والإيمان؟

**ثانياً:** لا بد وأن صدرت منه مخافة ليستل بالضعفة ويعنى عليه؟

**ثالثاً:** حملة «كُتِبَ إِلَيْكَ» تظهر أنه تاب من عمل سيء قام به

والمفسرين هنا أحوية متنوعة أيضاً، أجلاها هي: إن آيات القرآن تبين بكل وضوح أن  
 ذلك الطلب لم يصدر من موسى عليه السلام بل من بني إسرائيل الذين ألحقوا عليه لثريهم الله تعالى.  
 ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَهُ جَهَنَّمَ فَاخِذْكَمُ الصَّاعِقَةُ﴾.

(البقرة / ٥٥)

بل الآيات الأخرى أيضاً تبين أن موسى كان مأموراً بأخذ جمع من أشرف بني إسرائيل  
 معه إلى جبل الطور لتكرار طلبهم هناك «حَتَّىٰ يَقَعُوا عَلَى الْجَوَابِ بِشَكْلِ عَمَلِي»، ويشير  
 إلى ما تقدم ما أطلق على هذه الحادثة، اسم «مِيقَاتِنَا» في الآية الاتفة الذكر وكذلك في الآية  
 ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ  
 مِن قَبْلُ وَلَئِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي  
 مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. (الأعراف / ١٥٥)

وبناء على هذا فما قاله موسى عليه السلام كان بامر وتكليف من الله تعالى، كما أنه ليس لنزول  
 الصاعقة أية صفة جرائية، بل كان الهدف إيذاء عامة بني إسرائيل على هذه الحقيقة، وليبين  
 لهم بأنهم عاجزون عن رؤية شرارة صغيرة من قدرته تعالى بحيث تسقطون على الأرض

فيغمي على البعض منكم ويصعق البعض الآخر، فكيف والحالة هذه تطلبون رؤية ذاته تعالى بعظمته؟

أما جملة «أني تميت» فقد كانت من جانب بني إسرائيل، كما أن جملة «ربّ أريني أنظر إليك» كانت من قبلهم أيضاً.

يستفاد من عدة آيات من سورة الكهف - موسى عليه السلام ابتلي بالنسيان، فهو تارة يقول: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (الكهف / ٦١) إذن فلقد وحد السيان طريقه إليهما

وفي آيتين بعدها ينقل عن صاحب موسى عليه السلام: ﴿فَبِئْسَ التَّحَوُّتُ وَمَا أَتَّسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَدْكُرَهُ﴾ (الكهف / ٦٢)

فلو كان صاحبه وهو يوشع بن نون - كما هو معروف بين أقطاب المفسرين - وكان في تلك الحالة نبياً، فسيثبت جوار السيان للأنبياء.

كما نراه في عدة آيات بعدها وعلى لسان موسى عليه السلام، أنه حينما انتهى بذلك الرحل الإلهي «الحصر» تعهد بالآسأله عن أسرار ما قدم به إعرآن بيئتها هو بنفسه، لكن موسى عليه السلام نسي ذلك في أول مرة، ولذا اعترض على الحصر لحرقه تلك السمية السالعة، وحينما ذكره الحصر بالعهد قال ﴿قَالَ لَا تَوَخَّذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾. (الكهف / ٧٣) كما تكرر هذا الشيء ثانية وثالثة أيضاً.

ألا يستفاد من مجموع هذه الآيات إمكان سمية السيان للأنبياء؟! أوليس الصياحه عن ارتكاب الخطأ والنسيان أحد فروع العصمة؟



### الجواب:

لقد سلك المفسرون طرقاً شتى للإجابة عن هذه أسؤال - إذ قال البعض: إن «السيان» يعني تارة ترك الشيء وإن لم يكن مسياً، كما نقرأ في قصة آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ...﴾.

(طه / ١١٥)



من المسلم أن آدم لم ينس العهد الإلهي مما يتعلق بالاجتناب عن الأكل من الشجرة الممنوعة، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبّر عنه بالسيان.

وقال البعض أيضاً: إن «الناسي» هو في حقيقة صاحب موسى ﷺ وليس موسى ﷺ، والناسي لم يكن نبيّاً، إذ لم يثبت ذلك فيما لو فتصرنا على الآيات القرآنية على أقل تقدير، فمن نقرأ في الآيات مورد البحث أن صاحب موسى ﷺ قد شاهد سقوط الحوت في الماء واستعادتها للحياة والحركة، وقرّر إخبار موسى ﷺ بذلك لكنه نسي، إذن فالناسي هو صاحب موسى لا غيره باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحادثة، والنسبة إليهما في جملة «نسيان» هي من قبيل نسبة عمل الفرد إلى الجماعة وهي شائعة الاستعمال.

ولو قيل كيف يعقل إبداع مسألة بكون هذه الأهمية في رواية السبان؟ قلنا: إن صاحب موسى ﷺ كان قد شاهد معجرات أهم من هذه، فصلاً عن كونهما في هذا السفر يطلبان هدفاً أهم، فنسيان الحوت بسبب هذا الهدف لا يدعو للعجب.

ونسبته السبان إلى الشيطان، قد يكون لوجود علامة بين حادثة إحياء السمكة ومسألة العثور على ذلك الرجل المالم، الذي كان من المقرّر أن يستفيد موسى ﷺ من علمه، وحيث إن عمل الشيطان هو الإغواء والحوّل دون بسويع بني الإنسان أهدافهم المقدّسة، أو تأخيرهم عنها على أقل تقدير، فقد قدّف السبان في ذهن «صاحب موسى».

جاء في بعض الروايات عن النبي الأكرم ﷺ ما مضونه إن موسى كان سائماً حين اسابت الحوت وسقطت في البحر وذهبت في سبيلها، وأن صاحبه «الذي كان يشاهد هذا الموقف» لم يرغب في إيقاظه وإخباره بذلك، كما أنه نسي أن يخبره بعد استيقاظه أيضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة أخري، ثم تذكر هذا الرجل الحادثة وقصّها على موسى ﷺ فاضطراً للرجوع إلى مكانهما لأوّل، الذي سقطت فيه السمكة في الماء<sup>١</sup>.

كما قال البعض أيضاً: إن الأنبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم، دون ما له علاقة بأمر عادي يومي، فالسيان أمر عادي لا يرتبط من قريب أو بعيد، بمسألة الوحي

والنبوة والتربية والتعليم والتبليغ، بل إن عدم تربطهما أمر واضح للجميع ولا يخدش هذا في مقام عصمة الأنبياء، والسيان الوارد في آيات المذكورة هو من هذا القبيل.

يقول العالم الكبير المرحوم السيد المرتضى رحمته الله: «إن هناك ثلاثة أوجه فيما يتعلق بقول موسى للخضر: «لَا تَوَاحِدُنِي بِمَا نَسِيتُ»:

**الأول:** النسيان بمعنى الحقيقي المتعارف، ولا عجب أن يسي موسى مثل هذا العهد خلال هذه الفترة القصيرة، لانشغاله فكرياً (بمسائل أهم)

**الثاني:** أن مراده هو أن لا تَوَاحِدُنِي على ما تركته (أي أن موسى كان قد ترك العهد عمداً، ومعلوم أنه كان مشروطاً، أي لو شئت لبقاء معي فلا تسألني حتى أوضح لك بنفسك).

**الثالث:** مراد موسى هو أن لا تَوَاحِدُنِي على عمل شبيه بالسيان

ثم يصيف قائلاً ولا إشكال لو حملنا الجملة على السيان غير الحقيقي، وإلا لو حملناه على السيان الحقيقي فتعليقه أن السيان بهذا المعنى لا يجوز بحق الأنبياء، في بيان الأمور الإلهية، أو الشرعية، أو الخارجية عن المتعارف، ولا مانع لما خرج عن نطاق هذه الدائرة، كما لو سئ النبي طعانه، أو شرابه لكن لا يبتلى بالدوامة والتكرار الزائد عن الحد لاستحالة مثل هذا الشيء في حقه.

الآية الأخرى المتعلقة بأعمال هذا النبي العظيم والتي دار حولها النقاش وردت في قوله تعالى: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقِ الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ الْقَوْمِ اسْتَخَفُّونَنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْعِثْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

(الأعراف / ١٥٠ - ١٥١)

وهنا ترد عدة علامات للاستعظام

**أولاً:** لماذا ألقى موسى بالألواح المكتوب فيها أحكام الله وآيات التوراة على الأرض؟

**ثانياً:** لماذا أبدى رد الفعل الشديد تجاه أخيه الذي لم يكن قد ارتكب إثماً؟

ثالثاً: لماذا طلب العفو والمغفرة لنفسه ولأخيه؟

لكن لو تأملنا في تلك الحادثة التي واجهها هذا لبي العظيم بعد رجوعه من ميقات ربه. لسألنا بصحة وضرورة تصرفه هذا.

فلقد قضى موسى سنوات طويلة مليئة بمشقة، لزرع بذرة «التوحيد» في قلوب «بنو إسرائيل» القاسية، وذهب إلى مكان اوحى لميقات ربه حينما بنت تلك البذرة على أمل نموها، لكنه حينما رجع لاحظ أن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وقد استسلم الأكثرية الساحقة من بني إسرائيل لوساوس «سامري» وسجدوا للعجل فضلاً عن إحاطة منة الوثنية والشرك بكل شيء وانطفاء نور الإيمان والتوحيد.

وهنا استعرب موسى كثيراً وغضب غضباً شديداً، وكان غضبه لله طبعاً، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان لا بد له من مواجهة ما حدث بشدة، حيث تعدّ أقسى حادثة في حياة موسى عليه السلام، وذلك لمف هو إسرائيل على خطورة الموقف وقبح عملهم، وبالنسبة لرجال كل أثار الشرك والوثنية من قلوبهم، وبالأخص لما آتاهم الشك في قلوبهم وقلوب الأجيال القادمة أيضاً، فليس المهم هنا مسألة احرام بشأن أو بعض الألواح المقدسة، بل المهم هو مسألة التوحيد وخطورة احرام قوم بأكملهم.

كان ينبغي لموسى عليه السلام التعبير عن غضبه للكاس في نفسه، وإظهار قبح هذا العمل للجميع، وذلك ما كان ميسوراً إلا بإبداء رد فعل عفيف، ولذا عاتب أحياء هارون بشدة حتى أنه جرّه من رأسه بعد أن ألقى لألواح حانياً، بل صرح في الواقع من أعماق وجوده، حتى تردد صده بين بني إسرائيل ليقول بعضهم لبعض: ما أقبح عبادة العجل يا ترى! بحيث يتعامل موسى عليه السلام بكل هذه الخشونة مع أخيه؟ وعلى فرص أن مثل هذا التصرف لا يليق بشأن هارون عليه السلام (مع أن علاقة الاخوة بين الأخوين تنفي مثل هذا الشيء) فإنه وبسبب التأثير الاجتماعي العميق له لم يجد موسى عليه السلام بداً من فعله.

كما أن نفس هذا الهدف كان وراء إلقاء الألواح، بالرغم من اعتقاد البعض بأن لفظة «الإلقاء» هنا تعني الوضع على الأرض والذهاب وراء عمل ما، ولذا لم تنته المسألة عند هذا الحد، بل كان ذلك القرار الشديد على بني إسرائيل بسبب ارتداد ذلك الفريق بالشكل

الذي جاء في ديل الآية ٥٤ من سورة البقرة.

كما واجه مؤسس الوثنية بين بني إسرائيل أي «سامري» ذلك العقاب الشديد أيضاً، خلاصة القول هي أن ردّ الفعل العنيف كان يرمي إلى أهداف عظيمة، ولم يكن حالياً من الإشكال فحسب، بل كان واجباً أيضاً في مثل تلك الظروف (تأمل جيد).

## ٦- داود عليه السلام

هناك آيات في القرآن الكريم تشير إلى أن سي الله العظيم داود عليه السلام قد استغفر ربه لعمل قام به، وأن الله تعالى قد غفر له وذلك قوله: «وَرَفَعْنَا دَاوُدَ أَتَمَّا فَتَنَّا فَاشْتَقَقَ رَبُّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ۖ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَآبٍ» (ص / ٢٤-٢٥)

ألم يكن استغفار داود والظفر عنه من قبل الله سبحانه وتعالى دليلاً على صدور الذنب منه؟ وهل يتلأم هذا ومقام عصيته؟

للحصول على جواب هذا السؤال لابد من الرجوع إلى القرآن، والبحث قبل كل شيء عن العمل الذي يرتبط به هذا الإتيان، وذلك المفسر...

تحكي الآيات التي سبقت آيات بحث أن حصصين تسورا محراب داود عليه السلام، ودخلا عليه على حين غرة، ففرع لدخولهما المعجبي، عليه: «إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهْنِ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَخُكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُوا وَاهِنَتِ إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَفْجَةً وَلِي نَفْجَةٌ وَاحِدَةٌ قَالَا أَلْغَلْنَاهَا وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ» (ص / ٢٢-٢٣)

فقال داود بدون تحقيق أو استمصار: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ...» (ص / ٢٤)

هذه هي القصة التي ذكرت في آيات القرآن بأكملها بلا زيادة أو نقصان.

هناك تفاسير مقبولة قدمت تفسيراً مقبوعاً لهذه الآيات، كما أن هناك روايات موضوعة

وردت في بعض الكتب، تعرّصت لمعاني هذه لايات بشكل مسيء ومشوّء.

أمّا ما يتفق ومحتوى الآيات المذكورة، فهو القول: إنّ الشيء الوحيد الذي صدر من داود عليه السلام كان فقط تركه للأولى وذلك سرّعه في القضاء، لكن لا بتلك السرعة التي تكون على خلاف «واجبات» موارد القضاء، إذ «يستحب» بلقاصي التمعّن أكثر ما يمكن، فلو ترك الأكثر واكتفى بالحدّ الأوسط أو الأقل فقد ترك لأولى. وهذا ما فعله داود، فقد قضى بظلم الأح لأخيه الفقير، وربما كان اسبب وراء هذا التسرّع هو دعره من دخولهما المفاجيء عليه في حلوته، فضلاً عن أنّ اجعده كهذا من قبل أخ لأخيه بحث على الأسف والشفقة

صحح أنّ داود عليه السلام أصمى لادّعاء طرف واحد فقط، لكن سكوت الطرف الآخر وعدم التفوّه بأي كلام، أو اعتراض يعدّ في نفسه دليلاً على عتراه، وعلى أيّة حال فمن آداب مجلس القضاء أن يطلب القاصي توصيهاً أكثر من الطرف المقابل وهذا ما لم يفعله داود وما استعمار داود إلا لتركه الأولى، وقد تقبّل الله تعالى توبته وعفّر له

وهو أفضل دليل على عدم صدور أي ذنب عن داود عليه السلام، والحمد لله الواردة في ديل نفس هذه الآيات. «وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَكُلٌّ وَحُسْنُ خَآبٍ» تشير إلى ذلك، كما أنّ هناك أوصافاً أخرى كثيرة في حقّه قد وردت في الآيات السابقة، ونعت بتلك المبرلة الرفيعة عند الله تعالى بحيث عدت سيرته بمودحاً لبي الإسلام ﷺ يقتدي به، ولا شك أنّ هذا المعنى لا يتناسب مع العصيان والذنب أبداً.

حيثما يصرّح القرآن في ديل هذه الآيات ويقول: «يَا دَاوُدُ إِنَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي

(ص / ٢٦)

الأرضي ...»

يشيّن بكلّ وصوح أنّ حليفه الله لا يدب، ومسألة ردعه من اتباع هوى النفس إنما هي بمثابة الأمر ولا تدلّ على ارتكاب معصية، ومن هنا يتضح مدى تفاهة تلك القصّة التي أبررتها التوراة بشكل مشوّء، وبالعت في تصخيمها أكثر من الوضع الطبيعي، وربطت هذه القضية بحادثة محتلفة وهي عشق داود عليه السلام لروحة أحد ضباط جيشه وهيامه في حبها.

والتيدير لقتله في خاتمة المطاف وأخذ زوجته.

تشتمل التوراة التي حُرِّفَت عن مواضعها على بعض العبارات التي تبين مدى مضاعفة هذه القصة، والتي لا تسمح عفة القدم ومسرنة لأتبياء <sup>١</sup> بذكرها. هذه القصص الموضوعة، والعبارات البديثة تعدّ بنفسها أفضل دليل على تحريف التوراة الحالية.

من الطبيعي أن مثل هذا التحريف ليس عربياً بالسبب لمحقق تاريخ التوراة على مدى آلاف السنين. لكنّ العجب إنما هو من كيفية إقدام بعض المفسرين المسلمين على نقل تلك الحرفات الفصحى في كتبهم، في الوقت الذي نقرأ في رواية عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حتى حدّ للنبيّة وحسباً للإسلام» <sup>٢</sup>.

كما احتمال البعض كون هذه الحادثة إشادة إلى أن داود عليه السلام لم بأسف لبأ مقل أوريا في ميدان القتال كأسفه على غيره، ودينك لرغبته في الزواج من امرأته بعد مصرعه، ولكن من دون (اتفاق مسبق) حول الموضوع.

لكن وكما أشار المرحوم السيد المرتضى أيضاً، فإنّ هذه التصرفات وإن لم تعدّ ذنباً لكنها ممّا تشمّر منها النفوس، ومعلوم أنه لا ينبغي لأتبياء والأئمة القيام بمثلها <sup>٣</sup>.

كما احتمال بعض المفسرين أنّ لعادة في ذلك ارمان كانت جارية على عدم تزويج المرأة الأيم أبداً، وأنّ داوداً قد تزوّج روجة أوريا بعد موته لتعظيم هذه السنة الخاطئة لكنّ هذا التفسير أيضاً لا يتناسب بدوره مع ظاهر آيات التي تبين صدور ترك الأولى من داود، لأنّ تعظيم هذه السنة الخاطئة يعدّ واجباً فصلاً عن عدم كونه تركاً للأولى، إلا أن

١. مرید من الإطلاع راجع الكتاب الثاني لـ «سموئيل» من كتب التوراة، الفصل العادي عشر، الجملة الثانية إلى السابعة والعشرين ثمّ قدّها وتحقیقها من التصير الأمثل ديل الآيات ٢٦ إلى ٢٥ من سورة ص.

٢. تفسير مجمع البيان، ديل الآيات من سورة ص. كما ذكر المصنف الراري نفس هذا الموضوع بعبارة أخرى.

٣. تنزيه الأنبياء، ص ٩١ و ٩٢.

يقال: إن هذا العمل كان سبب العناء الروحي لأوربا، كما جاء في إحدى الروايات<sup>١</sup> لكن التفسير الأول هو الأنسب من بين هذه تفاسير.

❦❦❦

## ٧- سليمان عليه السلام

وهناك أيضاً آية في القرآن الكريم وردت بحق هذا لسي العظيم، تبيّن أنه قد طلب العفو من ربه واستغفره على بعض الأعمال التي صدرت منه، (وَأَن آتَاهُ تَوْبَةً) يقول القرآن حول هذا الموضوع ﴿وَلَقَدْ لَتَّتُ سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْتُ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ • قَالَ رَبِّ اغْصِرْ لِي وَهْبِي إِلَىٰ مَلِكِي لَا يَنْفَعِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ • فَصَحَّرْنَا لَهُ الْرَّيْحَ •﴾ (ص / ٢٤-٣٦)

ونرى ما هو هذا الإحتبار؟ ولم يعود هذا الجسم لحامد الذي أقي على كرسية؟ هذا ما لم يتعرض القرآن لبيانته، لكن هناك تفاسير إسلامية ساولت هذه الحادثة، وروايات تعرضت لها، كما أن الرواة الذين وجدوا في هذا الموضوع أرحماً خصية لهم فحاكوا حوله أساطير وهمية لا أساس لها، ونسبو إلى هذا نبي العظيم ما لا يتناسب حتى مع المصطق والعقل السليمين، فصلاً عن منزله العصمة ونسوة، ومن جملة ذلك أسطورة شيعة وملفقة تدعي ضاع خاتم سليمان، واختطافه من قبل أحد الشياطين وجلسه على عرش سليمان ثم استلامه للحكم، (وذلك لوجود علاقة بين بخاتم والحكومة والنسلط على الإنس والجن طبقاً لهذه الأسطورة)، وهذه الأسطورة المذكورة في بعض الكتب بكل جدية واعتقاد، والتي تبدو حسب الظاهر من خرافات الاسرائيليات المعتدة جذورها إلى «التلمود» كتاب اليهود، (وهو عبارة عن مجموعة روايات في تفسير قوانين موسى)، والتي يصعب التفوه بها أو نقلها لوقاحتها.

والذي يبدو صحيحاً من بين التفاسير وندي أشير إليه في الروايات الإسلامية،

تفسيران:

**الأول:** أن سليمان عليه السلام كان يتمنى أن يكون له أبناء شجعان وأكفاء ليديروا حكومته من بعده، ويعينوه في حياته على إدارة البلاد والنظام والجسس، ولذلك قال في إحدى الليالي لقد صممت على مفارقة العديد من سائتي على أمل أن أرزق بأولاد أكفاء، لكنه لم يقل (إن شاء الله)، فبسبب ترك الأوصى هداه يروق من روحانه سوى طفل ناقص الخلقة كالجثة الهامدة حيث ألقوه على كرسية.

جاء في حديث عن النبي الأكرم عليه السلام «والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً»<sup>١</sup>.

وهذا الله سليمان عليه السلام ابن آبه ترك الأولى فتاب بذلك وعفى الله تعالى عنه **الثاني** أن المراد من جملة «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً» هو أن سليمان قد مرض مرضاً شديداً حتى عاد كالجثة الهامدة فوق كرسية، فكان ذلك ابتلاء إلهياً، ثم استعاد عافيه وشفى، وهو المراد من كلمة «أَلْقَيْنَا» في الآية طبعاً لهذا التفسير الوارد في تفاسير الكثير من أقطاب المفسرين يكون جملة «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً»، بمعنى «القيناه على كرسيه جسداً» وهي خلاف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

فصلاً عن عدم وصوح ما هو ترك الأولى لصادر من سليمان عليه السلام على أثر هذا المرض ليستغفر ربه؟ إلا أن يقال إن الإنسان يرتكب تركاً للأولى في حاله المرض بشكل عام وحال مرضه بشكل خاص، وأن سليمان قد استغفر ربه لمثل هذه الحالات، لكن هذا الجواب مبهم وغير مقنع.

**الموضوع الآخر** الذي أثير حول هذا السبب العظيم، هو الجملة التي تلي نفس هذه الآية وهي قوله: «وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَتَّبِعِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي» فهل يتلاءم، هذا الطلب مع الروح السامية والطره البعيدة والزهد المنقطع النشيط

١ ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه، كما ذكرته بعض التفاسير ومن جعلها روح اليل، وفي ظلال القرآن في ذيل الآيات مورد البحث.



الذي يتمتع به الأنبياء المعصومون ﷺ؟ ألا يُشتم من هذا الكلام رائحة البهل ياترى؟  
ورغم أن الحديث يدور هنا حول عصمه لأنبياء ﷺ، لكن على أية حال فالتقائص  
الأخلاقية الأخرى خصوصاً تلك التي نشعرُ منها لهوس لا تناسب مع درجاتهم  
ومنزلتهم الرفيعة.

وقد أجاب المرحوم السيد المرتضى في «تنزيه الأنبياء» والمحقق الطبرسي في «مجمع  
البيان» وباقي المفسرين عن هذا السؤال في تفسيرهم بأجوبة متعددة<sup>١</sup>، والأجوبة أدناه تعدّ  
أنسها

إن سليمان عليه السلام طلب من الله تعالى أن يكون له معجزة خاصة، كما أن لكل نبي معجزته  
الخاصة. وكانت معجزته هي الحكم لدي لا مثيل له، الحكم على الإفس والحنّ وعلى  
الرياح والسحاب و... فوهبه الله مثل هذه المعجزة، حكومة واسعة تتصف بالإعجاز في  
مختلف الجوانب، ومن البديهي أن طلباً كهذا لا يعدّ تحمياً ونقصاً للنبي

والجواب الآخر هو: إحساس سليمان بالإدراك لمثل هذا الطلب عن طريق الوحي، أو  
بعبارة أخرى: أن الله تعالى شاء أن يتعمّد شعاع من قدرته وحاكميته عن طريق أحد أنبيائه  
العظام، فوجد سبحانه سليمان صالحاً لهذا العرص فأجازه لمثل هذا الطلب، فطلب سليمان  
بدوره تلك المعجزة، فوهبه الله تلك الحكومة المعجزة التي لا مثيل لها، والتي لم ولن يكون  
لها نظير في العالم، ومن المسلم أنه حتماً يجدد الله أحداً صالحاً لعمل ما، ويجيزه في ذلك، لا  
يبقى هناك أدنى مجال للشك والترديد والإشكال.

الدليل على هذا الكلام هو ما ورد عن سيره سليمان من أنه كان زاهداً جداً في حياته،  
كما نقرأ في حديث عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال حول هذا الموضوع: «كان يأكل الشعير  
ويطعم الناس الخواري<sup>٢</sup> وكان لباسه الشعر وكان إذا جئته الليل شدّ يده إلى عنقه فلا يزال  
قائماً يصلي حتى الصباح»<sup>٣</sup>.

١ تنزيه الأنبياء، ص ٩٧ و٩٨، تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٧٦  
٢ الخواري (بالحاء المضمومة والواو المشددة)، هو «الطحن الأبيض»  
٣، سفينة البحار، مادة (الزهد)، وتفسير أخرى.

وهناك تفسير لطيف حول هذا الموضوع في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وذلك حينما سئل عن تفسير الآية «رَبِّ اغْزِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» قال عليه السلام: «الملك ملكان ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل الله تعالى، كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذي القرنين، فقال سليمان (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) أن يقول إنه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخر الله عز وجل له الريح.. وسخر الله عز وجل له الشياطين.. وعلم منطق الطير، ومكس في الأرض، فعلم الناس في وقته وبعده أن ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكين بالغلبة والجور»<sup>١</sup>

والمراد من هذا الحديث هو أن سليمان عليه السلام لم يطلب حكماً محدوداً، بل حكماً لا محال فيه للقبيل والقال والإتهام بالزور والظلم، وقد مزح الله هذه الحكومة بالمعجرات المعينة لإنياب كونها من عنده تعالى، لا من الناس ولا عن طريق الظلم والعلية<sup>٢</sup>.

**الجواب الثالث:** ما أثير حول مقام عصمة سليمان عليه السلام هو ما جاء في نفس الآيات السابقة حيث يقول تعالى: «إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِثَاتُ الْجِنَانُ • (الحيل الأصلية) - فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي (إِنِّي أَحْبَبْتُ هَذِهِ الْحَيَاةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمِنْ أَجْلِ الْجِهَادِ، بَقِيَ بِنَظَرِهَا ... حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ • زُذُّهَا عَلَى فُسْطَاقٍ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْيَانِ) (يمسح عليها لأنها لا تقي لانتفاة نفقاتها)» (ص / ٣١ - ٣٣)

طبقاً للمعنى المتقدم الذي تبين من هذه الآيات، لا يبدو هناك أي إشكال في عمل سليمان عليه السلام هذا، فهو يعتد بقدرته العسكرية ويستد بالتطلع إلى الجياد المهيأة للجهاد، ويأمر بردها عليه ثانية لاعترازه بها، وهذه التصرفات كلها تبدو بشكل عام معقولة ومطابقة والهيئة.

لكن البعض فسّر هذه الآية بشكل آخر واعتبرها كبداية للإشكال على سليمان، وقال: إن الضمير في كلتا جملتي «توارت» و«زودها» يعود إلى الشمس التي لم ترد في العبارة،

١. تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٥٩، ح ٥٦.

٢. وباءة على هذا التفسير فهناك جملة مقدر في الآية تهدر ها: وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي أن يقول ليس من عند الله

والتي يمكن استنتاجها من التعبير بـ «العشي» بوارده في الآية، وطبعاً لهذا التفسير فقد ذهل سليمان بالنظر إلى هذه الحياد، إلى أن غاب لشمس وتوارب وراء الحجب، فغضب لذلك كثيراً لقوات صلاة العصر عليه، وحينئذ طلب من الملائكة إعادته الشمس ثم توضأ وصلى. وأن جملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْتَاكِ» إشارة إلى وضوئه

كما ذهب البعض إلى أبعد من هذا أيضاً، وقال: إن المراد من هذه الجملة هو: أنه أعطى أمراً بقطع أعناق الحباد وقوائمه، باعتبارها سبب وراء غفلته عن ذكر الله (العدو الذي هو أقبح من الفعل)، والقول: إنه ذبحها وورّع لحومها في سبيل الله يبدو عجيباً أيضاً، لأن جياداً بتلك القيمة والخاصية التي تلت نظرهم إليها حتى يدهل لذلك لا ينبغي مسحها كالآبقار والأعنام، إذ لو أراد إيفاقها لوجب إعطاؤها لآخرين وهي على قيد الحياة، ولا يحق على أحد سقم هذه التفاسير، وذلك لأن:

١- لو كانت هذه الجملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْتَاكِ» إشارة إلى وضوئه، فليس لديه سوى ربه واحدة، والتعبير بـ «الأعتاكي» بصيغة الجمع مما يكون، كما أن لديه ساقش، والتعبير بـ (السوق) بصيغة الجمع يكون لا معنى به أيضاً (وهي قال إن الوصوء كان بالمشح؟ لا معنى له

ولو كانت بمعنى قطع أعناق وفو ثم الجياد، فهو عمل غير منطقي جداً، لا يقدم عليه حتى الفرد العاقل العادي فكيف بنبي عظيم كسليمان عليه السلام، إذ لا دسب لها، بل لو كان هناك ذنب فهو منه حينما انشغل بالنظر إليها

أكثر ما يمكن أن يقال هنا هو أن يهبها لآخرين تبقى بعيدة عنه ولا تشغله بنفسها، ولا داعي للقتل أبداً

٢- لم يرد في هذا الحوار كلام عن «الشمس»، والاستدلال عليها عن طريق «العشي» بعيد جداً، لأن أقرب ما يعود إليه الصمير هنا هو «الخمر» الذي يعني هنا «الجياد» بكل تأكيد، كما لم يرد شيء عن الملائكة أيضاً ليكون من مخاطبي سليمان، فضلاً عن أن هذا التعبير الذي وجهه سليمان إلى الملائكة تشتم منه رتبة صيغة الأمر، ويبدو مستبعداً جداً لعدم لياقته وشأن الملائكة.

٣- لو قبلنا هذا التفسير على سبيل الفرص، لأمكن القول: إن الصلاة التي أداها قضاءً كانت صلاة مندوبة، قد قانت سليمان وأنها كانت قبل غروب الشمس، فكيف يثبت كونها صلاة واجبة؟ وأساساً كيف يثبت كون الحائض هي الصلاة؟ ربما كانت أدكاراً خاصة يؤديها سليمان قبل الغروب، وقال بعض المفسرين أيضاً: إن «تذكر ربي» لو كان يعنى الصلاة الواجبة، وأن سليمان عليه السلام كان قد غفل عنها لانشغاله بالجihad استعداداً للجهاد، فلن يرد عليه إشكال أبداً، لأن نفس عمل سليمان هذا يعدّ عبادة عظيمة قد أعملته عن عبادة أخرى لكن هذا التفسير أيضاً يبدو بعيداً، نظراً لأهمية الخاصّة التي تتمتع بها الصلاة، والصحيح هو ما قيل أولاً

﴿٥٨﴾

#### ٨- يونس عليه السلام

وهناك آية في القرآن الكريم حول هذا النبي العظيم أيضاً، حيث تبين أنه اعترف أمام الله تعالى بالظلم ثم طلب العفو والمغفرة وأن الله استجاب دعاءه وغفر له بعد احتيار طويل، يقول تعالى: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ثم يصف قائلاً: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخِيعْنَا مِنْهُ الْعَمَى وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» (الأنبياء / ٨٧-٨٨)

وهنا يثار هذا السؤال وهو كيف يتناسب وضع يونس في صفوف الطلعة مع منزلة عصمته، ولمن ظلم؟ وما هي نوعية لظلم؟ ثم ن يونس عليه السلام على من عصب؟ ولماذا ظن أن الله لن يضيّق عليه؟ ألا يمكن لهذه الجهات ثلاث مجتمعة أن تكون بمثابة علامة إستفهام على مسألة عصمته؟

ورد نفس هذا المعنى بشكل غامض في القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ • لَوْلَا أَنْ نَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ • فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الْمُهْدِيِّينَ» (القصص / ٤٨-٥٠)

كما إستفاد من هذا التعبير أيضاً أنه كان قد تسرّع في أمره وأشرف على الهلاك لولا أن أسعفه لطفه تعالى.

ونفس هذا المعنى تكرر أيضاً في سورة الصافات، وذلك بعد الإشارة إلى قصة هربه من قومه وركوبه في السفينة، وإلقاء القرعة ثم إلقائه في فم حوت عظيم، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَّوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ • لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات / ١٤٣ - ١٤٤) ما هو الذنب الذي اقترعه ليسجس في بطن الحوت، ويلبث فيه مدة مديدة لولا تسبيحه لله تعالى؟ خلاصة القول إن قصة يونس عليه السلام تأتي جاءت في ثلاث سور من القرآن الكريم (الأنبياء، القلم، الصافات) وبعبارة مختلفة شير استهجمات شتى حول مقام عصمة هذا النبي العظيم وتستدعي جواباً مطلقاً

﴿١﴾

الجواب :

صحيح أن التعابير المختلفة للآيات المذكورة تبين أن ذنباً ما قد صدر من يونس عليه السلام، والتعبير بـ «الظالم» و «العليم» (يأتي أحياناً بمعنى ملامه النفس، أو القيام بعمل يستوجب ملامه الآخرين لعاصيته، لأن لفظة «العليم» قد فسرت بكلاً المعنيين)، وكذلك التعبير بأن يونس عليه السلام: ﴿قُلْ لَّوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ • لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، والتعبير بـ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ﴾ وتعبير ﴿لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾، الذي يأمر سبي الإسلام ﷺ: بأن لا يكون كيوس عليه السلام. وكذلك تعبير ﴿لَوْلَا أَن تَذَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، كل هذه التعابير تبين وقوع شيء مما لا ينبغي وقوعه.

لكن القرائن تشير إلى أن هذا العمل المخالف لم يكر سوى ترك الأولى، لأن الله تعالى وفي نفس هذه الآيات قد تحدث عن يونس كسي مرسل، موصع العناية الإلهية الخاصة، وفي سورة (الأنعام / ٨٦) يعتبره الله تعالى من الأنبياء العظام الذين فضلهم على العالمين، كما يعتبره في عدد الأنبياء عظيمي الشأن كإبراهيم ونوح وإسماعيل وعيسى عليه السلام، وذلك في سورة (النساء / ١٦٣).

أما ما هو ترك الأولى هذا؟ فهناك احتمالات متنوعة، يمكن لكل واحد منها منفرداً

فضلاً عن مجموعها، أن يكون دليلاً على ترك الأوبى فقط، من جعلتها: أنه تسرع في ترك قومه إذا كان الأجدر به أن يصبر أكثر، أو أنه تمقل بالدعاء عليهم، أو أنه كان ينهي عليه انتظار الأمر الإلهي حين حروجه من بين قومه حتى ولو كان قد يئس من هدايتهم على ما يبدو.

ولا يخفى أن أيّاً من هذه الأمور لا يعدّ دليلاً، لكنّه لو لم تكن لكان أفصل، وبإزاء على هذا فقد استحقّ العتاب والملامة، والتعير بـ «الظلم» أو «الابتلاء بالعقاب الإلهي» إنما هو من باب «حَسَنَاتُ الْكَرَامَةِ تَسِيئَاتُ الْمُكْرَبِينَ»، والذي تقدّم الكلام عنه مفصلاً عند البحث عن ترك آدم عليه السلام للأولى، كما يحتمل أيضاً تصوّره بأنّ الله تعالى لم يصيق عليه «فَقَطُّ» أَنْ كُنْ تُقَدِّرْ عَلَيْهِ، أن تصوّره هذا كان بمثابة ترك الأوبى، وذلك لأنّ تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمسوى عالٍ من الإيمان يفرض عليهم العيش دائماً بين الحوف والرجاء لا اعتبار أنفسهم في أمان من العقاب الإلهي، أو القوط من رحمة.

أمّا التعير بـ «مفاضيه» فواضح أنه يعني الغضب على أعمال قومه المدنّين، لا العصب على الله تعالى كما ذهب إليه بعض المتفلقين، لأنّ هذا ليس فقط متنافياً مع مقام الأنبياء، بل لا يتناسب وأدى حدّ من الإيمان أيضاً لأنّ ما يقابل لعصب على الله هو الكفر بالله وعبارة «مفاضيه لربه» الواردة في الرويات أو كلمات بعض أقطاب أهل التفسير إنما تعني «مفاضيه لأجل ربه» أي أنه عصب لأجل الله تعالى نتيجة أعمال قومه.

ومن هنا يتضح سبب مكوّنه في سجع مصمم تتوالى ظلماته الواحدة بعد الأخرى (ظلمة بطن الحوت، ظلمة البحر، وطمعة النبي)؟ وسبب عزمه على التصرّع والإستغفار وطلب العفو، بتلك العبارات الموزونة المتينة «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

الملفت للنظر هو ما جاء في البعض من الروايات، أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال «حينما كان يونس في خلوته في بطن الحوت متوجّهاً بكلّ وجوده إلى العبادة مستجيراً بالله تعالى وحده، اعتبر نفسه من الظالمين لأنّه لم يأت بعبادة خالصة كهذه من قبل، فقال أن

لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين، يتركبي مثل هذه العبادة التي فرغتها لها في بطن الحوت، فقبل الله تعالى منه ذلك، وقال عز وجل ﴿وَلَوْلَا آتَاكَ مَا كَان مِنَ الْمُسْتَحْيِينَ لَلِئْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾<sup>١</sup>

أما فيما يتعلق بتفسير الآيات المتعلقة بـ «يونس» ﷺ وما هو ذلك الحوت الذي تمكن من الاحتفاظ به في بطنه؟ وكيف يمكن للإنسان البقاء حياً مدة طويلة بلا ماء أو طعام أو هواء؟ وكيف يمكن لذلك الإنسان ألا يذوب ويهضم في المعدة الواسعة للحيوان؟ وسئلة أخرى من هذا القبيل. فالكلام عنها خارج عن موضوع بحث العصمة، ومن أراد الوقوف على أجوبة هذه الأسئلة يمكنه الرجوع إلى «لتفسير الأمل»، الأجزاء ١٣ و ١٩ و ٢٤ في تفسير الآيات التي تحدثت عن يونس ﷺ.

## ٩- نبي الإسلام ﷺ

هناك آيات قرآنية مختلفة تشير إلى تساؤلات حول مسألة عصمة نبي الإسلام ﷺ، فيما يلي أهمها

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا \* لِيَخْرِجَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

بما أن كلمة «الذنب» تعني المعصية، إذن فكيف يسجّم هذا المعنى مع العصمة

والمثلة الرفيعة لهذا النبي العظيم؟

للمفسرين أبحاث كثيرة وآراء متنوعة في معرض إجاباتهم عن هذا السؤال، من حملتها:

إن المراد هو ترك الأولى ليس بـ لا، والذي لا يتنافى أبداً مع مقام العصمة، إذ إن الإنسان

حينما يوجّه المهم على الأهم والحسن على لأحسن يقال له، لقد «ترك الأولى». (تأمل

جيد)، إذ إنّه وفصلاً عن عدم ارتكابه لذنّب مقدّ أدنى مستحبّاً أيضاً، غاية ما في الأمر أنّه كان

هناك مستحبّاً أقوى ممّا أدّاه، وإطلاق الذنب والمعصية على مثل هذا العمل إنّما هو لصلو

مقامه إذ كما قلنا: «حسنت الأبرار سيئات المقربين».

الأحر هو أن المراد بالذنب هو معصية الأمة (وبناءً على هذا ففي الآية شيء مقدر وهو كلمة «الأمة»)، أي (من ذنب أمتك )

وقول ثالث يشير إلى أن المراد به الذنوب التي ارتكبت في حق النبي الأكرم ﷺ، (إذ إن للذنب معنى مصدريةً يضاف أحياناً إلى الفاعل وأخرى إلى المفعول)، ومن المسلم أن الأعداء لم يتمكنوا من تكرار ارتكاب نفس تلك المظالم والذنوب، التي ارتكبوها في حق النبي الأكرم ﷺ قبل فتح مكة.

لكن ما عدا التفاسير الثلاثة المتقدمة وتفسير أخرى أهملناها لعدم أهميتها، فلدينا تفسير أنسب وأكثر انسجاماً مع مضمون ومحتوى الآيات المذكورة والقرائن الموحودة فيها، وذلك من جهات شتى. كما ويتلاءم مع روایات المعصومين عليهم السلام أيضاً

توضيح ذلك، لمرضى فهم معنى الآية يجب التمسك على التعابير السابقة واللاحقة لها، بالإصافه إلى التعابير التي تنصتها الآيات نفسها، إلا أنه التصريح في هذه الآية بوجود علاقة بين «الفتح» المذكور وعمران هذه الذنوب، يقول تعالى إن الهدف من هذا «الفتح المبين» (صلح الحديبية أو فتح مكة على حد قول البعض) هو أن يغفر الله ذنوبك السابقة واللاحقة.

علاوة على هذا، فعمران الذنوب السابقة معلوم، أما الذنوب التي لم ترتكب بعد فكيف تشملها المغفرة الإلهية، ألا يفهم من هذا الكلام إعطاء الصوء الأخضر بجوار ارتكاب أي ذنب في المستقبل؟ فهل هذا الأمر منطقي ومعمول؟!

من خلال التدقيق في هاتين الملاحظتين يمكننا إدراك المفهوم الواقعي للآية، وهو أن من الطبيعي عند حدوث ثورة إلهية فسوف يتعرض ذوو المصالح اللامشروعة للخطر بسببها، ومنهم المؤيدون للعادات الحرامية، والمنعصبون بلا دليل، والمتحجرون الجامدون الذين يجدون عقائدهم الخاطئة مهددة بالخطر ولزوال، فسوف يقفون في وجه تلك الثورة بكل قوة، ونراهم ينسبون إليها كل ما هو مشين، يعرض جهازها وإخمادها، فيصطنعون



ضدّها الأكاذيب، ويلصقون بها التّهم، وينسبون لقائدها شتى الرذائل، من جعلتها أنّه قد أحدث الفرقة وشقّ وحدة الصفّ، وأهان المقدّسات، ولا يرمي سوى الوصول إلى السلطة والحكومة واستعداد الناس ونيل المنفعة والثروة، وأنّه آلة بيد الآخرين ومفسد لأهداف الأحناب! فلو لم يحالف النجاح هذه الثورة، فإنّ هذه التّهم تتعاظم شيئاً فشيئاً بدل إحسارها وتوقفها، وبديهي أنّ فشلها يعدّ بمشبة الدليل على صدق هذه الإدّعاءات.

لكن حينما انتصرت الثورة بلطف الرعاية الإلهيّة، وتمّ الفصاء على العادات الخرافيّة، وتلاشت المصالح الشخصية اللامشروعة، وتصحّت حقّاية دعوة ذلك القائد السماوي، فسرعان ما تبدّدت كلّ تلك الإساءات التي نُسبت إليه والإتهامات الباطلة سواء المتعلّقة منها بالماضي أو التي كان من المقرّر طرحها في المستقبل، وحلّ الندم والاسف محلّ التّهجمات والإتهامات الرائفة، وحسّن حسني المسافقون الديس أعمى الله أبصارهم، والمتعصّبون الذين يعاندون ولا يؤمنون، لأنّهم أبقوا بالفشل أمام هذه الحقيقة

ولذا يقول تعالى للنبي ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۖ لِيُخْرِجَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (أي ممّا كانوا يعدّونه ذنباً وممّا سيرمونك من تهمة الذنب)<sup>١</sup>

ومن هنا يتّضح السبب وراء نسبة هذا لعمران إلى الله، باعتباره هو الذي هيأ مقدّمات هذا انعمران، والتي هي عبارة عن نصّ دينك «الفتح لمبين».

والملفت هنا هو أنّما بعد هذا المطلب متحمّداً بكلّ وصوح في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في كتاب «عيون أخبار الرضا»، حيث قال عند ردّه على سؤال المأمون عن كيفية تناسب هذه الآية مع درجة عصمة الأنبياء ولم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله، ثمّ يصيغ موضحاً ذلك قائلاً: «حيث إنّهم كانوا يعبدون ثلاثمائة وستون صنماً، فعينما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد شقّ عليهم ذلك كثيراً وقالوا باستغراب، هل تستبدل كلّ آلهتنا بإله واحد؟ يا للعجب! كما أضاف قائلاً: (فلما فتح الله

١ «مفر» و «عمران» و «معرفة» تعني في الأصل ستر لشيء وتغطيته على حدّ قول صاحب مقاييس اللغة، ومن هنا أطلق على عمران الذنوب أيضاً

تعالى على نبيه مكة قال له يا محمد إنا فتحنا لك ميماً ليفسر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي أهل مكة، بدعائك توحيد الله فيها تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم).

وحيثما سمع المؤمنون هذا التفسير قال الله تترك يا أيها المحسن<sup>١</sup>

كما ورد نفس هذا المعنى بعبارات أخرى في حديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، رواه السيد ابن طاووس في كتاب «سعد السعود»، وهو أن قريشاً وأهل مكة قد نسبوا الكثير من الذنوب إلى نبي الإسلام ﷺ قبل الهجرة وبعدها، وحيثما تم فتح مكة وتعامل النبي الأكرم ﷺ بنلك الرأفة مع أعدائه المعادين، عصوا الطرف عن كل تلك الذنوب التي كانوا قد نسبوها إليه<sup>٢</sup>.

وأخيراً يقول القرآن ﴿وَيُنِمْ بِغَمْتِهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

واضح أن بعمة الله قد اكتملت ليس فقط بالنسبة للنبي، بل لكل المجتمعات الإسلامية عن طريق هذا الفتح العظيم، فلقد خسر أعداء الإسلام وإلى الأبد، بينما مهد الطريق لمسير النبي الأكرم ﷺ، وكافة المسلمين لتقدم أكبر

❦❦❦

به، نقرأ في آية أخرى أن الله يحاطب النبي الأكرم ﷺ قائلاً ﴿عَلَى اللَّهِ عُنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَقُّ يَتَّبِعُونَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

أو ليس التعبير بـ «الغفوة» من جهة و«العتاب والعلامة»، والاستغفار عن سبب ترخيصه لهم من جهة أخرى، دليلاً على أن سماح النبي لبعض المنافقين بعدم الإشتراك في القتال كان عملاً مخالفاً؟ هل تتلاءم هذه الآية مع درجة عصمة هذا النبي العظيم؟

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٦، ح ١٨

٢. المصدر السابق، ح ١٧ بتلخيص واقتباس.

اللطيف هو أن الله أشار في هذه الآية إلى معنى أولاً ثم يأتي العتاب، لكن البعض من المغفلين تناول هذا الموضوع بشكل مسيء حتى اعتبر الآية دليلاً على صدور الذنوب من النبي الأكرم ﷺ، دون الالتفات إلى لطف هذا البيان الإلهي الذي أشرنا إليه من جملتهم «الرمحشري» في «الكشاف» حيث قال في تفسير هذه الآية: «جعل الله عفاً الله عنك كناية عن الحناية لأن العفو مرادف لها ومعناه «خطأت وبشس ما فعلت»<sup>١</sup>

لكنه لو تأمل أكثر في محتوى الآية وصدورها وذيونها، والتعابير الواردة فيها لأدرك أن كلمة العفو والعتاب إنما هي في الحقيقة لبيان سوء معاملة المنافقين للنبي ﷺ، وتوجيه الكلام إليه ﷺ إنما هو نوع من التعبير الكماي لطيف لبيان واقعة خطيرة.

وتوضيح ذلك: يحاطب الإنسان أحياناً أحد أصدقائه ويعاتبه لأنه لم يدع الشخص القلبي يقتصر وتبين حقيقة للناس في حين أن هذا العتاب والخطاب يعد مقدمة لانتقاد شخص ثالث في حقيقة الأمر.

ويمكن توضيح هذا الموضوع بطريق مثال بسيط لو فرضنا أن أحداً أراد أن يسوّد صفة إلى ابنك البريء، فمنعه أحد أصدقائك، فمع أنك قد كنز ع من تصرف صديقك بطبيعة الحال، لكن أحياناً ولعرض إثبات سوء سريرة ذلك الشخص، تلتفت إلى صديقك وتقول له معاذاً! لماذا لم تدعه يصفع ابني حتى يتعرف ساس على قساوة قلبه، هذا الخطاب الذي هو على صيغة العتاب واللامنة، هو في الواقع كناية بليغة عن قساوة ذلك الطالم.

جاء في بعض التعابير الواردة عن الإمام عبي بن موسى الرضا ﷺ في تفسير هذه الآية: «هذا مما نزل «إياك اضنى واسمعى يا جارة» خاطب الله تعالى بذلك نبيه، وأراد به امتته<sup>٢</sup>.

يحتمل أن يكون هذا الكلام إشارة إلى بعض ذلك المطلب المتقدم أعلاه، والدليل على هذا الأمر هو الصلاحية التي أعطيت للنبي ﷺ في الآيات القرآنية الأخرى، وذلك بالسماح لمن شاء من المؤمنين بالتعرض لمتاعلهم «شخصية، وعدم الإشتراك في بعض

١. تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٢٧٤

٢. تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٣٠، ح ١.

الأعمال الهامة، فيما لو طلبوا ذلك وكان فيه صلاح ﴿وَإِذَا امْتَأَذْتُمْ لَكُمْ لِنَفْسٍ شَأْنِهِمْ قَدْ أَذِنَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾. (النور / ٦٢)

وساء على هذا فلا مانع من سماح النبي ﷺ لبعض المناققين بعدم الإشتراك في المعركة، خصوصاً وأن إشتراكهم لن يحل للمسلمين أية مشكلة، هذا إن لم يخلق لهم مزيداً من المتاعب.

من مجموع هذه الإعتبارات يمكن إدراك أن التفسير الأخير يناسب الآية المتقدمة، إذ لا وجود لما يخلش مقام العصمة فيها

❦❦❦❦

مع الآية الأخرى التي نزلت في مسألة رويح نبي الإسلام ﷺ من مطلقة إيه بالتسي (زيد)، أثار استعظاماً لدى البعض أيضاً. هذه الآية تقول بصراحته كلما حدثت خلاف بين زيد وزوجته، كان النبي يبحث ريداً على عدم طلاقها، ويكرر عليه ذلك، ولكن حينما لم تؤثر هذه النوصيات، وطلق ريد زوجته تزوجها النبي الأكرم ﷺ، لمعظم سبب العادة العاهلية البعيصة التي كانت تعتبر روجه (الابن بالتسي) حراماً على الإنسان، كروحة الابن الحقيقي، هذا من جهة. ولعبد من جهة أخرى إلى (ريب) حميتها واعتبارها، لأنها حفيدة عبدالمطلب وابنة عمة النبي الأكرم ﷺ ومن أسرة معروفة، وكانت قد تزوجت ريداً العبد المعتقد امتثالاً لأمر النبي الأكرم ﷺ بذلك، ومن المسلم أن زواجاً كهذا كان صعباً عليها وكان هذا الفراق أصعب. (تأمل جيداً).

وهما يقول القرآن: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. (الأحزاب / ٣٧)

وهنا فُسِّحَ المجال لبعض المعطلين وأحياناً لمعرضين لنسج مجموعة من الأساطير الكاذبة، وفرصها على القرآن ونسبتها إلى نبي الإسلام ﷺ<sup>١</sup> المهمة لديها وما ينبغي توضيحه حملتان وردت في الآية السابقة، وإلا فالأساطير الخرافية التي لا أثر لها في القرآن، ليست شيئاً يستحق التحقيق فيه والرد عليه.

جاء في إحدى الجمل: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ».

كما نقرأ في الجملة الثانية «وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَاهُ»

ألا تتأففى هاتان الجملتان مع مقام عصمة نبي الأكرم ﷺ؟

مفهوم الجملة الأولى يبدو مبهماً، لكن الذين يحوكون الأساطير ربطوا بها مطالب كثيرة، وقدّموها كلفمة سائغة لأعداء الإسلام حتى يتهموا النبي الأكرم ﷺ (والعياذ بالله) بعشقه لزوجة زيد.

في حين أن نفس الآية تكذب هذا الإدعاء، إذ تقول: إِنَّكَ أَوْصَيْتَ زَيْدًا مَرَارًا بِعَدَمِ طَلَاقِ رَوْجَتِهِ (لا يفونك أن جملة «إذ تقول» هي بصفة المضارع الدال على الاستمرار)، ولو كانت المسألة كما توهمها الأعداء لوافق النبي الأكرم ﷺ على الطلاق بكل رحابة صدر، أو لاختار السكوت على أقل تقدير، فكيف يعترف أن بهاء عن ذلك والحالة هذه

أما فيما يتعلق بالجملة الثانية فقد قالوا بأي دليل يحاف النبي الأكرم ﷺ من الناس، والله أحق أن يحافه ويخشاه؟

بالرغم من الإحتمالات الكثيرة التي اعطيت لتفسير هذه الآية، خصوصاً هاتين الجملتين، حتى أن بعض المفسرين المعروفين تورط في الإشتباه، فمجرد إمعان النظر في متن نفس الآية (خصوصاً الحمل السابقة ولاحقة بهاتين الجملتين) يدرك المرء وضوح وجلالة مفهوم الآية، أما لو لوحظت بوحدها مجردة عما يحيط بها فما أكثر الإبهامات التي ستحفّ بها.

١. لمن أراد مريداً من الإطلاع على هذه القصص الموضوعة وتقدم، الرجوع إلى التفسير الأمثل، دليل الآية مورد البحث.

لو أخذنا الآية جملة جملة، وفسرناها بكان معها كما يلي أنعم الله بالإيمان على «زيد» ابن النبي الأكرم ﷺ بالنبي (الذي كان سابقاً عبداً للنبي ﷺ ثم أعنته، وتبناه لدكانه ودرايته)، كما أنعم عليه النبي الأكرم ﷺ إذ أعنته واعتبره كولد، وزوجه ابنة عمته التي كانت لها شخصية مرموقة في المجتمع، هذا هو مفهوم جملة «أنعم الله عليه وأنعمت عليه»

كما يستفاد من الجملة الثانية وهو ع سوء التفاهم بين زيد وروجته حتى جال في دمه طلاقها، وأن النبي الأكرم ﷺ كان يحثه على عدم الطلاق، ويدعوه للورع والتقوى. «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

كان النبي الأكرم ﷺ هنا أمام محدودين، فهو من جهة يفكر في أنه لو انتهى الأمر بالطلاق لوجب عليه أن يترجها، لينهي كدم الناس دسئ الذي سيلحق بابنة عمته ريب، باعتبار أن المبد المعتقد أيضاً لم يرض بها طلقها، ومن جهة أخرى كان يخشى الناس خصوصاً المنافقين، الذين كانوا يربصون به الدوائر والدرايع ليمروه بهذا الأمر من جهتين الأولى: تعاورة لاحدى عادات عرب الجاهلية المشأصلة، والتي كانت تعتبر راحة الإبن بالنسبة كزوجة الإبن الحقيقي وأن الزوج منها هو كالزواج من تلك الثاني: اعتمادهم بأن الزواج من مطلقة نعد المعص هو دون شأن النبي الأكرم ﷺ، وأنه انتقاص من مكانه

لكن شاء الله أن يتحقق هذا الزواج بعد ذلك الفراق؟ وأن تتحطم تلك العادة السيئة، كما جاء في ذيل الآية «لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا».

وبناء على هذا، فالذي كان النبي الأكرم ﷺ يحميه في قلبه، وأعلنه الله في حاتمة المطاف هو الزواج من زوجة زيد في حالة إصراره على طلاقها، والذي كان يخشاه النبي الأكرم ﷺ هو رد الفعل نتيجة لقصاته على إحدى عادات الجاهلية، كذلك زواجه من امرأة دون شأنه ﷺ، واستمر خوفه ما دام الأمر الإلهي القطعي

لم يصدر بحقه، لكن بعد صدوره بل روم زواجه منها وتحطيمه لكلا العادتين الخاطئتين، بل حتى أن صيغة عقد زواجه أجراها الله تعالى كما في من الآية ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، لم يبق هناك بعد ذلك أي مجال لحوقه وتردده بالنسبة لهذه المسألة.

اللطيف هو التأكيد على هذه المسألة في الآية التي بعدها أيضاً قال تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

هذه الآية تشير بصراحة إلى أن ما قام به نبي الأكرم ﷺ ها، كان فريضة إلهية وسنة كانت هي الأولين أيضاً، وأمرأ إلهياً مقدراً يسعي وقوعه

بدوي أن هذه المسألة لو كانت تابعة عن رعية شخصية، لما كان لهذه التعابير التارلة بشأنها أي معنى بذكر. لكن لا الأعداء، سخر صود يصعون لمثل هذه الحقائق، ولا المعص من رواة المعصص المنقلب الذين يرجعون الأساطير المفتعلة الصاحبة هي مثل هذه الحوادث على الحقائق.

لكن ولحسن الحظ فإن تعابير القرآن هنا كافية وواضحة جداً، والملفت للطر هو ما نقرأه في حديث نقله «القرطبي» المفسر المعروف من أهل السنة عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنَّ زَيْدًا يَطْلُقُ زَيْنَبَ، وَيَتَزَوَّجُهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا اشْتَكَى زَيْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُلِقَ زَيْنَبُ، وَأَنَّهَا لَا تَطِيعُهُ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ يَرِيدُ طَلَاقَهَا، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَهَةِ الْأَدَبِ وَالْوَحْيَةِ: (أَتَيْتُ اللَّهَ فِي قَوْلِكَ وَأَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفَارِقُهَا وَيَتَزَوَّجُهَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالطَّلَاقِ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَخَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُلْحَقَهُ قَوْلُ مِنَ النَّاسِ فِي أَنَّ يَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بَعْدَ زَيْدٍ، وَهُوَ مَوْلَاهُ، وَقَدْ أَمَرَهُ بِطَلَاقِهَا، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَنْ يَخْشَى النَّاسَ لَشَيْءٍ قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ، بَأَنْ قَالَ (أَمْسَكَ) مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ يَطْلُقُ، وَاعْلَمَهُ أَنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْخَشْيَةِ أَيْ فِي كُلِّ حَالٍ».

ثم يضيف (القرطبي) قائلاً «قال علماؤنا رحمة الله عليهم وهذا القول أحسن ما قيل في

تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين».

ثم يتابع كلامه هذا قائلاً: «يقول الرمدي في نوادر الوصول (وصمن الإشارة إلى هذا الحديث) بأن علي بن الحسين قد جاء بهد من حرره العلم جوهرًا من الجواهر ودرًا ثمينًا من الدرر...»<sup>١</sup>.

و الآية الأخرى التي تثير الاستفهام حول نبي الأكرم ﷺ هي قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بِهِدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (الأنعام / ٦٨)

السؤال هو، لو تمكن الشيطان من النفوذ إلى روح النبي الطاهرة وأنساه الحكم الإلهي بعدم مجالسة أهل الباطل، فكيف يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ؟ وبمساعدة أخرى أنه يفتقد أحد فرعي «العصمة» وهو الصون من السهو والخطأ والسهو، ألا يحدث الآية أعلاه في عصمة الرسول ﷺ؟

﴿٥٠٠٨﴾

#### الجواب:

التأمل في الآية التي تليها يبين بكل وضوح أن الحديث وإن كان حسب الظاهر موجهاً إلى النبي الأكرم ﷺ، لكن المراد في الواقع هو أصحابه، وأنهم لو ابتلوا بالسهو وشاركوا في المجالس الملوثة بالذنوب، واستهزأوا الكُفَر بمقدساتهم فوجب عليهم ترك ومغادرة ذلك المكان فوراً، وذلك لكي يلتفتوا إلى أنفسهم وهذا في الحقيقة من قبيل المثل العربي المعروف: «إِيَالَكَ أَغْنَى وَاسْتَعْمَى بِجَارَةٍ».

إذ أننا نقرأ في الآية التي تليها: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (الأنعام / ٦٩)

١ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٢٧٢، ديل الآيات مورد البحث



وكما نلاحظ فالكلام في هذه الآية يخص «مَنَاقِبَ» والمقصود منه عامة المسلمين لا شخص النبي الأكرم ﷺ، وهذه الآية تكمل بحث الآية السابقة عليها.  
 نظير هذه الأبحاث يشاهد في الكثير من معارف اليومية أيضاً وهي آداب مختلف اللغات، والتي توجه الكلام إلى شخص معين وتقصّد شخصاً غيره.

من جملتها ما مشاهده في القرآن الكريم وذلك عند النوصية في حقّ الأبوين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا فُصُولًا لِّمَا يُكَرِّمُ﴾ (الاسراء / ٢٣)

واضح أنّ الضمير في «رَبُّكَ» يعود إلى النبي الأكرم ﷺ، في حين أنّ خطاب «الْوَالِدَيْنِ» موجه إلى كافة المؤمنين (لوروده بصيغة الجمع)، ثمّ أنّه في جملة «إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ»، وإلى آخر الآية، فالصائر كلها مفردة والمخاطب فيها هو النبي الأكرم ﷺ مع علمنا بأنّه ﷺ كان قد فقد أبويه لسنين طويلة قبل النبوة، وبإزاء على هذا فمثل هذه الأوامر حول احترام الأبوين التي تعاطف النبي الأكرم ﷺ إياها هي من قبيل المتقدم: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

وما ذهب إليه جمع من معسري أهل السنة، من عدم المانع من كون النبي الأكرم ﷺ هو المخاطب في الآية مورد البحث، وجوار مثل هذا التفسير في حقه، لا يبدو صحيحاً، حيث إنّ مورد آية التسيان هو أحكام الله تعالى، وهو يصحّح أن ينسب النبي الأكرم ﷺ الأحكام الإلهية، وأي اعتماد واطمئنان بعد ذلك في كلامه عن لَوْحِي الذي هو أساس دعوته والحالة هذه!

البحر من آيات سورة «الصّحى» هي من جملة الآيات التي ندعوها، نحن الذين نعتقد بلروم عصمة النبي الأكرم ﷺ منذ ولادته، للإستفسار، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى / ٦-٨)

للمفسرين آراء مختلفة حول تفسير هذه الآية وبيان محتواها. فالقليل منهم فسر الآية بمعنى الكفر والضلال، بل حتّى أنّ بعض المفسرين العاقلين الذين يجهلون أدلّة العصمة

قالوا: إن نبي الإسلام ﷺ كان على دين قومه (الوثنية) أربعين سنة إلى أن هداه الله. لكن كل مفسري «الشيعية» وجمهور مفسري «السنة» (كما اعترف بذلك المفسر الرازي) لم يقبلوا مثل هذا التفسير، بل متفقون بالجمعة على أن نبي الإسلام ﷺ لم يكفر طوال عمره، ولو لحظة واحدة ولم يشرك أبداً.

ولهؤلاء المفسرين آراء عديدة حول تفسير الآية وقد بلغ عددها عشرين تفسيراً، جمعها المفسر الرازي في ذيل الآية مورد البحث، ومن التفاسير التي تلفت النظر وتتسق مع مضمون الآية وسائر آيات القرآن هي التفسير التالية

١- مع الإلتفات إلى الآيتين السابقتين واللاحقة لها واللتين تشيران إلى فترة طفولته ﷺ وشبابه، أي الإشارة إلى أنك أيها النبي الأكرم ﷺ قد تعرضت للصياح في تلك الفترة (مراراً) وتعرضت حياتك للخطر (تارة حينما جاءت بك أمك من مريم صمك «حليمة السعدية» وذلك بعد انقضاء فترة رجائك إلى مكة لتسلمك إلى عبدالمطلب فصعب في الوادي. وتارة أخرى بين أودية مكة حين كنت في كماله عبدالمطلب، وثالثة حينما كنت متحماً مع عمك أبي طالب في قافلة إلى الشام، إذ ضللت الطريق في ليلة حالكة الظلام، وانقطع عنك رفاق طريقك)، فهداك الله في كل هذه العوارض وأعادك إلى أحضان جدك أو عمك الحنوين.

الدليل على هذا التفسير هو إشارة الآية التي سبقها إلى مسألة يتم النبي الأكرم ﷺ. واللاحقة لها المشيرة إلى فقره المادي، «الضلالة» و«الهداية» اللتين توسطتا هاتين الآيتين، هما تلك الهداية والصلالة المادية والجسمية، وإلا فنبت الهداية المعنوية بين هذين الأمرين الماديين لا يبدو مناسباً كثيراً (تأمل جيداً).

٢- المراد من الضلالة والهداية هو الإطلاع وعدمه، على الأسرار النبوية وقوانين الإسلام ومعارف القرآن، أي أنك لم تكن مصنعاً أبداً على هذه الأمور، بل قذف الله هذا النور في قلبك لتهدي به الناس.

الدليل على هذا الإدعاء هو آيات أخرى من القرآن، من جملتها الآية التي تقول: ﴿وما

كُنْتُ تُذَرِّي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْتَهُ نُورًا تُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

(الشورى / ٥٢)

بدلني أن النبي الأكرم ﷺ وقبل بدوغي لمقام النبوة والرسالة كان يفتقر إلى هذا الفيض الإلهي، أي مقام الرسالة والمعارف القرآنية رغم كونه موحدًا، فأخذ الله بيده وهداه وبلغ به هذا المقام.

التعبير «تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» في هذه الآية يبين أن المراد من الهداية هنا هو بعس الهداية إلى الإسلام.

ونقرأ في ثالث آية من سورة يوسف أيضاً

«وَعَزَّزْنَا نَاقُصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَافِلِينَ»

مع أن هذا التفسير قد أعطى الهداية والضلالة مفهومهما المعنوي الذي يتفاوت وكما قلنا مع الآية السابقة واللاحقة عليهما، لكنه بعد فريضة لما ذكرنا مع الأحد بظن الاعتناء بأن القرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، التفتاً إلى الآيات الأخرى من القرآن.

٣- المراد من «الصَّالِّ» هنا هو «الصَّيَّاح» بين قومه وأهله من الناحية الشخصية» وذلك كما نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا» أي ضالًّا في قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك»<sup>١</sup>

و تفسير هذا المعنى جاء بتعبير آخر في تفسير نور الثقلين عن عيون أخبار الرضا عليه السلام<sup>٢</sup> إطلاق لفظة «الصَّالِّ» و «الضَّالَّة» على هذا المعنى شيء طبيعي، كما جاء في الحديث: «الحكمة ضالة المؤمن»<sup>٣</sup>.

إذن فهناك تفاسير مقبولة عديدة لهذه الآية لا تتنافى ومقام العصمة

١- تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

٢- تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٩٦.

٣- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٨٠.

## ١٠ - الأنبياء السابقون بشكل عام

هناك تعبير في القرآن الكريم حول عصمة الأنبياء يشير الاستفهام حول مسألة العصمة، وذلك حينما يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(الحج/٥٢)

وهنا ربما يطرح هذا السؤال، وهو أنه كيف يكون الأنبياء معصومين في حين أن قلوبهم - طبقاً للآية أعلاه - معرضة للإغواء الشيطاني؟!

❦❦❦❦❦

## لستورنا الآيات الشيطانية والغرائبية:

ذكرنا حول هذا الموضوع قصة عرقت بـ «قصّة الغرائب»، هذه القصّة تقول إن النبي الأكرم ﷺ كان مشغولاً بقراءة سورة «النجم» أمّاح المشركين، فوصل إلى هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وفي هذه الأثناء أجرى الشيطان على لسانه هاتين الحملتين: «تِلْكَ الْغَرَائِبُ الْعُزَّىٰ وَأَنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجِي» فابتهج المشركون لسماعهم هاتين الحملتين، وقالوا: لم يذكر «محمد» لهما بهر إلى الآن أبدأ، فسجد النبي وسجدوا معه أيضاً في تلك الحال، بعد ذلك تعرّف مشركو هريش هريش، فلم يمض وقت حتى نزل جبرائيل وأحبر النبي قائلاً: «يٰٓأَيُّهَا لَمْ تَكْ بِهَاتَيْنِ الْحَمَلَتَيْنِ أبدأ، إنّه من القاء الشيطان! ونزل بالآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ كما حذر النبي والمؤمنين أيضاً من هذا الشيء».

مع هذا الحديث تكون عصمة الأنبياء حتى في تنقي الوحي، معرضة للخطر والإعتماد عليها غير ثابت.

١ «الغرائب» جمع «غريب» نوع من الطيور المائية البيضاء أو السوداء اللون كما جاءت بمعاني أخرى أيضاً (نقلاً عن قاموس اللغة)

٢ ذكر معظم المفسرون هذا الحديث بتفاوت ضئيل وانتقدوه.

## الجواب :

في البداية يجب فصل نص الآية عن الروايات لموضوعة التي حيكت حولها ولتنظر إلى ما تقول، ثم نتعرض لقد وتحقيق الروايات.

من المحقق أن هذه الآية وبقطع لظن عن لهوامش لمصطمة، لا تحدث عصمة الأنبياء فحسب، بل تعد من الأدلة على عصمتهم أيضاً، إذ يقول، حينما يتمنى الأنبياء أمنية صالحة («لأمنية» تطلق على كل أنواع الأمل والرجاء، لكنها هنا تعني البعد الإيجابي البتاء لتحقيق أهداف الأشياء، لأنها لو لم تكن ذات بعد إيجابي لما ألقى فيها الشيطان إلقاءاته)، كان الشيطان ينقض عليهم ويلقي إلقاءاته لكن الله كان يبطلها على الفور، ويحكم آياته قبل أن نترك تلك الوسوس أثرها السيء على ردة الأنبياء وتصرفاتهم

(لا يحصى أن «إلقاء» هي (فيسع الله) إشارة إلى لرتيب المتصل، أي أن الله كان يسع ويزيل إلقاءات الشيطان مباشرة)، ليل على هذا الكلام هو آيات القرآن الأخرى التي تقول بصراحة «وَلَوْلَا أَنْ تَهْتَكَ تَعَدَّ كَذَتْ تَزَكَّى إِلَهُمْ شَيْئاً قَلِيلاً» (الإسراء / ٧٤) بطراً إلى أن الآية (٧٢) «وَإِنْ كَادُوا لَيُفْتِنُوكَ مِنَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِنُفَرِّقَ بَيْنَ غَيْرِهِ وَإِذَا لَا تَحْذُوكَ حَلِيلًا» من نفس سورة الإسراء والتي سبقت هذه الآية، بيّن أن الكفار والمشرّكين كانوا يسعون بوساوسهم إلى حرف النبي الأكرم ﷺ عن الوحي السماوي، فيتضح أن الله تعالى لم يدع لهم المجال أبداً بعدحو بوساوسهم تلك (تأمل جيداً).

كما نقرأ أيضاً «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَكَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ» (النساء / ١١٣)

هذه كلها تبيّن أن الله قد حفظ نبي لإسلام من كل أنواع الإحراف ولم يفسح المجال أبداً بمسه وفضله من نفوذ وساوس شياطين الإيس والحق إليه.

هذا كله فيما لو حملنا «لأمنية» على «باعدة» أو «خطئة» أو «الشروع» (لأن جذور هذه الكلمة الأصلية تعود إلى «التقدير والتصور ونقص».

لكن لو حملنا «لأمنية» على التلاوة، كحتمله معظم المفسرين، بل وحتى استشهدوا

ببعض أشعار «حسن بن ثابت» لإثبات هذا المدعى<sup>١</sup>

كما أن الصهر الرازي قال في تفسيره: «الحاصل من هذا البحث أن الأمانة إما القراءة وإما الخاطر»<sup>٢</sup>.

ففي هذه الصورة سيكون مفهوم لاية هو: «الأنبياء الإلهيين، عندما كانوا يقرأون آيات الله ومواعظه أمام الكفار والمشركين كان الشياطين ينقون وساوسهم وسمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس، بالصسط كما طبقوا هذا الشيء في حق نبي الإسلام ﷺ أيضاً، أي كما نقرأ في قوله تعالى: «وَقَدْ لَدِينْ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ» (فصلت / ٢٦)

طبقاً لهذا المعنى يتضح مفهوم الآية التي بعدها أيضاً والتي تقول: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» (الحج / ٥٣)

كما أن من المتعارف اليوم أيضاً أنه حينما يشرح مصلحو المجتمعات البشرية، بإلقاء خطبهم السأء وسط جمهور من الناس يسعى المنحرفون الذين في قلوبهم مرض، إلى معو اثار تلك الخطب بالقليل والقال والشذوات الفارغة والتعابير الشيطانية النافهة

وهذا في الحقيقة اختيار لأفراد المجتمع، وهذا يحرف المرضى القاسية قلوبهم عن طريق الحق، في حين يزداد إيمان المؤمنين شيئاً فشيئاً بحقانية الأنبياء، والنصك بدعوتهم «وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ»

لكن تفسير الآية طبقاً للمعنى الأخير لا يحلو من إشكال، لأن الإلقاءات الشيطانية في نفوس الأنبياء ﷺ مهما كانت تنسخ وتزال بالإمدادات الإلهية على الفور، لكنها لا يمكنها

١ الشعر هو هذا:

تمنى كتاب الله أول ليلة

وأخراها لأقوى حمام المقادر

جاء تمنى الكتاب بمعنى تلاوة الكتاب في «تاج العروس» قدموس وكذلك في متن «القاموس»، ثم ينقل الزهري أن «الامية» تطلق على التلاوة لكن القاري، كلما انتهى آية رحمة تسأء، وكلما وصل إلى آية منها ذكر بلعداب تمنى النجاة منه لكن صاحب «مقاييس اللغة» يعتقد أن طلاق هذه اللفظة على التلاوة إنما هو لأجل وجود روح من القياس ووضع كل آية في مكانها

٢ تفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٥٦.

أن تكون أساساً لاحتبار الصنفين والدين في قلوبهم مرض لبداهة عدم تحقق وجود خارجي لهذه الوسوس، إنما هي القاء بعبارة في نفوس الأنبياء.

إلا أن يقال بأن المراد هو أنه حينما يريد لآنياء لإلهيون تجسيد (امبياتهم وخططهم) وتنفيذها في الخارج، يشرع لشياطين بتعطيمها وإلقاء السموم والوسوس عليها، وهنا تتجسد ساحة الإحتبار الساحة، وطبقاً لهذا بيان ما لا تسجى والإرتباط بين الآيات الثلاث (الحج / ٥٢ و ٥٣ و ٥٤) محفوظ وقائم.

العيب أن بعض المفسرين ذكرو للآية لأولى احتمالات وتفسير مغلطة دون الحفاظ على انسجامها مع الآيتين اللتين تليانها (تأمل جيد)

على أية حال نستنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ما يمي مسألة عصمة الأنبياء من الخطأ والانحراف في الآية مورد البحث، بل هي على العكس من ذلك تؤكد على هذه المسألة لأنها تقول إن الله يحفظ أنبياءه من إلقاء الشيطان حين تلقي الوحي أو انصعهم على إنجاز أعمال أخرى

والآن يجب أن نلتفت إلى الروايات والأساطير التي ذكرت في هذا القسم، والتي دعت بالعص من شياطين الإيس في الأونة الأخيرة إلى تأييد كتاب «الآيات الشيطانية»، أملاً في إيجاد الفتنة وإلقاء السموم والشبهات حول سيرة النبي الأكرم ﷺ، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والأساطير؟

### نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرانيق:

كما تقدم القول إن الآيات السابقة لا تحتوي على ما يتساهى وعصمة الأنبياء، بل هي على العكس دليل على عصمتهم، لكن هناك قضايا عجيبة جداً يحكن مشاهدتها في الروايات المذكورة في بعض مصادر أهل السنة من الدرجة اثباتية والتي ينبغي التحقيق فيها على أفراد، هذه الروايات التي ذكرناها في بداية البحث، مقولة تارة عن بن عباس وأخرى

عن سعيد بن جبير وثالثة عن البعض من الصحابة أو تابعين<sup>١</sup>.

مع أن هذه الروايات لم تشهد في أي مصدر لاتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما أنه لا وجود لها أيضاً في كتب الصحاح الستة على حد قول بعض علماء أهل السنة، حتى أن المراعي يقول في تفسيره: «وقد دس بعض الرادقة في تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة، وأصول الدين تكذيبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ... ويجب على كل العلماء طرحها وراء ظهورهم، ولا يصيغوا في تأويلها وتحريجها، ولا سيما بعد أن نص الثقات من محدثين على وضعها وكذبها»<sup>٢</sup>.

كما ونقرأ نفس هذا المعنى بشكل آخر في تفسير «الخواهر» لـ «الطنطاوي» حيث يقول: «هذه الأحاديث لم تذكر في أي واحد من كتب الصحاح الستة مثل موطأ مالك، صحيح البخاري، صحيح مسلم، جامع ترمذي، سنن ابن داود، وسنن النسائي»<sup>٣</sup>.

ولذا لم يذكره كتاب «تفسير الوصول لجامع الأصول» الجامع للروايات التفسيرية للكذب الستة، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم، ومن هنا فليس من اللائق الإهتمام بهذا الحديث أو حتى التحدث به، فضلاً عن التعليق عليه أو رده. هذا الحديث كذب واضح<sup>٤</sup>.

من الأدلة التي يذكرها «العنبر الرازي» على كون هذا الحديث من الموضوعات قوله: «وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي الأكرم ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث «العرانيق»، وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها حديث العرانيق بتاتاً»<sup>٥</sup>.

ولم يقتصر الأمر على المستشرقين الذين ذكرهم، بل هناك أفراد آخرون أيضاً مثل

١ لمزيد من الإطلاع على طرق هذه الروايات عند أهل السنة يمكن الرجوع إلى تفسير در المشور، ج ٤، ص ٣٦٦-٣٦٨ ديل الآية ٥٢ من سورة الحج.

٢ تفسير المراعي، ج ١٧، ص ١٣٠، ديل الآيات مورد البحث.

٣ يجب الالتفات إلى أن سنن ابن ماجه هي من الصحاح الستة لا موطأ مالك.

٤ تفسير الجواهر، ج ٦، ص ٤٦.

٥ تفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.



«القرطبي» في تفسير «الجامع» وسيّد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» وغيرهما وعموم كبار مفسّري الشيعة أيضاً، حيث اعتبروا هذه برواية من العرافات والموضوعات ونسبوها إلى أعداء الإسلام.

ومع كلّ هذا فلا عجب أن يصح أعداء الإسلام خصوصاً المستشرقون الحاققون الأموال الطائلة في خدمة نشر هذه الرواية ويقومون بعمل عليها بكلّ جدية، وقد رأينا في الأونة الأخيرة كيف أنهم شجّعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان «الآيات الشيطانية»، حيث إنه استفاد من عبارات ركيكة جداً ومن خلال قصّة خياليه لم يقتصر على هتك مقدّسات الإسلام ووضعها في معرض الشكّ والترديد محسوب، بل أهان الأنبياء العظام الذين تكنّ لهم كلّ الأديان السماوية الاحرم أيضاً (مثل إبراهيم على ميّتا وآله وعليه السلام).

وليس عجيباً أيضاً أن يترجم بعض الأدكليميّ لهذا الكتاب إلى مختلف اللغات ويسرعه خياليه، ويوزّع في كلّ أنحاء العالم، وحينما أصدر الإمام الحمينيّ ﷺ فتواه الأربعة بارتداد كاتب هذا الكتاب أي «سلمان رشدي» ولروم فعله، بادرت الدول الاستعمارية وأعداء الإسلام إلى حمايته بشكل منقطع الطير. هذه الحركة العجيبة أثبتت أنّ هناك من يقف وراء سلمان رشدي وأنّ لمسألة هي أكبر من مجرد تأليف كتاب معادٍ للإسلام، وانّها في الواقع حطّة مدروسة من قبل العرب المستعمر والصهيونية لضرب الإسلام من خلال وقوفهم معه بكلّ حزم.

لكن الصمود القوي للإمام الحمينيّ ﷺ في فتواه، و استمرار نهجه من قبل توّابه، وما نالته تلك الفتوى من القبول والترحاب من قبل عسبة الشعوب المسلمة في العالم خيّب آمال المفتعلين، بل لا زال مؤلف هذا الكتاب وإني بحطّة تدويننا لهذا البحث يعيش متحفياً في محلّ مجهول بالكامل، تحت رعاية مشدّدة من قبل ادول الاستعمارية، ويبدو أنّه مضطّر للعيش هكذا إلى آخر لحظات حياته، لم يقتر على أيدي نفس تلك الدول، فيما لو أرادت غسل ذلك العار الذي لحق بها نتيجة دفاعها عنه.

وبناءً على هذا فالدافع لـ «وضع» هذه الرواية المرورة سيكون هو السبب في بقائها أيضاً، وبعبارة أخرى هناك محاولة من قبل أعداء الإسلام كانت قد بدأت في السابق، ثم واصلت مسيرها بعد ألف سنة أو أكثر مدعومة من قبل طائفة أخرى وبصورة مكثفة ومن هنا فلا حاجة لقل التبريرات التي تُثرت بشأن هذا الحديث كالتي وردت في تفسير «روح المعاني» بشكل موسّع، وفي تفسير أخرى بشكل مركز وكما أكد كبار علماء الإسلام فإن الحديث يديكون أساسه خاوياً فإنه لا يستحق أن يعطى أهمية في تفسيره أو تسليط الأصواء عليه

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغي ذكرها لتوضيح المطلوب ليس إلا وهي.

١- الصراع المرير لنبي الإسلام ﷺ ورفض المساومة مع عدة الأصنام والأوثان عند بدء الدعوة وإلى آخر عمره، وهو أمر لا يحصى على أحد من الأعداء والأصدقاء، وأهم شيء لم يساوم عليه أبداً ولم يتصالح أو يبيع عنه هو هذا الموضوع، فكيف يمكن والحالة هذه أن يمدح أصنام المشركين بهذه الأوصاف وقد ذكره بعض الباحثين؟

وقد أكدت التعاليم الإسلامية أن الدمى الوثنية التي لم يعرف أبداً هو الشرك وعبادة الأوثان، ولذا اعتبر مسألة صرب أماكن عبادة الأصنام واجبة على كل مكلف مهما كلفه الأمر، كما أن القرآن من ألقه إلى يائه شاهد على ذلك ويشكل بنفسه قريه واضحة على وضع حديث العرائق الذي ذكر فيه تمجيد ومدح الأوثان والوثنية.

٢- فضلاً عن أن الذين وضعوا اسطورة عرائق لم يلتفتوا إلى هذا الموضوع وهو أن مروراً بسيطاً على آيات سورة النجم يبطل هذه الحرافة، ويثبت عدم وجود الإنسجام بين مدح وتمجيد الأوثان في جملة «تلك العرائق العلى، وأن شفاعتهم لترجي» وبين الآيات التي تحف بها، إذ قد صرح في بداية نفس هذه سورة بأن النبي الأكرم ﷺ لم يطلق عن هوى النفس أبداً وأن كل ما يقوله بالنسبة يعتقد وفواين الإسلام إنما هو من الوحي الإلهي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ هَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم / ٣-٤)

وتصرح الآيات بأن النبي الأكرم ﷺ لم يعرف أبداً عن طريق الحق «ما ضل صاجيكم وما غوى»

وأبي صلال واحراف أعظم من يأتي بحديث عن الشرك والشاء على الأصنام بين آيات التوحيد؟ وأي معطو أسوء من أن يضيف كلام لشيطان (تلك العرائق العلى) إلى كلام الله تبعاً للهوى

والمثير هنا أن الآيات التي تتلوها تذم الأصنام والمشركين ونقول «إِنْ هِيَ إِلَّا أَنْشَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» (الجم / ٢٣)

أي عاقل يصدق أن شخصاً ركباً حكيماً وفي مقام لسوة وإبلاغ الوحي، يمدح الأصنام في الجملة السابقة ويدمها بشدة وعنف في حملتين بعدها! كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تبعاً؟

ومن هنا يجب الاعتراف بأن الإنسجام القائم بين آيات القرآن هو بشكل يرفض كل شبهة بصاف إليها من قبل المعادين لمصرهم وكنت كوبها حملة غريبة وإضافة غير محاسنة وأنها ليست في محلها، هذا هو المصير الذي ابتلى به حديث العرايين بين طلمات آيات سورة الجهم

وهنا يبقى سؤال واحد، وهو البحث عن سر وراء كل هذه الشهرة، التي لا قاعها موضوع تافه لا أساس له كهذا؟

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة بقاء، إذ إن الفصل في شهرة هذا الحديث يعود بالدرجة الأولى إلى مساعي الأعداء والمرضى، الذين يظنون أنهم قد عثروا على أداة جديدة للطعن في مقام عصمة نبي الإسلام وصالة القرآن، وبناءً على هذا التحليل يتضح شهرته بين الأعداء وهو مما لا يحصى، أما شهرته بين المؤرخين الإسلاميين المسلمين فعلى حد قول بعض علماء الإسلام، ناتج من كون هؤلاء المؤرخين يبحثون عن كل ما هو مثير وغريب وفريد من نوعه وإن كان يفتقر إلى الأصالة التاريخية لدرجه بين طيات كتبهم، ليريدوا من جاذبيتها قدر المستطاع، ونظراً لكون قصة كاسطوره العرائق حادثة غريبة تنسب إلى حياة نبي الإسلام ﷺ فلم تخل منها كتبهم التاريخية، بل وحتى الروايات منها

بعض النظر عن ضعف أسانيدها ونفاهاة محتواها كما أنَّ البعض أيضاً قد ذكرها للنقد والتحليل.



### ثمرة البحث:

يتضح من مجموع ما مرَّ أنَّ آيات القرآن تشكّل دليلاً واضحاً يؤكد على عصمة الأنبياء، فضلاً عن خلوها عما يتنافى وتلك المنزلة الرفيعة



# أقوال وآراء

حول عصمة الأنبياء ﷺ  
در تبيين حقايق نبوت و رسالت



تجربہ نامہ

## الأقوال وآراء حول عصبة الأنبياء ﷺ

مسألة تنزيه الأنبياء من الذنب وانحطاً يفتق عليها أغلب المسلمين، بل وحتى أصحاب الملل والشرائع الأخرى، لكن هناك اختلافات كثيرة وآراء وأقوالاً متنوعة فيما يتعلق بخصوصياتها، قد تناولتها كتب العقائد والتفسير، والحديث بالشرح والتفصيل. المرحوم العلامة الحلبي في كتابه «نهج الحق وكشف الصدق»<sup>١</sup> وكذلك هو وكل من شرح «تجريد العقائد» في شرح كلام الخوجه الطوسي «يرجى في السبي العصبة»، وكذلك «ابن أبي الحديد» في شرح نهج البلاغة<sup>٢</sup>. حيث تناولوا كلهم هذه الأقوال بشكل مطول، لكن المرحوم «العلامة المجلسي» قام بشرح وترتيب هذا البحث بشكل أفضل من غيره، وهو ما سذكر خلاصته أدناه على أمل الإحاطة بكل الأقوال المتعلقة بهذه المسألة، (إضافات وضعناها بين قوسين تخللت كلام هذا المحقق لعظيم).

### يقول في بعضه عصبة الأنبياء ﷺ:

اعلم أن الاختلاف الواقع في هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أربعة أقسام: أحدها، ما يقع في باب العقائد. وثانيها، ما يقع في التبليغ. وثالثها، ما يقع في الأحكام والفتيا. ورابعها، في أفعالهم وسيرهم ﷺ. وأما الكفر والضلال في الاعتقاد فقد أجمعت الأمة على عصمتهم عنهما قبل النبوة وبعدها، غير أن الأربعة من لغوارج جوّزوا عليهم الذنب. وكلّ ذنب عندهم كفر، فلمهم تجويز الكفر عليهم، بل يعكس عنهم أنهم قالوا: يجوز أن

١. دلائل الصدوق، ج ١، ص ٣٦٨

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٧، ص ٧ - ٢٠

يبحث الله نبيّاً علم أنه يكفر بعد نبوته! (لكن صعب هذا الكلام هو بدرجة لا يمكن اعتباره صم أقوال العلماء المتقدمين. وكذلك تعبير بعض مفسري أهل السنة في ذيل الآية: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى».) (الصحي / ٧)

وذيل الآية: «مَا كُنْتَ تَذِيرِي مِنَ الْكِتَابِ وَلَا الْإِيمَانِ».) (الشورى / ٥٢)

وذيل الآية: «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ» (الشرح / ٢)

والآية: «قَالَ أَشَلَفْتُ لِرَبِّ الْغَالِينَ».) (القرة / ١٣١)

بيّن أن العص منهم يقول بجوار مسأته الكفر والشرك قبل النبوة. لكن - وكما قلنا - لا يمكن اعتبار هذا الكلام من أقوال علماء الإسلام)

وأما النوع الثاني وهو ما يتعلق بالتلبيح فقد تنفقت لأمة، بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريم، فما يتعلق بالتلبيح عمداً أو سهواً إلا «القاضي أبو بكر الباقلاني»، فإنه حوّل ما كُن من ذلك على سبيل النسيان وعلتات اللسان. (هذا القول نادر بدرجة بحيث لا يعبر شيئاً حتى مقابل القول بالإجماع)

أما النوع الثالث وهو ما يتعلق بالنسب فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأهم فيها عمداً وسهواً، إلا شردة قليلة من أئمتهم (تي حرقت هذا الإجماع، والتي لا يعتد بها أبصاً) (ينقل ابن أبي الحديد هنا عن الكرمية والحشوية<sup>١</sup> بأنهم لم يقتصرُوا على القول بجواز الخطأ فقط في هذا القسم، بل استدّلوا بأسطورة العراييق الموصوعة لإثبات هذا المقصود بالنسبة للنبي الأكرم ﷺ «والعياد بالله»)

وأما النوع الرابع وهو أفعالهم، فقد احتلوا فيها على خمسة أقوال

١ - مذهب الشيعة الإمامية وهو أنه لا يصدر عنهم الذنوب الصغيرة أو الكبيرة ولا العمد والسيان والخطأ في التأويل ولا الإسهاء من الله سبحانه، ولم يخالف فيه (وفي مورد واحد فقط) إلا الشيخ الصدوق وشيخه محمد بن يحيى بن الوليد فأنهما حوّلوا الإسهاء لا السهو،

١ «الكرامية» هم أتباع محمد بن كرم الذي ظهر في القرن الثالث وقال بالتجسيم، و«الحشوية» (بفتح الحاء) (سكنوا) طائفة من المعتزلة الذين ذهبوا وراء خواهر القرن وقالوا بالتجسيم، وقال البعض إن هذه الفرقة الطائفة شاركت أولاً في درس الحسن البصري، وحينما سمع الحسن منهم كلاماً يخالف الإسلام أمر بإخراجهم.



الذي يكون من الشيطان وكذا القول في الأئمة طاهرين ﷺ

٢- أنه لا يجوز عليهم فعل الكبائر، ويحور عليهم فعل الصفائر إلا الصفائر التي تشتمل منها النفوس، وكل ما يسبب فاعله إلى الدناءة والضعفة، وهذا قول أكثر المعتزلة<sup>١</sup>.

٣- أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة بشكل عمد، لكن يجوز على سبيل الخطأ أو السهو، وهو قول «أبي علي الجبائي» أحد منكمي المعتزلة ومن أقطابهم<sup>٢</sup>.

٤- أنه لا يقع منهم الذنب إلا سهواً أو خطأً لكنهم مسؤولون عما يقع منهم سهواً، وإن كان موضوعاً عن أمهم، لقوة معرفتهم وعورتبتهم وكثرة دلائلهم، وأنهم يقدرون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم وهو قول النظام<sup>٣</sup> (الذي هو من علماء المعتزلة المعروفين في عهد بني العباس) وجعفر بن بشر ومن تبعهما.

٥- أنه يحور عليهم الكبائر والصفائر عمدًا وسهواً وخطأً، وهو قول «الحشوية» (الاحشاريين من أهل السنة، لكن لا يُعلم في الوقت الحاضر أحد منهم مؤيد لهذا المذهب) وكثير من أصحاب الحديث من العامة.

ثم يصيب المرحوم «العلامة المحلّي» قائلا:

ثم احتلغوا في وقت عصمة الأنبياء على ثلاثة أقوال

الأول: إنهم معصومون منذ ولادتهم إلى أن يلقوا الله سبحانه، وهو مذهب أصحاب

الإمامية

الثاني: إن عصمتهم تبدأ من حين بلوغهم، ولا يحوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوة،

وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إن عصمتهم تبدأ من وقت «النبوة»، وأما قبل ذلك فيحوز صدور المعصية عنهم.

١ «المعتزلة» أتباع «واصل بن عطاء» الذي هو من تلاميذ الحسن البصري ثم أعلن عن مخالفته إياه واعتزله، ولذا عرف أصحابه بالمعتزلة ولهم مؤيدون كثيرون من أهل السنة

٢ «جبائي» كان إسماعيلياً من مناطق حوزستان.

٣ اسمه «إبراهيم بن سيار» ولقب به «النظام» لأنه كان بمنهج حرفة ترتيب الأحتام وبيعها في سوق البصرة، أو لأنه كان يتحدث بشكل منظم.

وهو قول أكثر «الشاعرة» ومنهم «مخر الرري» وبه قال «أبو هذيل» «وأبو علي الجبائي» من المعتزلة<sup>١</sup>.

والملمت للنظر أن المصدر الرئيس لهذه الأقوال منتشرة يعود بالدرجة الأولى إلى عاملين كما يبدو:

١ - عدم وصوح البعض من طواهر آيات القرآن التي يشتمل عليها للوهلة الأولى نفي العصمة في بعض أمورهم، هي حين أن التدقيق في هذه الآيات، وتفسيرها على ضوء آيات القرآن الأخرى ينفي هذا التوهم بالمرّة، ولكن نظراً لأن أهل الظاهر والجمود لم يكتفوا أنفسهم عما التحقيق والتدقيق فقد ابتلوا بمش هذه معانيد.

٢ - فريق اعتبر بعض إمراده الأدلة العقيدة دحيطة في هذه المسألة، وفسر آيات القرآن أفصل من صاحبه، كل اعتمد أحد الأقوال، المتقدمة، طرأ توهمهم بأن الهدف من البعثة إنما يتحقق بالعصمة بعد النبوة، أو العصمة في خصوص نطاق دائرة التسليخ، أو من الدسوب الكبيرة.

لكن الحق هو أن الأنبياء معصومون بشكل عام من الذنوب العمدية وغيرها، كبيرة كانت أم صغيرة، قبل «البلوغ» و«النبوة» أم بعدها، وكذلك من الخطأ سواء أكل في العقيدة، أو تبليغ النبوة وأداء الرسالة، أو بيان الأحكام أو غيرها.

هذه هي عقيدة علماء الشيعة، عقيدة أصحابها في تبريد الأنبياء والأنمة ﷺ من كل ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها، ودليهم على ذلك روايات أثمة الهدى ﷺ الثابتة قطعاً عن طريق إجماع الأصحاب، والروايات المستطافرة، حتى صار ذلك من قبيل الضروريات في مذهب الإمامية «التهى كلام علامة المجلسي»<sup>٢</sup>.

ومع هذا فمن المثير للعجب ما يسببه بعض أعداء الشيعة لهذا المذهب بما يتفرون منه في كلماتهم، كقولهم مثلاً: إن الشيعة يجوزون تطاهر الأنبياء بالكفر تقيّة خوفاً على حياتهم!

١. بحار الأنوار، ج ١١، ص ٨٩ - ٩١

٢. المصدر السابق، ٩١

ثم إنهم انهالوا على هذه العقيدة بكل عنف<sup>١</sup>.  
 في حين أنه لم يقل أي من علماء الشيعة شيء حول هذا الموضوع، وكم كان مناسباً  
 لو أن هذا القائل ذكر ولو اسم شخص واحد، أو كتاباً واحداً على أقل تقدير تذكر فيه مثل  
 هذه العقيدة، وحسب قول المرحوم العلامة المظفر<sup>٢</sup> إن هذا الكلام كذب جلي، وربما يكون  
 السبب وراء هذه النسبة هو جعل عقيدة الشيعة في التقيّة محوراً لاستنباطهم الحاطي<sup>٣</sup>، مع  
 أن إظهار الكفر بل وحتى ما دونه غير جائز للأنبياء<sup>٤</sup> بدءاً، مهما تعرّضت حياتهم المقدّسة  
 للخطر في هذا الطريق، وعدت قرناً للدين والعقيدة  
 لكن التقيّة العملية، كالتي ظهرت من بيّ لإسلام ﷺ في مسألة الهجرة، حين خروجه  
 من مكّة سرّاً حتى وصل المدينة فلا محدود فيها، ولا ربط لهذا بما قالوه

### الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء ﷺ:

ذكر أقطاب علماء الكلام أدلة كثيرة على لزوم عصمة الأنبياء عن طريق العقل، والتي  
 يمكن دمج البعض منها في البعض الآخر، واستبدال الصيغة منها بالقوية، بحيث ينتج من  
 مجموعها، أدلة أربعة تستحقّ القبول والذكر:

#### ١- العوامل الداخلية - النفسية -

بتحليل مختصر يمكن القول بسيطرة العوامل المائعة عن الدب على العوامل الدافعة إليه  
 في نفوس الأنبياء  
 بيان ذلك: للذنوب التي يقترفها لأناس عوامل ومصادر شتى لكنها تعود بالدرجة  
 الأولى إلى عاملين مهمين:

١- الجهل وعدم تصور سوء عاقبة الأمر.

٢- سيطرة الشهوات والأهواء بشكل، بحيث يستسلم لها العلم والعقل مع قدرتهما على

إدراك الآثار السيئة للذنوب.

١ الشيخ روزبهان في كتاب إبطال الباطل، طباً لما قبله في كتاب دلائل الصدوق، ج ١، ص ٣٦٩

فالشخص الذي تتلوث يده بدماء ضحية بريئة مثلاً، أو يحتار طريق المرقعة والسقوط والرشوة، أو يبتلى بلعب القمار وشرب الخمر وتعاطي المواد المخدرة، لا يفرح عن أحد حالين؛ إما أنه لا يعلم بمفاسد هذه الأمور بشكل تام، أو أنه عالم بها إلا أنه لا يستطيع الصمود أمام ثورة الشهوات والأهواء وعنفو نهما.

وبناءً على هذا فالمعلم والإطلاع بوحدهما غير كافيين للردع عما هو غير مرغوب فيه، بل لابد من جانب ذلك من التسلط على النفس والأهواء.

إن الشرة التي يمكن أن نجنيها من هذا يبحث هي أن الإنسان لو كان له اطلاع كاف بقباحة عمل ما، وتسلط كامل على نفسه وميونه، فيستحيل صدور هذا العمل منه (المراد هنا طبيعة الحال هو الحال العادي لا العقلي كحتماع الصديق) (تأمل جيداً).

ويمكن بيان هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، وهي أن لكثير منّا يمتلك حالة شبيهة بالعصمة في قتال البعض من الدنوب، (أمام البعض منها فقط) مثلاً، لا نجد بيننا من يوافق على الخروج إلى الأرقعة عارياً في وصح النهار، ولو صادف أن قام أحدنا بمثل هذا العمل فسوف تقطع بزوال عقله ورشده، وإلا فيستحيل الإقدام على هذا الشيء مع وجود العقل والوعي شرب مياه المعاري القذرة والملوثة حراً قطعاً، فهل ياترى يوجد بيننا عاقل يقدم على عمل كهذا؟

الطبيب الماهر المتبحر في أسرار علم الطب وخطورة أنواع الأمراض المعدية، لا يوافق أبداً على شرب غسالة ملابس المرضى المبتلين بالأمراض والأوبئة المعدية وبهذا يمكن القول باختصار إن لما حصنة ومناعة أمام مثل هذه الأعمال القبيحة، وذلك لوقوفنا عن كشف على مفاسدها، بل إن قوة عقولنا ومعارفنا وإيماننا ستحطم تلك الميول والرغبات، لو حاولت في يوم ما إيقاعنا في محالب مثل هذه الأمور، إذن فلو وجد هناك من له اطلاع كاف أعانا على قبح الدنوب والمعاصي، فمن المسلم أنه سيتجنبها بجديّة، وبعبارة أخرى، إن الدوافع نحو المعصية - نعم من لجهل أو غلبة الشهوات والأهواء - وقد انتهت وتلاشت في وجود الأنبياء والأئمة المعصومين في ظل علمهم ومعرفتهم وتقواهم.

ولا يخفى أن الأنبياء - وبفصل ارتباطهم بعالم الغيب وبحر علم الباري اللامتناهي - لهم إحاطة كافية بحجج معاسد الذنوب، وقبح مش هذه الأعمال وفلسفة النهي عنها، ومن جهة أخرى فتفس هذا الارتباط الذي يكون على مستوى اشهود ومشاهدة عالم الغيب، يخلق فيهم حالة من التقوى بحيث تعدّ رادعاً قوياً أمام دواعي تلك الأهواء والميول.

خلاصة القول هي، إن الوقوف على دواعي المعصية من جهة، وعلى مستوى معرفة وتقوى الأنبياء الناتج من ارتباطهم بعالم الغيب من جهة أخرى، يدعوا للتصديق بحصانتهم وابتعادهم عن كل أنواع المعصية.

ورد في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام الإشارة باحتصار، مع دلالة تامة إلى الملاحظة الأولى، حيث يقول «غرنت الحكمة بالعصمة»<sup>١</sup>

مع أن العصمة هنا قد جاءت بمعناها العام أي كل أنواع الحصانة من المعصية وهي كل مراحلها، لكنها على أية حال تعدّ شاهداً على مرادنا. وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «المعصوم هو الممتع بالله من جميع المحارم، وقد قال الله تبارك وتعالى ومن يحصنم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم»<sup>٢</sup>.

ويمكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى الملاحظة الثانية أو كليهما، كما ورد نفس هذا المعنى في حديث هشام بن الحكم بشكر أوفى، فس ابن أبي عمير - الذي يعدّ من كبار أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - أنه قال «ما سمعت ولا استعدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام، فأتي سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال نعم، قلت له: فما صفة العصمة فيه؟ وبأي شيء تُعرف؟ قال: إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والفضب والشهوة، فهذه منتزعة عنه، ثم أضاف قائلاً:

١. غرر الحكم

٢. بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٩٤، ح ١٦ والآية من آل عمران ١٠١

لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟

ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه.

ولا يجوز أن يفتصب لشيء من أصوار الدنيا، إلا أن يكون غضبه لله عز وجل ...  
ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الله عز وجل حبيب إليه الآخرة، كما حبيب إلينا الدنيا فهو ينظر إلينا الآخرة كما ينظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهها حسناً لوجه قبيح؟ وطعاماً طيباً لطعام مر؟ وثوباً ثيباً لثوب خشن؟ ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟<sup>١</sup>

مع أن «هشام بن الحكم» لم يسب هذا الحوار إلى أنفة أهل البيت عليه السلام مباشرة، لكن نظراً لكونه من ألع تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، ثم تصريحه قائلاً: «كل ما عسدي فهو من الإمام الصادق عليه السلام»، فسندوا أنه قد استلهم تحليله اللطيف والسطحي هذا، والذي يمكن أن يكون أحد الأدلة العقلية على مسألة خصمة الأنبياء والأئمة من إمامه الإمام الصادق عليه السلام

❦❦❦

## ٢- دليل الإعتقاد

من الواضح أن الهدف من بعثة الأنبياء هو هداية البشرية على ضوء التعاليم الإلهية، هذا الهدف الذي يمكن ضمانه حيث لا يبقى هناك أدنى مجال للشك والترديد، يساور الناس فيما يتعلق بأقوالهم وأفعالهم، بشكل بحيث يعتبرون كلامهم كلام الله، وتعاليمهم تعاليم إلهية، حتى يتقبلوها قلباً وقالباً ويسلموا بها تسليماً ويعتمدوا عليها.

ومن البديهي أن احتمال الكذب، وتحريف الحقائق والخطأ والاشتباه سيجد طريقه إلى كلماتهم إن لم يكونوا معصومين عن «لذنب» و«المعصية»، وبالتالي يسلب الاعتماد عليهم

حتى لو كانوا أناساً طبيعيين، لأنَّ فقدان منزلة «عصمة» يستلزم احتمال تعلقهم في يوم ما بالمظاهر المادية ومعرياتها، أو أن يرتكبوا خطأ والزل من حيث لا يشعرون ولا سبب يذكر.

هذا الاحتمال يبعث على التشويش الفكري لأتباعهم على الدوام، كما أنه سيكون أساساً للشك والريبة، فضلاً عن بقاء مسألة «تمام الحجّة» ناقصة أيضاً، نظراً لوجود دريعة بيد المخالفين على الدوام مفادها أن سبب عدم أتباعهم لتعاليم النبي يكمن في احتمال صدور الخطأ والزل (لا سمح الله) منه.

خلاصة القول: إنَّ رأس المال الحقيقي لنبوّة هو كسب ثقة طلاب الحقيقة، ولا يتحقق هذا المعنى بفقدان مرحلة العصمة والصيانة من بدت واطحاً.

ويمكن القول: أنَّ الناس عموماً إنما يتبعون العلماء الأتقياء، وبأحدور منهم أحكام دينهم ويشقون بهم، مع علمهم بعدم عصمتهم من التزك والخطأ.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنَّ أصل الدين يختلف عن فروعه وحرثياته، ويمكن إرساء أصل الدين وأساسه على الشك أو الظن، ولا يمكن قبول الوحي الإلهي مقروناً بالاحتمال والشك والتردد، في حين أنَّ احتمال الخطأ والإشتماء في الفروع والجريئات لا يؤثر في أساس العقيدة، إذن فلا بد من القول هناك بالعصمة والإكتفاء بالعدالة هنا، وذلك لإمكان عرض الطرف عن احتمال الخطأ في هذه الجهة، دون الخطأ والإشتماء في الوحي وإبلاغ الرسالة، حيث لا يمكن غض البصر والتسامح في هذا المورد، كما يثار هنا سؤال آخر أيضاً وهو أنَّ آخر شيء يمكن أن يستفاد من هذا الدليل هو تنزيههم من الخطأ والكذب والتعريف في تبليغ الرسالة، لكن هذا الدليل قاصر عن شمول كافة الذنوب والمعاصي.

لكن الإنصاف هو اشتراك معظم لذنوب بأسس مشتركة، فالكذب والإتهام والسرقعة والإبتلاء بشرب الخمر ولعب القمار ولسقوط لأخلاقي، نابعة من اتباع هوى النفس واتباع الشهوات وحب الدنيا، فكيف يمكن ألا يكذبُ بدءاً من مبتلى بأنواع المعاصي؟

وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ولو نادراً، فإنه لن يفلح مع ذلك في كسب ثقة

الناس، إذ سيقولون كيف يمكن الإعتماد على كلام الشخص الفلاني الخائن والظالم والمنحرف؟ لأن الفصل في هذه المسائل وعلى فرص إمكانه في الواقع مرفوض عند عامة الناس (تأمل جيداً).

فكيف يمكن لشخص يخطيء في أمور بحياة اليومية أن يكون مورد اعتماد في إبلاغ الوحي الإلهي؟ وسيقول الناس حتماً، إنه ربما ابتلي عند إبلاغ الوحي بنفس تلك الإشتباهات التي يقع بها في حياته الشخصية.

خلاصة القول أن مسألة تجربته وفصل الأخطاء و بدوب مرفوضة عند السواد الأعظم من الناس، وأن من يرتكب ذنباً أو خطأ لا يمكن أن يكون مورد اعتماد في تبليغ الوحي (تأمل جيداً).



### ٣- مخالفة الغاية وعدم تحقيق أهداف البعثة

من المسلم أن الشخص العاقل الحكيم لا يقدم أبداً على عمل يخالف هدفه وغايته، ولا فلا يصح أن يبعث بالحكمة والوعي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فمحر تلم أن الله عز وجل قد أرسل أنبياءه لهداية العباد وتربيتهم، فلو لم يكونوا معصومين عن الدسب والمعصية لأصلوا الناس بدل هدايتهم، وهذا هو الجواب المافي للهدف من بعثة الأنبياء بالضبط.

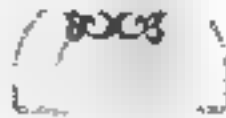
بالإضافة إلى أن الدور الرئيسي في تربية الناس، إنما يعود للبرامج العملية للأنبياء، لأن كيفية تصرف المربين وصفاتهم وحالاتهم تعدّ نموذج الأمثل لمن يتبعهم ويتولاهم، وإن الأدلة العقلية والخطب الحماسية والبيان الجيد مهما كان لها دور مهم في توعية الناس، إلا أنها لا تعدّ شيئاً أمام الساذج العملية، خصوصاً لو ظهر هناك تضاد بين القول والفعل. وبين النظرية والتطبيق، فإن حالة من الشلل ستسري إلى تلك البيانات والنداءات وتعدم تأثيرها! ومن هنا ينبغي أن يكون الأنبياء عليهم السلام قدوة حسنة للناس في كافة أبعاد الحياة، وأن تنعكس دروسهم الدينية للناس من خلال تصرفاتهم



ولو كانوا أفراداً متقلين بالذنوب، مبتلين بالكذب والخيانة والظلم وأتباع أهوائهم لفقدوا اعتبارهم تماماً، ولا يصبح الهدف من بعثهم غير مجدي ولا مفيد.

كيف يعقل أن يصح لله هذا المنصب الخطير الذي يعدّ أسوأ منصب ديني ومعوي واجتماعي، في عهد شخص قد تمكنت منه ذنوب ووقع في أسر الهوى والشهوات، ولم يسيطر على نفسه؟ هل يمكن لشخص كهذا، يترى أن يكون قائداً ربانياً وروحياً للناس؟! وهنا يجب الإدعاء بأن هذا الهدف الحساس لا يمكن ضمان القيام به، إلا في حالة تزيههم عن كل أنواع الذنوب صغيرها وكبيرها، بل مطلق الخطأ والإشياء.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال في وصف الإمام عليه السلام: «هو معصوم مؤيد موثق مستند قد أمن الخطايا والزلل والعتار يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهدته على خلقه»<sup>١</sup>



#### ٤ - لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ

بديهي أن الله تعالى ولقرض هداية عباده لا يقدم على أدنى شيء يكون سبباً في إحراجهم وركوبهم للباطل وسدوكهم سبل الضلال لأن صدور عمل كهذا من أي كان فهو قبيح فكيف بذاته تعالى؟

لو وصح الله أسرار النبوة - الشاملة للأعجاز و الأدلة العلمية - تحت تصرف غير المعصوم، أي في خدمة من يحتمل كذبه وخطأه وارتكبه للمعاصي، فقد أوقع عباده في الضلال، وهذا بالنسبة يشبه قيام شخص معروف بانتحاب شخص مخادع منحرف وكيلاً عنه، أليس هذا العمل قبيحاً؟

كيف يحتمل صدور مثل هذا العمل من الله تعالى، أن يضع المعجرات وأسرار النبوة بيد شخص مذنب كذاب منحرف وعاصي؟!

١ أصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٣، باب النادر الجامع في فضل الإمام وصفااته، ح ١

وقد صرح القرآن بكلّ جلاء هذا الموضوع قائلاً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ • لَا أَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (أي فلا أحد منكم يقدر على منعه من ذلك أو الدفاع عنه). (الحاقة / ٤٤ - ٤٦)

هذه الآيات تؤكد على نفس الحقيقة التي تمت الإشارة إليها، وهي أن من يمتلك الآيات والحجج الإلهية والمجهز بسلاح الإعجاز القوي، فقد وعده الله تعالى بقوله، لو انحرف حتى للحظة واحدة عن المسير الإلهي، فليس بمهلل له تعالى، بل سيصرمه في أحط نقطة من بدنه أي شريان قلبه ويقصي عليه، وفيما عدا ذلك فإن الله هو السبب وراء إصلال الناس وإعرائهم بالجهل، وهذا بنفسه بعدد دليلاً صارخاً على مسألة العصاة

ومع أن مسألة الخطأ خارجة عن إرادة الإنسان فلا يمكن معاقبة أحد على الأخطاء التي يستحيل احتسابها، ولكن بما أن هفوة السبي وخصاء يترك نفس الأثر الذي يتركه افتراؤه على الله، أي يكون السبب وراء إصلال حديق الله، إذن يمكن الاستعانة من مصون هذه الآية أن السبي مصون من مثل هذا الخطأ أيضاً

وكدليل على ذلك نقرأ هذا الحديث عن علي بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال للمأمون، «من دين الإسماعية، لا يفرض الله طاعة من يعلم أنه يضلهم ويخونهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطنع من عباده من يعلم أنه يكفر به وعبادته، ويعد الشيطان دونه»<sup>١</sup>.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال «إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مَطْهُرٌ لَا يَأْمُرُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مَطْهُرُونَ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَهُمْ أُولُو الْأَمْرِ، وَالطَّاعَةُ لَهُمْ مَفْرُوضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ، لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ سِوَاهُمْ»<sup>٢</sup>.

❦❦❦

١ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٦، ح ٣، باب عصاة الأنبياء.

٢ من كتاب بهر السائق المخطوط ص ١٠٠ طبقاً لما نقله صاحب إحقاق الحق، ج ١٣، ص ٧٨.

## ٥ - عدم أهلية غير المعصوم لتلقي الوحي

إنَّ كلَّ مأمورية - كما نعلم تتطلب في نفسها استعداداً وأهليةً مناسبتين لها، وأنَّه يستحيل أن يقوم بأدائها على أتم وجه من لا أهلية ولا قابلية له عليها، كما نعلم أيضاً أنَّ أنبياء الله يتلقون كلام الله عن طريق الوحي، وهو ذلك الله المليء بالبور والمعنوية، والمتضمن لكلِّ درجات الإيمان والتقوى ويبلغونه للناس. ومن بدهة أن التلقي لمثل هذا الوحي ينبغي أن يكون منزهاً طاهراً، بدرجة بحيث يتكَّن من الاتصال بعالم ما وراء الطبيعة، ودات الباري الطاهرة المنزهة من كلِّ عيب ونقص، واستلام لرسالة المشحونة بالطهارة والتقوى ..

كيف يستطيع الملوَّث بالذنوب صاحب نفس المظلم أن يجد الطريق إلى عالم النور؟ كيف يصير القلب المليء بالشهوات والأهواء مهبطاً للوحي الإلهي ومحللاً للعلم الرباني؟ هل يُعقل تحقق هذا المعنى بدون وجود التجسس والسحرة بينهما؟

ثمَّ أنَّ وكيل كلِّ شخص إنما يعكس وجود موثقه وصفة من صفاته، ولذا لا يسمح مرجع ديبى كبير لنفسه أبداً بالسحاب وكلاته لمن بين الأفراد المشبهين، ولو اتفق وفعل ذلك لعابه الناس كلهم، واعبروا تصرفه هذا قبيحاً، ولخرجوا على أهواءهم أيضاً

فهل يمكن أن يتخب الله الذي هو مصدر مقدسية والتقوى والطهارة، وحليفته من بين المدبسين، ويوكل هذه المسؤولية العظيمة لغير معصوم؟

نرى أنَّ القرآن وفي معرض إجابته على المشركين حينما صرَّحوا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا بِآيَةٍ﴾ يقول ﴿فَإِنَّ أَعْلَمُ حَيْثُ يَحْتَقِلُ رِسَالَتُهُ﴾. (الأنعام / ١٢٤)



## ٦ - أدلة أخرى

ذكر بعض من العلماء العظام أدلة أخرى في هذا الباب لها صبغة فرعية وتعود أحياناً إلى الأدلة المتقدمة، من جملتها:

١ - أنَّه لو صدر عن النبي ذنب لزم اجتماع لضدين، أي صدور أمرين متضادين، الأول

وجوب الامتثال له في كل شيء من جهة، ووجوب مخالفته عند الخطأ من جهة أخرى، ونعلم باستحالة صدور أمرين متضادين من الله الحكيم.

٢- لو أقدم النبي على المعصية لوجب أن يكون مردود الشهادة، لأن شهادة الفاسق وأخباره غير مقبولة، فكيف يمكنه والحالة هذه أن يكون شاهداً على الوحي الإلهي في الدنيا أو على الأمم يوم القيامة؟

٣- لو صدر من الأنبياء ذنب فهذا يعني أن مرتبتهم أقل من عصاة الأمة، إذ إن مقام النبوة في غاية الرفعة والسمو، فارتكابهم للمعاصي، وإلحاح عن أوامر ربهم ونواهيهم من أجل لذة فانية أقبح وأشنع من عصيان هؤلاء، وهذا ما لا يفقه عاقل.

٤- أنهم لو كانوا يأمرون الناس بصلاح الأعمال واحتراب قبيحها، ولم يلتزموا هم بذلك لدخلوا تحت قوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة / ١٤٤)



وهو غير معقول

٥- لو صدر عن النبي ذنب صار مصداقاً للطاغية (ظلم الآخرين أو ظلم نفسه) ولحاز لعنه، إذ يقول القرآن: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود / ١٨)

فكيف يمكن لمن النبي؟ وهل يتناسب هذا مع مقام نبوته؟

٦- أن القرآن الكريم صرح بأن لشیطان قسم بعره الله تعالى على إغواء جميع الناس، إلا المحلّصين ﴿فَبِعَرَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص / ٨٢-٨٣) ولو صدر من النبي ذنب لوجب أن يكون من حرب الشيطان، مع بداهة كونه من المحلّصين.

هذه الأدلة الستة قوية ومتينة، وبارع من تبها مرجع إلى الأدلة الرئيسية المتقدمة، لكنها فروع يانعة من تلك الأصول المطّاعة.

## سُئلة متعدّدة:

هناك عدّة أسئلة مطروحة في بحث عصمة الأنبياء والأنثى ﷺ مشير إلى أهمّها:

## ١ - هل لعصمة الأنبياء صفة «جبريّة»؟

الكثير من الأشخاص حينما يقرّون بحث عصمة الأنبياء، يتبادر إلى أذهانهم فوراً هذا السؤال وهو أنّ مقام العصمة موهبة إلهية معروضة على الأنبياء والأنثى، وكلّ من مال هذه «الموهبة» فقد حفظ من المعصية والخطأ، ومن هنا قلن تعد معصوميتهم فصيلة وفحراً، لكونها أمراً إلهياً مفروضاً كما تقدّم.

وبناء على هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل، وواضح أنّه لا فصيلة في ترك المحال، فعدم ظلمنا مثلاً للناس الذين سيأتون بعد مائة عام أو الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعدّ لنا فصيلة وفحراً، لأنّ أداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محالٌ

## الجواب:

بالرغم من أنّ هذا الإشكال لا يتعرّض إلى عصمة الأنبياء ﷺ، بل إلى كونها فصيلة أم لا، مع ذلك فالتحقّن في عدّه ملاحظات يمكن أن يريح الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال:

١ - إنّ الذين يشيرون هذا الإشكال لا يستفتون إلى جذور عصمة الأنبياء ﷺ، بل يتصوّرون أنّ مقام العصمة مثلاً هو كإمناعة من بعض الأمراض والتي تحصل للإنسان عن طريق بعض اللقاحات، فكلّ من يلقح بمثل هذا اللقاح لن يبتلى بذلك المرض شاء أم أبى. لكننا عرفنا في الأبحاث السابقة أنّ مصوبية المعصومين من المعاصي سابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم، بانضبط كجنتاب تقسم من الذنوب لعلمنا وإحاطتنا بسلبياتها، كعدم الخروج إلى الزقاق عمراً، وهكذا بالنسبة لمن له اطلاع تامّ بالآثار السلبية للمواد المخدّرة ويعلم بأنّ الإيمان عليها يتسبّب في موت تدريجي بطيء، فسوف يتجنب تعاطيها.

فمن المسلم أن تركه هذا يعدّ فصيلة حتى لو كان الدافع له على تركها هو علمه بمفاسدها، وذلك لقدرته على استعمالها، إذ لا إيجاب هي تبين.

ولهذا السبب سعى لرفع مستوى معرفة وتقوى الأفراد عن طريق التربية والتعليم، لنضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والأعمال الشبيعة على أقل تقدير.

أفلا يعدّ ترك البعض لقسم من هذه الأعمال نتيجة للتربية والتعليم فصيلة؟!

وبعبارة أخرى إن ترك الأبياء للذنوب محال عادي لا عقلي، ونعلم بعدم المساقاة بين المحال العادي وبين الإختيار، كمثال على أمحال العادي هو: أن يصطحب عالم جليل معه حمراً إلى المسجد ويشربه بين صفوف جماعة، فهذا محال عادي لا عقلي كما لا يحصى.

**خلاصة القول:** إن المستوى الرفيع للإنسان ومعرفة الأنبياء عليهم السلام والذي يعدّ بنفسه فصيلة وافتحاراً، هو السبب في فصيلة أخرى، ألا وهي مقام العصمة (تأمل جيداً).

ولو قيل من أين لهم هذا الإيمان وتلك المعرفة؟ نقلنا من الأنطاف الإلهية، إلا أنها لا تعطى لأي شخص اعتباطاً، بل لوجود الأهلية الكامنة فيهم، بالصيغ كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لإبراهيم الخليل إنه لم يبلغ معه الإمامة إلا بعد اجتباره لإمتحانات الإلهية العظيمة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة / ١٢٤)

أي أن إبراهيم وبعد طيّه لهذه المراحل بمحض إرادته واحتضاره، نال تلك الموهبة الإلهية العظيمة.

وكما يقول تعالى بالنسبة ليوسف عليه السلام: ﴿وَلَوْ بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف / ٢٢)

ودلك بعد تكامله البدني والروحي واستعداده لتلقي الوحي

إن جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعدّ هدفاً قوياً على مرادنا، إذ يقول القرآن: إن أعمال يوسف الإيجابية ولياقته هي التي هيأته بتلك الموهبة الإلهية العظيمة، كما أن هناك

تعبير توضح هذه الحقيقة بالنسبة لموسى عليه السلام حيث يقول القرآن ﴿وَقَسَّاهُ فَنُونا فَلَئِنْ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِثَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾<sup>١</sup> (طه / ٤٠)

ومن الواضح وجود مؤهلات وقابليات كامة في موسى هؤلاء العظماء، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة إجباريه مطلقاً، بل بهم قد قطعوا هذا الطريق سمحوا اختيارهم وإرادتهم، وما أكثر أولئك الذين يتمتعون بالعابيت لكنهم مع ذلك لا يسعون لتطويرها ورفع مستواها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فتمتع الأنبياء ﷺ بمثل هذه المواهب، قد وضع بالمقابل في اعتاقهم مسؤوليات خطيرة، وبعبارة أخرى إن الله تعالى إنما يهب الشخص قدرة وطاقة بحيث تتناسب والمسؤولية التي يضعها على عاتقه، ثم يعتبره في أداء وظيفته.

٢- الجواب الآخر لهذا السؤال هو أنه ومع فرض كون الأنبياء منزهين من ارتكاب أي ذنب وحمل، بالصاية الإلهية اجبارياً لهم كسبهم تقف الحلق، وليكونوا مشعلاً ينير الطريق لهدايتهم، فلا زال الطريق في «ترك الأولى» أي العمل الذي لا يساسب وشأنهم مع عدم كونه معصية، مفتوحاً أمامهم بالرغم من كل ذلك.

فمفصلينهم تعود إلى عدم تركهم حتى للأولى مع كونه اختيارياً بالسيرة إليهم، وتعرض البعض من الأنبياء للعطاب والعتاب الإلهي شديد المهجة والإبلاء بالحرمان في بعض الأحيان، إنما هو لاحتمال تركهم للأولى بادر، وأية فصيلة أسمى من احتناهم لترك الأولى طاعة لأوامر الحق؟

إن فخر الأنبياء يكمن في تحملهم للمسؤولية بحجم هذه المواهب، واجتنابهم حتى لترك الأولى، ولو حدث أن صدر منهم ترك للأولى استثناءً فسرعان ما يبادرون إلى جبران ذلك

١ جملة ﴿ثُمَّ جِثَّتْ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ صارت أحياناً بالاستعانة لتلقي الوصية وأحياناً أخرى بالمعنى الزماني أي أنه ولغرض تلقي الرسالة كان من المقدّر أن تأتي إلى هذا

## ٢- هل تنسجم العصمة مع التقية ؟

يقال أحياناً كيف يمكن أن يكون الأنبياء والأئمة معصومين مع جوار التقية لهم، وجواز الكذب وأمثاله في مقام التقية، أليست تلك دسواً؟ فلو حازت التقية لهم لاستحالت عصمتهم من الذنب والمعصية.



## الجواب :

يجب الالتفات إلى ملاحظتين دقيقتين:

١- الشبهة الخطيرة التي راودت البعض من المعقنين حول «التقية» والتي غدت مصدراً لشبهات حتمية أخرى، هي توهمهم بأن «التقية» تعني إبداء موقف الضعف أمام الآخرين، وإسداد الستار على الحقائق، وانحصار مؤيديها في أتباع المذهب الشيعي فقط في حين أن «التقية» بمعناها الحقيقي قانون عقلائي معروف وواضح ينبع من كمال العقل في الوقت المناسب، وهي في الحقيقة نوع من التكيف لمعارضة العدو أو مواجهة الأحداث الخطيرة.

بيان ذلك: هناك أحداث في تاريخ الجهاد الديني والاجتماعي والسياسي، يتعرض فيها أتباع الحق ومذهبهم للخطر فيما لو قاوموا بشكل عسفي، ومن هنا نرى أن وجه الصراع يتغير وتستبدل المقاومة المباشرة بغير المباشرة والعسفية بالسرية، والهدف هو توجيه «صربات أكثر» للعدو بـ «حسائر أقل»، وبعبارة أخرى الحد من ضياع القوى، وهذا النوع من الصراع والعمل السري ليس سوى «التقية» ولكن بأسلوب آخر.

إن النشاط السري مقابل العدو يعتبر في كل حروب العالم على طول التاريخ (خصوصاً اليوم) من أهم أصول المقاومة، نحطط الحربية كلها سرية، كل ملابس الجسود وأنواع العتاد والسلاح بعيدة عن أنظار العدو، وهذه كلها صور أخرى من «التقية». لو وقع أحد الضباط الكبار في أسر العدو، واحتمل أن يستفيد العدو كثيراً من معلوماته،



لوجب عليه كتمان أمره وعدم إخبار العدو بالحقيقة، بل لو تمكن من إغوائهم بعبارة لوجب ذلك، وهذه أيضاً من أوجه التقية.

لِمَ تذهب بعيداً، ففي صدر الإسلام حين كن المسلمون يشككون الأقلية، كانوا يكتبون عقائدهم حين وقوعهم في قبضة العدو، لئلا تذهب الطاقات سدى، فالكلم قد سمع قصّة عمار وأبيه، كما أن القرآن أجاز هذه المسألة في العديد من الآيات<sup>١</sup>.

ومؤمن آل فرعون الذي وردت قصته بالتفصيل في القرآن كمثال على ذلك، حيث استخدم أسلوب التقية، وعبر عنه القرآن صراحةً بـ «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» (عافر / ٢٨)

ولا يحير أي عاقل أن يكشف المجاهدون عن أنفسهم في مثل هذه الظروف الحساسة وهم قلة، لئلا يتعرف عليهم العدو بسهولة ويقضي عليهم.

اللطيف هو أن «التقية» قد اعتبرت بمثابة الدرع الواقي بالسبب للمؤمن في الروايات الإسلامية، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «والتقية ترس المؤمن»<sup>٢</sup>

فلو أن أحداً لجأ إلى مكان مبيع في ساحة المعركة يبقى نفسه من ضربات العدو، هل يعدّ مرتكباً لعمل مخالف ياترى؟!

ومن هنا يتضح أنه كلما ابلي أحد بموارد تقية وكنم أمره وعقيدته التي يؤمن بها لمصلحة أهم، أو تحدث على خلافها، فهو فضلاً عن عدم ارتكابه للدس يكون عاملاً بالمباح أو الواجب، وشأن ذلك شأن الكذب لإصلاح ذات البين، أو لإيقاد حياة مؤمن.

واللطيف هو أن القرطبي المفسر السني المعروف، وفي ديل الآية (١٠٦) من سورة النحل حينما يصل إلى مبحث «التقية» يقول «يعتقد كل علماء الإسلام أنه لو أجبر أحد على التفتوه بعبارات الكفر خوفاً على حياته، فلا حرج عليه في ذلك مع اطمئنان قلبه بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم بأحكام الكفر» وبعد تعرضه لقول ضعيف حول

١ راجع (آل عمران / ٢٨) و (النحل / ١٠٦).

٢ وسائل الشريعة، ج ١١، ح ٦، من الباب ٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف ص ٤٦١

الإرتداد الظاهري لشخص كهذا يقول: «هذا كلام ينفيه الكتاب والسنة والقرآن وحديث النبي الأكرم ﷺ».

طبعاً الأنبياء ﷺ في موقع لا يسمح لهم بالتقيةُ بدءاً، أي إنهم لا يكتُمون حقائق الدين بأيّ ثمن، ولا يقولون خلاف الواقع في هذا طريق، وإلا لقيت حقائق دعوتهم خفية، ولزال الإعتماد على كلامهم، ولقد إخبارهم عن 'نوحى السماوي' اعتباره، لكنهم لو ابتلوا بمشاكل شخصية فيحتمل كتمانها من قبلهم، وقد احتفى النبي الأكرم ﷺ في غار ثور أثناء هجرته من مكة إلى المدينة وسلك الأودية والوادي، وسار ليلاً واحتفى بهاراً لئلا يعثر عليه العدو وتعرض حياته المباركة للخطر، هذه كلها كانت تقية ولا معصية في ذلك كله، كما إنه لم يصدر منه ﷺ ما يخالف الحق.

وبهذا يكون قد وصلنا إلى خاتمة مسعى عصمة الأنبياء ﷺ



# المنزلة العلمية





مکتبہ اسلامیہ

## المقالة العلمية للأنبياء ﷺ

لا شك أن قادة المجتمعات البشرية عموماً، والقادة الإلهيين خصوصاً ينبغي لهم أن يتمتعوا بقسط وافر من العلم والمعرفة، وفي شتى المجالات، وبما أن دائرة رسالة الأنبياء ﷺ تشمل بدن الإنسان وروحه، وبصورة أخرى إنها تسع جميع البشر في دنياهم وآخرتهم، فلا بدّ لهم من معلومات جمة لا تشويها شائبة الخطأ والسهو، لكي لا يفقدوا الماس إلى طرق الضلال تحت عنوان سيابهم عن الله، ولينق بهم عباد الله ولا ينحرفوا. ولهذا السبب فقد جهرهم الله وقيل كل شيء بهيلاج العلم والمعرفة، كما شهدت بذلك آيات القرآن الكريم، فالآيات أدناه دليل وضع على هذا المعنى ابتداءً بآدم وانتهاءً بالعمائم.

❦❦❦

١- لقد وهب الله آدم ﷺ علماً ومعرفة حتى أن الملائكة بمقامهم العلمي وإحاطتهم بأمور العالم قد سجدوا له.

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ \* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»

(البقرة / ٣١-٣٣)

ولغرض إكمال هذا البحث لابدّ لنا من معرفة أمور:

### ما هو علم الأسماء؟

للمفسرين كلام طويل حول ماهية علم الأسماء هذا، الذي يعدّ من أعظم المواهب الإلهية لآدم عليه السلام، والمنشأ لفصيلته وافتحاره وبقائه لتسلّم مقام الخلافة الإلهية. فتارة قيل: إنّ المراد به هو علم السموات، في حين أنّ معرفة مجموعة من اللغات لا يمكن أن تكون المنشأ لفضيلة كهذه، فضلاً عن عدم تناسب هذا المعنى مع التعبير الوارد في هذه الآيات، لأنّ التعبير بـ «عَنِبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يبيّن عودة هذا العلم إلى أسرار السماوات والأرضين الخفية، التي بقيت حافية عن أنظار الملائكة وقالوا تارة أخرى: إنّ المراد هو أسماء حجب الله، خصوصاً الأئمة المعصومين الذين كانت أرواحهم مخلوقة من قبل، وقد ورد مثل هذا التفسير في بعض الروايات، لكن من المسلّم أنّ مثل هذه الروايات ليست أكثر من إشارة إلى البعض من المصاديق المهمة لهذا العنوان الكلّي، كما عليه أسلوب الروايات التفسيرية، لا أنّ «علم الأسماء» يحتصر بها.

لكن الكثير من المفسرين قالوا: إنّ المراد من «الاسم» هنا هو «المسمى»، أي أنّ الله علّم آدم كلّ العلوم المرتبطة بالأرض والسماء، وأنواع الصناعات واستخراج المعادن وعرس الأشجار وحواسنها ومناصفها، (أو أنّه تعالى وضعها في كيانه ووجوده بشكل مركّز) وعلى هذا فقد تعرّف آدم على كلّ أسرار نعاله، وهنّ الأرضية لذريته للإحاطة بكلّ هذه الأسرار، فأية فصيلة أسمى وأرفع من النمتع بمثل هذا العلم، وكذلك جعل القابلية على نيّله في متناول أولاده أيضاً.

ولذا نقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «الأسرار والجهال والشعاب والأودية ثمّ نظر إلى بساط تحتة فقال هذا البساط مّا علمه»<sup>١</sup>، (وباختصار كلّ موجودات العالم).

هذا التعبير يبيّن أنّ آدم عليه السلام كان عالماً بكلّ هذه العلوم.

وهناك كلام للمرحوم «العلامة الطباطبائي» في «الميران» حاصله «أولاً يستفاد من تعابير الآية أن هذه «الأسماء» سلسلة أمور عائدة عن العالم السماوي والأرضي، خارج محيط الكون، ولها مفهوم عام واسع أشير إليه بلفظة «كلها» كما أن الضمير «هم» بصيغة الجمع، مشعر بأن كل هذه الأسماء كانت موجودات حية عاقلة مستورة في عالم الغيب»، ثم يضيف قائلاً: «وإذا تأملت هذه الجهات أعني عموم لأسماء، وكون مسعياتها لها حياة وعلم، وكونها غيب السموات والأرض، قضيت باطفاقها بالضرورة على ما أشير إليه في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

(الحجر / ٢١)

وأخيراً يقول العلامة «فحصل أن هؤلاء الدين عرضهم الله على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله، محمولة بحسب العيب، أمر الله كل اسم في العالم بحيرها وبركتها، واشتق كل ما في السموات والأرض من نورها وبهائها»<sup>١</sup>.  
على أنه حال فقد كان «علم الأسماء» عدماً واسعاً محيطاً بكل الحقائق المهمة لهذا العالم.



٢- يقول الله تعالى حول موسى بن عمران عليه السلام:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص / ١٤)

٣- ويقول عن داود عليه السلام:

﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ الَّذِي كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فَتَى فِي رِيعَانِ الشَّبَابِ جَاءَتْهُ الْغُلَامَةُ وَالْمَلِكَةُ وَعَلَّمَهُ بِمَا يَشَاءُ﴾

(البقرة / ٢٥١)

٤- ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام:

١ تفسير الميزان، ج ١ دهل الآيات مورد البحث، يمكن أن يكون مراد العلامة من هذا الكلام المعجل شيئاً شبيهاً بالمثل الاقلاطونية أو القول العشرة.

﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. (الأنبياء / ٧٩)

٥- ويقول عن النبي لوط عليه السلام:

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. (الأنبياء / ٧٤)

٦- كما يكرر نفس هذا المعنى في حق يوسف عليه السلام إذ يقول:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. (يوسف / ٢٢)

ولا بد من الالتفات هنا إلى هذه السكتة، وهي أن لفظة «علماً» قد وردت في هذه الآيات بصيغة «التكررة» وذلك لبيان العظمة التي لا عرف لها حداً وحدوداً

البعض فسّر لفظة الـ «حكم» في هذه الآيات بمعنى مقام «القضاء» والبعض فسرها بمعنى مقام «التبوءة»، وحملها البعض لآخر على معنى العلم الخاص الذي يساعد الإنسان على تمييز الحق من الباطل، وبعبارة أخرى فإن المراد هو العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح، والفصل بين الحق والباطل، لكن بالنسبة يمكن لكل واحدة من هذه المعاني أن تكون شاهداً على المراد.

٧- ويقول حول السيد المسيح عليه السلام:

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. (المائدة / ١١٠)

٨- ويقول حول نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم:

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. (النساء / ١١٣)

٩- وفي موضع آخر وبعد الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام، أي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى

والياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط يقول

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾. (الأنعام / ٨٩)

وبناءً على هذا فقد وهب الله ثلاثة امتيازات مهمة لهؤلاء الأنبياء العظام الثمانية عشر،



لكنها لم تكن تختص بهم فقط بل كانت شاملة لكل الأنبياء الإلهيين ببداية الحال، وهي: «الكتاب السماوي» و «الحكم» و «لنبوة»، طبعاً ينبغي ألا يفهم من هذا الكلام أن كل واحد منهم كان يمتلك كتاباً مستقلاً، بل إن فريقاً منهم كان قد وُحي إليه كتاب، وفريقاً آخر كان حافظاً لكتب السلف.

١٠ - هناك تعبير بليغ آخر يشاهد في آيات القرآن حول هذا الموضوع بالنسبة للنبي الأكرم ﷺ، وخلفائه المعصومين، وهو تعبير «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» حيث يقول القرآن، وبعد تقسيمه للآيات القرآنية إلى «المحكمات» (الآيات الصريحة والواضحة) و«المتشابهات» (الآيات التي ليست كذلك)،

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (أي المتشابهات) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» (ونظراً لعلمهم أسرار آيات القرآن) يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ»

(آل عمران / ٧)

ومعلوم أن هناك حديثاً مفصلاً بين المعصومين لحول تفسير هذه الآية، وأنه هل يجب الوقوف بعد لفظ الجلالة «لله» وفصل جملة «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ». لفهم منها أن الراسخين في العلم يؤمنون إجمالاً بالآيات المتشابهة وإن لم يكن لهم إمام كافٍ بها، أم أن جملة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» مطبوعة على لفظ الجلالة «لله» لفهم منها أن كلاً من الله وكذلك الراسخين في العلم لهم اطلاع بتأويل هذه الآيات، وقد احتربا في التفسير الأمثل الشق الثاني، وذكرنا هناك أربعة أدلة على مدعانا<sup>١</sup>

على أية حال فعبارة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» تدل على أن لهؤلاء العادة العظام سهماً وافرأ من العلم، لأن لفظة «الراسخ» وعلى حد قول صاحب المفردات تعني ثبات الشيء متمكناً، وأن الراسخ في العلم هو المحقق به الذي لا تعترضه شبهة.

فنستنتج من مجموع هذه الآيات بكل وصوح، أن للأنبياء الإلهيين حصّة كبيرة من العلوم والمعارف.

١. يرجى مراجعة التفسير الأمثل، دليل الآية مورد البحث.

## توضيحان

### ١ - حدود علم الأنبياء ﷺ

لا شك في ضرورة تمتع الأنبياء ﷺ بمعرفة تامة بكل أصول الدين وفروعه، وما يرتبط بالمعارف الإلهية، والأحكام، والأحلاق وأسباب سعادة الإنسان وشفائه، وطرق نجاته وهدايته، وذلك لاستلزام مهنة إبلاغ هذه الأمور، وبل أهداف النبوة السامية لمثل هذه العلوم. ومن البديهي عدم إحاطتهم التامة بهذه الأمور يحول دون تحقق المقصود، وحسب التعبير المعروف، فهذه المسائل من انقضاياتي تكون قياساتها معها.

كما يجب أن يكون لهم إلمام بالمسائل التنفيذية والأمور المرتبطة بإدارة المجتمع، وتشكيل الحكومة الإلهية ومسائل من هذا القبيل، وذلك لأن الأنبياء مقام الولاية فضلاً عن جانب التربية والتعليم، ولو لم تنمك من بعضهم حكم هذه المسألة على كل الأنبياء ﷺ، فهذا المقام مما يحكر إثباته لكبار الأنبياء على أقل تقدير، فإبراهيم كان إماماً وقائداً للناس، وكان كل من سليمان وداود وموسى بن عمران ويوسف متصدياً للحكومة عملياً، كما أن نوحاً كان شبيهاً برئيس الحكومة وذلك في ظروف خاصة بعد مسأله الطوفان، والأوضح من الكل هو مقام ولاية وحكومة بني الإسلام ﷺ الذي شكل حكومة إلهية كاملة بكافة أبعادها.

إن ضرورة تمتعهم بالمعلومات الكافية لإدارة هذه الحكومات هو مما لا يحصى، لأن أي خطأ واشتباه منهم في أمر الحكومة سيرك أثر سلبي في مسألة دعوتهم إلى الله، وعلى العكس فالقيادة الصحيحة للحكومة ستكون تسبب في نجاحهم في هذه المهمة.

ويمكن إثبات هذين القسمين من العلوم ومعارف - الدينية والحكومية بالدليل العقلي، باعتبار عدم ضمان الهدف من البعثة لو لم يكن للأنبياء اطلاع عليهما.

لكن هل يلزم عقلاً أن يكون الأنبياء والأئمة المعصومون مطلعين على العلوم الأخرى، التي لا ترتبط بأهدافهم مباشرة؟ مثلاً هل يجب أن يكون لهم اطلاع بعلم الطب والرياضيات والأعشاب والنجوم والهيئة وسائر العلوم؟

بعبارة أخرى هل يلزم أن يكون لهم إلمام بكافة العلوم على مستوى إلمام الأخصائي وما فوقه - الدكتوراه وما فوق ذلك - لا مجرد المعلومات العامة التي يحتاجها كل قائد؟ يعتقد البعض بعدم وجود أدلة عقلية على ثبوت مثل هذه العلوم الكثيرة للأنبياء، مهما تم الاستشهاد بالآيات والروايات كأدلة نقيية على اتساع دائرة علومهم في شتى المجالات. وبعبارة أخرى: فعلوم الأنبياء ﷺ الضرورية لهم هي ما سمت الإشارة إليها طبقاً للأدلة العقلية، لكن عند الاستدلال بالأدلة العقلية تتسع مسأله علومهم بشكل أكبر ولا مانع من عدم لزوم هذه العلوم لهم عقلاً، لأن الأدلة النقية تثبت لهم هذه العلوم من باب الفضيلة والكمال، نظراً لإمكان هذه العلوم من إضفاء عظمة أكبر عليهم، ومن الإسراع في تقبل الناس لدعوتهم.

## ٢ - القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء ﷺ

ومن جهة أخرى فلا يمكن إنكار هذه الحقيقة وهي ارتفاع الحجب عن قلوب الأنساء، بسبب سمو هوسهم وتهذيبهم الكامل ليقف وتصفيه قلوبهم من الشوائب، وأن هذه المعرفة وإن لم تكن ضمن شروط النبوة لكنها تعتبر ضرورية في سلم الكمال كما لا يخفى. وبعبارة أخرى، فإن مسألة نقص لمرص شيء، ومسألة قدرة هوس وعقول الأنبياء يمثل شيئاً آخر، ولو أننا عجزنا عن إثبات ما رده عماله علاقة بعالم الشريعة والتربية وإدارة المجتمع الإنساني، فبالإمكان إثباته بالطريق الثاني ويمكن لآيات القرآن أن تكون دليلاً حاسماً على هذه المسألة أيضاً، إذ قد تمت الإشارة في القرآن، بالإضافة إلى مسألة الأسماء التي وهبت لآدم والتي اتسع نطاقها بما يفوق الحد - كما علمنا - إلى موارد أخرى من علوم مختلف لآبياء الإلهيين، والتي لا تبدو حسب الظاهر لازمة لمسألة التشريع وبيان أحكام لدين، لكنها تعد الأساس لكمالها. لاحظ الآيات الآتية المرتبطة بهذا الموضوع.

١ - ﴿تَقْرَأُ عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُخْصِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ»﴾.

(الأنبياء / ٨٠)

«البوس» يعني في الأصل كل أنواع لأسنة، لكنه استعمل هنا في خصوص ملابس المعركة كالدرع مثلاً. ولكن بعض رباب تنعة كاهن منظور في لسان العرب وبعض المفسرين كالمرحوم الطبرسي في مجمع البيان قالوا في ذيل هذه الآية: كل أنواع السلاح (الأسلحة الهجومية والدفاعية)، إذ إنه يصدو بحققها استعمالها للدفاع في الحروب التي اشهر إليها في الآية وإن كانت ظاهرة في الدرع كما هو واضح.

ذكر بعض المفسرين أنهم وقل دود <sup>١</sup> كانوا يربطون بأبدانهم صفحات حديدية رقيقة لوقاية أنفسهم من ضربات الأعداء، (وأن هذا العمل كان شاقاً وصعباً للغاية، وأن أول من صنع الدرع من الحلقات الصغيرة المرتبطة ببعضها البعض هو نبي الله داود الذي حطّر على باله هذا الشيء بإلهام إلهي<sup>١</sup>).

وقد ورد في هذا المعنى بتعبير أشمل في موضع آخر إذ يقول تعالى: «وَأَنْشَأَ لَهُ الْحَدِيدَ \* أَنْ اغْمِثْ سَابِقَاتٍ وَقَسِّمْ فِي السَّرْدِ وَأَضْمُوا صَالِحاً» (سبا / ١٠ - ١١) «السابقات» جمع «سابع» الذي يمتلي الدرع الكامل العريض بالصبط، كما أن «إسباع النعم» يعني وفورها و «إسباع الوضوء» يعني كثرة ماء الوضوء.

«السرد» يعني في الأصل غزل لأشياء بحشة، وقد ورد في جملة «وتقترني السرد» الأمر برعاية الأحجام الملائمة لحلقات الدرع وكيفية عزلها

وبهذا بين أن الله قد ألان له الحديد بالإضافة إلى تعليمه لصون غزل الدرع الكامل هل كان الحديد يلبس في يد داود كالشمع؟ أم أن الله قد علمه طريقة إذابة الحديد وصناعة القصبان الحديدية الدقيقة والتميه؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون لبس الحديد في يده معجزة إلهية، أم أن الله علمه لأسلوب الخاص لإذابة الحديد، والذي لم يكن معروفاً حينذاك؟ أيّاً كان فقد علم الله د ود كيفية صناعة القصبان المناسبة واستبدالها بحلقات الدرع القوية وسحبها، وكانت نتيجة ذلك هي صناعة ثوب سهل ارتداؤه مع مرونة حركته، طبقاً لحركات بدن الإنسان وأعضائه، لا كصفحات الحديد القوية التي يتعذر

١ تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ٢١ وتفسير في ظلال القرآن ج ٥، ص ٥٥٢.

تطويعها والتي تحقّد المعاتلين فتجعلهم وكأنهم في قصص.  
وهنا ملاحظة لابد وأن تؤخذ بنظر الاعتبار وهي أن داود عليه السلام حينما كان يلين الحديد بيديه كان يرجّح صناعة المعدات الدفاعية على الهجوم كالسيف مثلاً.  
على أية حال فمع أن عدم الإلمام بصناعة آية دفاعية مهمة ومصيرية، في حروب ذلك الزمان لم يكن بتلك الأهمية، بحيث يحدث خللاً في دعوة النبي الدينية، لكن الله علّمه هذه الصنعة وبقيت رائحة بين الناس.

﴿١٦﴾

٢ - نقرأ فيما يتعلق سليمان عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثِقْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل / ١٦)

هذا في الواقع جزء من العلم العظيم الذي وهب الله لداود وسليمان، والذي جاء في الآية السابقة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾.

بديهي أن الإطلاع على منطق الطير (مجاورات الطيور) بأى معنى كان ليس من شروط النبوة، وفي نفس الوقت فالقرآن يصرّح بأن الله تعالى كان قد وهب سليمان عليه السلام علماً كهذا، بل أشار أيضاً في آيتين لاحقتين إلى معرفة سليمان بمنطق النمل: ﴿وَخَقِّ إِذَا اتَّوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل / ١٨ - ١٩)

وكما نقرأ حوار سليمان مع الهدهد في الآيات اللاحقة كذلك: ﴿وَتَقَفَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَا...﴾ (النمل / ٢٠ - ٢٨)

مع أن هناك أبحاثاً كثيرة تبحث في تفسير هذه الآيات، أنه هل لهذه الطيور كالهدد والحشرات كالنمل ذلك المستوى من العقل والشعور، بحيث تدرك مفاهيم الكلمات

والجمل وتحدث بشكل منطقي؟ وهل أن أسلوب محاوراتها يتم بالألفاظ أم من خلال حركات تعكس المراد؟ (ذكرنا ذلك مفصلاً في التفسير الأمثل)<sup>١</sup>.

لكن تفسير هذه الآيات أيّاً كان فلن يؤثر على الهدف الذي يعبه هـ، لأن المراد هو وجود سلسلة من المعلومات التي تحرق أعدة عند لأنباء، وعدم وجودها عند الناس العاديين، مع عدم كونها من شروط النبوة في نفس الوقت

✽✽✽

٣- وحوّل يوسف ﷺ جاء في العديد من الآيات أن له علماً حارقاً للعادة في تفسير الأحلام.

ففي أحد المواضع يبشّره أبوه يعقوب ﷺ بأنّ الله سيعتارك ويعلمك من تفسير الأحلام: **«وَكَذَلِكَ يَحْكِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»**. (يوسف / ٦)

وفي موضع آخر حينما يدور الحدث حول محبّي يوسف ﷺ إلى قصر عزيز مصر يقول القرآن الكريم **«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»** (يوسف / ٢١)

ويحدث في موضع آخر عن تفسير يوسف ﷺ لرؤيا السجينين، وقوله لهما: **«ذَلِكَ بِمَا عَظَّمْتَ رَبِّي»**. (يوسف / ٣٧)

وأخيراً حينما يدور الحديث عن ابتهاج يوسف ﷺ ومساجاته لحالقه بعد تصديده لمقام الحكومة، ولقائه بأبيه وأمه وأخوته، يقول القرآن الكريم على لسان يوسف ﷺ: **«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»**. (يوسف / ١٠١)

مع أن البعض من المفسرين قد ذكروا احتمالاً آخر غير تفسير الأحلام فيما يتعلق بعبارة **«تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»** وقالوا إن المراد هو تعليمه أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن

١- راجع التفسير الأمثل، ديل الآيات مورد البحث.

الأنبياء ﷺ<sup>١</sup>، لكن ومع الأخذ بنظر الاعتبار مجموع الآيات الأربع أعلاه ونقطة «التأويل» التي تتلاءم كثيراً مع تفسير الأحلام، بالإضافة إلى قرائن أخرى يكون المراد هو نفس علم تفسير الأحلام وهو مختار الكثير من المفسرين أيضاً<sup>٢</sup>

ومع أن علم تفسير الأحلام لم يحض بتلك لأهمية عند البعض، لكنه يعدّ من الحقائق، وذلك للشواهد والقرائن العينية الكثيرة التي تحفّ بهذا الموضوع، كما أن بإمكانه كشف اللثام عن بعض العوامض لدى إلمام به وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل في التفسير الأمثل ديل الآية السادسة سورة يوسف ﷻ.

كما أن القرآن قد أبدّ صحته ذلك أيضاً وذكر لذلك مثلاً عجيماً، ويبيّن أن مستقبل بلاد كبيرة كمصر قد تعيّر عن طريق تفسير يوسف ﷻ للرؤيا بصورة دقيقة، كما أن نفس هذا التعيّر قد ترك أثره في مستقبل يوسف ﷻ أيضاً وأوصله إلى أرفع المناصب الحكومية في مصر.

ولا شك أن علم تفسير الأحلام بمنطق العقلي ليس بذلك الشيء الذي يرتكز عليه أسس الرسالة، لكن مع ذلك فقد وهب الله قسماً والفرأ عنه ليوسف ﷻ

❦❦❦

٤- وحول موسى ﷻ أيضاً يشاهد هذا نغمي بوضوح في القرآن، حيث أن قصة «الحضر» و«موسى» وبذلك التفصيل لرائع وبلغ، لذي جاء في سورة الكهف (وإن لم يصرّح القرآن باسم الخضر) تبين وجود علوم لدى الحضر كانت غائبة عن ذهن موسى، وأنه جاء إلني «الحضر» ليتعلّم قسماً منها

هذه العلوم ليست أموراً مرتبطة بالشرعية وأصول الدين وفروعه، بل هي حقائق مرتبطة

١ تفسير روح المعاني ج ١٢، ص ١٨٦، نفس هذا التفسير عن البعض من المفسرين كما أن المفسر الكبير الطبرسي ذكر ذلك كأحد الأقوال في ج ٥، ص ٢١٠. ديل الآية السادسة من سورة يوسف.

٢ تفسير مجمع البيان ديل الآية ١٠١؛ وتفسير روح المعاني ديل الآية ١٢١ وتفسير القرطبي ديل الآية ١٦ وتفسير روح البيان ديل الآية ١٦ وأخيراً تفسير في ظلال القرآن ديل الآية ١٠١ من سورة يوسف.

بتكوين الإنسان وحياته، مثل تلك السفينة التي كانت لهريق من المستضعفين، والتي خرقها الخصر ليحول دون عصبها من قبل الملك لظلم، أو شاب الذي قتله الخضر لأنه سوف يكون سبباً في انحراف أبويه المؤمنين مستقبلاً، أو الحداد الذي كاد ينقص حيث قام الخضر بترميمه حفاظاً على كثر الأيتام الموجود تحته.

فإن الخضر كان يسعى دائماً بأسلوبه الخاص لمساعدة المظلومين والمؤمنين، في حين كان تصرفه هذا ينظر موسى خاطئاً وغير مطابق للمورين الشرعية، وذلك بسبب عدم اطلاعه على بعض الحقائق التي كانت محجوبة عنه، ولذا كان يعصب كثيراً حتى أنه نسي أكثر من مرة عهده الذي أعطاه للخضر، بعدم الاعتراض على ما يفعله قبل بيابها واعتراض عليه بشدة، ثم اعتذر منه بعد التفاته إلى ذلك.

هذه القصة بكل نكاتها اللطيفة تؤكد على حقيقة أن موسى ﷺ كان يصدد تعلم مثل هذه العلوم من الخضر ﷺ بأمر من الله، في حين أن هذه العلوم لم يكن لها دخل في مسأله إيلاغ النبوة، بل تعتبر سبباً في تكاملها لأنها تعني التعمق في المسائل بشكل أكبر.

ولو اعتبرنا الخضر نبياً (نظر ألو سود الخلاف بين المفسرين والمحدثين حول نبوته) فنصل إلى هذه النتيجة أيضاً وهي أن هذه علوماً لدى الخضر وراء علوم الشريعة، وبديهي أن اطلاع الأنبياء ﷺ على هذه الحقائق يعني أن الله تعالى قد جهزهم بعلوم كثيرة، لتكون لهم قدرة أكبر على هداية الحق ورسه لطريق ليل المطلوب، وإن كانت هذه العلوم بعيدة كل البعد عن الشروط القطعية للنبوة.



مصادر

علم الأنبياء

در تحقیق کتب و روایات



تجربہ نامہ

## مصادر علم الأنبياء ﷺ

١- يتلقى أسياؤه الله ﷻ حقائق علومهم بدرجة أولى عن طريق الوحي، الذي ينزل عليهم أحياناً عن طريق «ملك الوحي»، كما نقرأ ذلك في الآية (١٩٢ - ١٩٥) من سورة الشعراء «وَإِنَّهُ لَكُنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ • بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»، أو عن طرق أخرى، فهناك أنواع وطرق متعددة للوحي وسيأتي تفصيلها في محله إن شاء الله.

٢- الطريق الآخر لعلوم الأنبياء ﷺ هو الارتباط الروحي والمصوي بعالم القرب، فلقد جعل الله تعالى حقيقة أبصارهم بدرجة أنها احترقت بحجب عالم القرب لتحد سبيلها إلى ما وراء ذلك، كما يقول تعالى بالنسبة لإبراهيم الحليل عليه السلام «وَكَذَلِكَ نُبَيِّنُ لِإِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (الأنعام / ٧٥)

أجل فقد كانت لهم معرفة بعالم «الملكوت»، فضلاً عن معرفتهم بعالم «الملك»، وقد تلقوا الكثير من علومهم عن طريق المشاهدة المسمية والباطنية للملكوت، وبعبارة أخرى فإدراكاتهم وأبصارهم هي غير تلك الظاهرية التي عندنا، وقد توصلوا عن طريقها إلى حقائق كثيرة.

٣- الطريق الثالث هو السير ومشاهدة لآفاق الذي عرض للبعض من الأنبياء بأمر من الله عز وجل، حيث أطلعوا عن هذا الطريق على العوالم المختلفة لهذا الكون، بالضبط كما حدث ذلك لنبي الإسلام ﷺ في مسألة المعراج، يقول القرآن «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (الاسراء / ١)

كان هذا في الواقع القسم الأول من المعراج، أما القسم الثاني فهو الذي يبدأ من المسجد الأقصى باتجاه السماوات، والذي أشير إليه في آيات سورة النجم إذ يقول تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾. (النجم / ١٨)

وهو مضافاً إلى هذه الآيات الشريفة انني تذكر المعراج بشكل مجمل، نجد أن الأحاديث الإسلامية قد ذكرته بشكل تفصيلي، إذ ينشئ من مجموعها بكل وصوح الحجم العظيم من المعلومات التي حصل عليها رسول الله ﷺ، من ذلك السفر الليلي السماوي وهو المعراج.

وكذلك الأنوار البهية التي أشرقت على نفسه، رفعت مقامه العلمي مما هو عليه إلى أعلى عليين.

٤- الطريق الرابع وهو المستفاد من عدة آيات في القرآن بأن هناك حقيقة باسم «روح القدس» كان برفقة الأنبياء يؤيدهم ويقوِّمهم ويرشدهم في مسيرهم

وردت لفظة «روح القدس» في القرآن المجيد أربع مرات، مرة في حق عيسى وأخرى في حق نبي الإسلام ﷺ يقول القرآن في حق السيد المسيح ﷺ ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأُتِدَّتَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة / ٨٧)

وحول تكلم عيسى ﷺ في المهد يقول: ﴿إِذْ أُتِدَّتْ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾. (المائدة / ١١٠)

ونقرأ عن نبي الإسلام ﷺ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. (النحل / ١٠٢)

لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمة «روح القدس»، أحدهما أنه ملك الوحي جبرئيل ﷺ والآخر هو القوة الغيبية المجهولة التي ترشق الأنبياء ﷺ، فالآية المرتبطة بنبي الإسلام ﷺ تناسب المعنى الأول، وآيات المرتبطة بالسيد المسيح تناسب المعنى الثاني، فهو الذي أيد المسيح ﷺ في تكلمه بالمهد أو في إحيائه للموتى.

هذا الروح المقدس والطاهر، كان المبع لابتهامات عظيمة للأنبياء ﷺ، بل وحتى

يستفاد من بعض تعابير الروايات أن روح القدس يرافق الأفراد المؤمنين أيضاً (طبقاً لسلسلة مراتب الإيمان)، وهو الذي يؤيد الخطباء الصالحين والشعراء المؤمنين في خطبهم وقطعهم الثرية وقصائدهم العملاقة، كما يمد المؤمنين الحقيقيين بالعزم على اتخاذ التصاميم المصيرية.

ويبدو في الكثير من الروايات أن روح القدس حقيقة عند الأنبياء والأئمة المعصومين ﷺ، وأنهم قد أدركوا بوسيطته الكثير من الحقائق، من جمعتها ما جاء في الكثير من الروايات أن الأئمة المعصومين ﷺ كانوا يستمدون العون من روح القدس عند القضاء والإفتاء.

هذا التعبير ورد بحق «حسن بن ثابت» حيث قال له النبي الأكرم ﷺ: «لن يزال معك روح القدس ما فهمت عنه» (سبعة البحار، مادة كميت)

كما جاء في حق الكميت شاعر أهل البيت ﷺ المعروف، من أن الإمام الباقر ﷺ قال له: «لا تزال مؤيداً بروح القدس» وورد طر هذا المعنى في حق دعبل الخزاعي أيضاً، وذلك عندما ألقى القصيدة المعروفة «مبارك آيات» في مجلس الإمام الرضا ﷺ، وحينما وصل إلى هذا البيت حول ظهور المهدي ﷺ:

خروج إمام لا محالة واقع يقوم على اسم الله والبركات

يكى الإمام الرضا ﷺ كثيراً ثم قال: «يادعبل نطق روح القدس على لسانك، هل تعلم من هذا الإمام؟ قال دعبل: كلاً، لا أعلم سوى ما سمعته من أن إماماً منكم سيظهر ويملا الأرض قسطاً وعدلاً. فأيد الإمام الرضا ﷺ كلامه وتحدث بشيء من التفصيل عن ظهور المهدي، باعتباره الخليفة الثاني عشر للرسول ﷺ (لغدير الحراء ٢ الصفحة ٣٥٥).

وفي حديث عن الإمام الصادق ﷺ قرأ أن أحد أصحابه سأله: تسألون عن الشيء فلا يكون عندكم علمه؟! قال الإمام ﷺ: «ربما كان ذلك!».

قال الراوي: كيف تصنعون؟

قال الإمام عليه السلام: «تلقانا به روح القدس»<sup>١</sup> (يعني لقينا)

نقرأ في حديث آخر: أن أحد أصحاب إمام الباقر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم (المراد به النبي والإمام المعصوم)

فقال عليه السلام: «يا جابر إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح

الإيمان... فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إنني ما تحت الثرى»<sup>٢</sup>.

كما ورد في رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً حول تفسير الآية: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا...» أنه عليه السلام قال: «منذ أنزل الله ذلك الروح على نبيه ما صعد إلى السماء وإنه لدينا»<sup>٣</sup>.

هذا التعبير يبين أن الروح الذي يشكل أحد المسابع الرئيسية لعلوم ومعارف النبي

الأكرم عليه السلام، والأئمة المعصومين عليهم السلام ليس جبرئيل، وأنه حقيقة كاملة في وجودهم قد انتقل

من النبي الأكرم عليه السلام إليهم واحداً بعد الآخر

٥ - الطريق الخامس لمسابع علومهم هو سبيل الطارق والذي أودعه الله عز وجل عند

الأنبياء وأوصيائهم المعصومين عليهم السلام، نظراً لإمكانية إدراك الكثير من الحقائق عن طريقه.

عقل ومعرفة الناس العاديين بصيء شعاعاً خاصاً في حين أن عقول الأنبياء والأوصياء لها

امتداد واسع جداً. وهذا هو السبب في كشفهم لحقائق لا يدركها الآخرون.

لذا نقرأ في قصّة ليلة المبيت (الديلة) التي هاجر فيها النبي سرّاً من مكة إلى المدينة

وترك عليّاً عليه السلام في فراشه) أنه حينما افتحه أشرف قريش المنزل عند الفجر، ووجدوا

عليّاً عليه السلام في فراش النبي الأكرم عليه السلام صاحوا: أين محمد؟

قال عليه السلام: «أعجلتموني عليه رقيباً؟ أستم فنتم بعرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم،

وهنا قال «سراقه بن مالك المعرومي» الآن حيث لا يوجد محمد عليه السلام فلا تركوا عليّاً عليه السلام

١ بحار الأنوار، ج ٢٥، كتاب الإمامة، ص ٥٦، ح ١٩، كما ورد نفس هذا المعصوم في ح ١٨ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أيضاً

٢ المصدر السابق، ص ٥٥، ح ١٥، كما ورد نفس هذا المعنى بتفاوت ضئيل في الأحاديث ١٤ و ٢٥ و ٢٦

٣ المصدر السابق، ص ٦١، ح ٣٧.

وأريحوا العالم من وجوده، قال أبو لهب كفوا عنه، فهو محدوع من محمّد وقد أفدى نفسه له.

حينئذ التفت علي عليه السلام إلى أبي جهل وقال «يا أبا جهل بل الله قد أعطاني من العقل ما لو قسم على جميع حقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء، ومن القوة ما لو قسم على جميع ضغفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسم على جميع جناء الدنيا لصاروا به شجعاناً، ومن العلم ما لو قسم على جميع سفهاء الدنيا لصاروا به علماء»<sup>١</sup>.

فحينما يتمتع علي عليه السلام بهذه المرتبة من العقل والمعرفة فمن المسلم أن يتمتع النبي الأكرم ﷺ بمثل هذه الموهبة العظيمة بطريق أولى كما أن حياة الأنبياء تبيّن أن لهم من العقل والمعرفة ما يحرق العادة، وهذا نفسه هو أحد المسابع المهمة لعلومهم ومعارفهم.

٦- الطريق السادس والمصدر الأخير هو العلوم التي ورثوها خلعاً عن سلف، ولديها أدلّه كثيره على أن الأنبياء ﷺ قد نقلوا علومهم وتعارفهم إلى الأنبياء الآخرين أو إلى أوصياتهم وأورثوها إياهم

قال فريق من المفسرين في تفسير الآية «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ» (النمل / ١٦) «الارث» هنا يعني إرث علم ومعرفة ذلك السلف، أو أنه يعني مطلق التوارث الشامل للعلم والمعرفة أيضاً.

كما أن بعض المفسرين اعتبر توارث انعم في قصة زكريا عند تفسير الآية ٦ من سورة مريم: «يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ» دخلاً في المفهوم الجامع للآية<sup>٢</sup> كما نقرأ في العديد من الروايات أن العموم التي وهبها الله لآدم (علم الأسماء) لم تعب عن الوحود، بل ورثها أولاده المنتجبون!

من جعلتها ما نقرأ في رواية عن الإمام باقر عليه السلام «إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي نَزَلَ مَعَ آدَمَ لَمْ يَرْفَعْ

١ بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٨٣

٢ من جعلتهم الأكوسي في تفسير روح المعاني، والسيد قطب في تفسيره في حلال القرآن.

والعلم يتوارث، وكان علي عالم هذه الأمة، وأنه لم يهلك مثا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم علمه أو ما شاء الله<sup>١</sup>.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أما إن محمداً صلى الله عليه وآله ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين»<sup>٢</sup>.

كانت هذه المصادر الستة بمجموعها السبب وراء اطلاع الأنبياء الإلهيين، ليس فقط على المسائل المرتبطة بمعارف الدين وأحكام شريعته، بل وكذلك على العلوم والمعارف الأخرى الأعم من كونها ذات تأثير مباشر في أداء مهنة الرسالة، أو غير مباشر في تكميل أهداف النبوة (تأمل جيداً).

❦❦❦

١ أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٢، (باب أن الأئمة عليهم السلام ورثة العلم) ح ٢، كما ورد نفس هذا المعنى في ح ٤ و ٥ و ٨ من نفس ذلك الباب، ويتنص هذا السؤال الحديث المتطافر نسقوله عن أئمة أهل البيت بأشياء مختلفة.

٢ المصدر السابق، ص ٢٢٤ (باب أن الأئمة ورثوا علم النبي)، ح ٢



الأنبياء ﷺ

وعلم الغيب



تجربہ نامہ

## تمهيد:

لفظة «الغيب» تقابل «الشهود»، وأنشود يطق على الموارد التي يكون فيها الشيء قابلاً للإحساس والمشاهدة، وبهذا فالغيب يطلق على كلٍّ، للأمور الخافية عن شعور الإنسان، ولذا ورد في البعض من الآيات القرآنية تعبير «الإيمان بالغيب» عند التطرق للإيمان بالله واليوم الآخر «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» (البقرة / ٣)

وفي موضع آخر يصف القرآن المتقين «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» (الأنبياء / ٤٩)

بل وحتى يمكن أن يعد الشيء «وَصَعْباً مُحْسوساً لغيره» وغير محسوس لآخر وذلك لعدم حضوره في ذلك المكان حيث يطلق «الغيب» على ذلك أيضاً، كما قرأنا في قصة يوسف عليه السلام أن امرأه مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف في غيابه أضافت قائلة: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» (يوسف / ٥٢)

بعد هذا يدور الكلام حول الأنبياء الإلهيين وهل أنهم مطلعون على أسرار الغيب والأمور الخافية عن حواس الإنسان (الشامخ للمحسوس غير الحاضر، أو غير المحسوس أصلاً) أم أن علم الغيب يحتض بذاته تعالى، وأنه لا سبيل لسواه إليه أبداً؟

تبدو آيات القرآن وللوهلة الأولى وكأنها على قسمين متعاقبتين: القسم الأول يعتبر علم الغيب خاصاً به تعالى، والقسم الآخر يقول بإمكانه لعبه أيضاً، ولغرض الإجابة على السؤال أعلاه لابد من مراجعة هذه الآيات أولاً، ثم التطرق لكيفية الجمع بينها.

أما بالنسبة للقسم الأول فالآيات الآتية مفعلة للنظر:

- ١- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». (الأنعام / ٥٩)
- ٢- «قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». (يونس / ٢٠)
- ٣- «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ». (النمل / ٦٥)
- ٤- «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (الأنعام / ٥٠)
- ٥- «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ». (الأعراف / ١٨٨)
- ٦- «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». (الأنعام / ٧٣)

### جمع الآيات و تفسيرها

اعتبر علم الغيب في هذا القسم من الآيات التي وردت بتعابير شتى خاصة بالله تعالى وأنه لا سبيل لغيره إليه

قال تعالى في الآية الأولى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ»  
 إن تقديم طرف المكان (عنده) في أول الآية دليل على الإحصار، وكذا دليل الآية الذي  
 يصرح قائلاً: لا يعلمها إلا هو.

المفاتيح جمع «مِفْتَاح» (على وزن منجل) بمعنى المصباح، وجمع «مَفْتَح» (على وزن دفتر) بمعنى الحزائنة ومحل حفظ الأشياء<sup>١</sup>، وقد ذكر المفسرون كلا المعنيين للآية، إذ قالوا تارة: إن كل حرائر الغيب عند الله، وأخرى كل مفاتيح الغيب، لكن نتيجة كليهما واحدة وإن اختلفت العبارات.

وقد اعتبرها بعض المفسرين، واستناداً إلى ما جاء في صحيح البخاري في تفسير الآية، إشارة إلى الأمور الخمسة الواردة في آخر سورة لقمان، لكن لا يخفى أن مفهوم الآية أوسع من ذلك بكثير، بحيث يشمل كل حرائر الغيب ومعانيه.

ويبدو أن ما جاء في الرواية حول آخر سورة لقمان كان بياناً لمصاديق جليلة له، ولذا أشار في دليل الآية مورد البحث إلى كل الأورق الساقطة من الأشجار، والحبوب في باطن

الأرض، وكل رطب ويابس في عالم الوجود، واعتبرها ثابتة في اللوح المحفوظ، لوح علم الباري تعالى.

❦❦❦

وفي الآية الثانية كان الخطاب موجهاً إلى نبي الإسلام ﷺ. «قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِرَبِّهِ» وكان هذا في معرض الجواب عن سؤال مشركين الذين يستحجبون على النبي الأكرم ﷺ بإظهار المعجزات (المعجزات التي كانوا يقترحونها هم بأنفسهم من باب الإصرار والعباد للتذرع بها متى ما شاءوا)، وبناءً على هذا فالقرآن يقول للنبي ﷺ: تخلى عن مسؤولية مثل هذه الأمور، إنها من أسرار الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ومتى ما شاء فسيصدر أمره، فلا تستسلم أبداً لرغبات المتكبرين المحمليين.

❦❦❦

ونفس هذا المعنى جاء في ثالث آية ومظهر آخر حيث إن الله تعالى يعلم نبيه ﷺ ماذا يقول لأهل الصحيح الذين يصرون على السؤال عن موعد يوم القيامة، فيأمره أن يقول لهم: إن هذا من أسرار الغيب وأنه لا أحد في السماوات والأرض يعلم الغيب، وموعد يوم القيامة ومتى يكون البعث؟ «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

صحيح أن مورد نزول هذه الآية هو يوم القيامة، لكن مفهومها أوسع بل شامل لكل العيوب.

❦❦❦

وفي رابع آية يأمر الله نبيه بصراحته «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَايُوحَى إِلَيَّ»

هذا الكلام أيضاً كان ردّاً على المشركين المعاندين، الذين يطلبون منه كل يوم معجزة ثم لم يقتنعوا حتى بمشاهدتها، كما كانوا يطلبون منه أن يطلعهم على أسرار الغيب. واعلم جيداً أن جملة «إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ» الواردة في ذيل الآية هي إحدى المفاتيح لحلّ غوامض علم الأنبياء ﷺ، ونبي سنكتّم عنها بالتفصيل إن شاء الله. كما ورد نظير هذا المعنى وبتفاوت ضئيل في الآية: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ». هذا التفاوت هو أن الأولى كانت على لسان نبي الإسلام ﷺ والثانية على لسان نوح عليه السلام.



ونلاحظ في الآية الخامسة تعبيراً جديداً حول هذا الموضوع، حيث يؤمر النبي بنفي علم الغيب عن نفسه باستدلال لطيف، «يَا مَرْءَ اللَّهِ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» مع أن هذه الآية قد جاءت بعد الآية التي تتحدث عن موعد يوم القيامة، وانحصار علمه بالله تعالى، لكن مفهومها واستدلالها أوسع كثيراً. ومن البديهي أن الكثير من الصافع التي نفوت الإنسان أو الأصرار التي تلحق به ناشئة من عدم وقوفه على عاقبة الأمور وأسرار الغيب، ولو كان له اطلاع عليها لتجنب شرّها ولجلب لنفسه خيرها، فمجّره عن ذلك دليل على عدم اطلاعه على أسرار الغيب.



في سادس آية يعتبر علم الغيب إحدى صفات الحاصّة بالله تعالى حيث يقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»

هذا التعبير الذي ورد في عدّة آيات من القرآن<sup>١</sup> باعتباره إحدى الصفات البارزة لله

١ الأنعام، ٧٣؛ التوبة، ٩٤ و١٠٥؛ الرعد، ٩؛ المؤمنون، ٩٢؛ السجدة، ٩٦؛ الزمر، ٤٦؛ العنكبوت، ٢٢؛ الجمعة، ١٨؛ التغابن، ١٨.

تعالى، يبيّن أن الله وحده هو المحيط بغيب وشهود الكون، حيث إنها ذكرت كصفة خاصة وفي مقام المحصر، فيستفاد منها أن غيره تعالى حتى لأنبياء لم يكونوا مصاديق لـ «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».

ومع أن المفسرين قد ذكروا عدة احتمالات لتفسير هذه الآية، إذ فسرّها بعضهم بـ «عالم السرّ والعلانية»، والبعض الآخر بـ «ما كان وما يكون»، وثالث بـ «العالم بالدنيا والآخرة»، ورابع بـ «العالم بما هو ظاهر لخلقهم وما هو خفي عنهم»<sup>١</sup>، لكن من الواضح أن كلّ هذه قد وردت حول معنى الآية بصيغة الجمع، لأنّ كلمتي «الغيب» و«الشهادة» اللتين تعيان ههنا العموم، والمذكورتين بـ (الف ولام جنس)، شاملة لكلّ الغيوب والشهود الأعمّ من السابقة واللاحقة، الدنيا والآخرة، السرّ وأخفى، السماوات والأرض، الماديات والمجردات

ومع أنّ هذا التعبير في الآيات العشر المشار إليها قد ذكر في كلّ مناسبة لعرص معيّن، وأنّ القرآن استنتج من كلّ مورد تسعة، لكن مفهومه في كلّها واحد، وهو الإحاطة العلمية لله بأسرار الغيب والشهادة الخاصة بذاته العفديّة.



### النتيجة:

يمكن الاستنتاج بوضوح من مجموع العبارات، لست أعلاه والتي تكرر بعضها في القرآن أنّ علم الغيب والإحاطة بالأسرار لعصمة خاصّ بذاته تعالى.



والآن نذهب وراء القسم الثاني من الآيات والتي تعطي الأنبياء ﷺ سهماً من علم الغيب، إذ ينبغي التحقيق فيها جيداً ليتّضح تدليل على عدم تصادفها مع آيات القسم الأول

١، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٥٢٤، ديل الآية ٢٢ من سورة العنكبوت

المخفية بين ثنايا نفس هذه الآيات:

١- «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَنْ غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رَحْدًا \* لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَهْبَتُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَخَاطَبَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا»  
(الجن / ٢٦ - ٢٨)

٢- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ»  
(آل عمران / ١٧٩)

٣- «وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»  
(آل عمران / ٤٩)



### جمع الآيات وتفسيرها

وصف الله في أول آية بآية «عَالِمُ الْغَيْبِ» المطلق، أي المطلع على كل الأسرار العجيبة، يقول تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ» ثم يستثنى قائلا: «إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» أي أن الله يطلع مثل هؤلاء الرسل على ما يشاء من أسرار العيب، وبإزاء على هذا فهم بأنفسهم لا يعلمون شيئا عن العيب، بكنهم يصنعون عليه بتعليم إلهي.

ثم يضيف: «فَأِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفَهُ رَحْدًا» (ليحفظه من كل انحراف). هذا التعبير دليل على مقام عصمة الأنبياء، وكذلك تأكيد على علمهم بأسرار العيب هذا طبعاً في حالة كون «رَحْدًا» بمعنى «المراقب» أو «المراقبين» من الملائكة الإلهيين، لكن هناك تفاسير أخرى أيضاً لهذه الجملة، من جملتها أن المراد بـ «رَحْدًا» هو الطرق التي رسمها للماضين، أو الذين سيأتون في المستقبل و (جملة «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» إشارة إلى الحوادث السابقة و «وَمِنْ خَلْفِهِ» إشارة إلى الحوادث اللاحقة) وقيل أحياناً إنه إشارة إلى الحفظة من الملائكة الذين يحفظون الأنبياء من شر الأعداء<sup>١</sup>.

١. يجب ألا يفوتنا أن «الرصد» يعني في الأصل المراقبة الذي يكمن في موضع لمراقبة الأحداث عن كشف أي الاستعداد للترقب وربما كان إطلاق هذه اللفظة على الطريق لنفس هذا السبب، وإلا فأصلها هو ما قيل أعلاه طبقاً لقول صاحب مقاييس اللغة: والرعب في المعردات.



لكن على أية حال فلا شك في دلالة الآية على اطلاع الأنبياء على أسرار الغيب عن طريق التلقين الإلهي.

أما فيما يتعلق بجملة «لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ أَتَلَقَوْا...»، التي جاءت بعد هذه الآية، وكيفية ارتباطها بالآية التي قبلها، فللمفسرين احتمالات كثيرة معظمها على خلاف ظاهر الآية، وتؤدي إلى انعدام الإسجام بين الصعائر، بل وحتى بين الجمل في الآية.

والذي يبدو أقرب إلى الصواب هو أن الصعائر في «لَيَعْلَمَنَّ» و «أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» و «أَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ» عائدة كلها إلى لفظ «لجلالة الله»، وأن الضمير في «أَتَلَقَوْا» إما إشارة إلى الأنبياء أو إلى الملائكة الإلهيين المأمورين بإبلاغ الوحي، وبإساءة على هذا فمفهوم الآية بمجموعها هو «إنَّ الهدف من تعميم أسرار الغيب أو مراقبة الملائكة لكي يعلم الله أن رسوله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأنه تعالى قد أحاط بما لديهم وأخصى كل شيء عدداً».

طبعاً ليس المراد من جملة «لَيَعْلَمَنَّ» أنه لم يكن يعلم شيئاً ثم علم، بل المراد هو التحقق العملي لعلم الله والذي يُعبّر عنه بالعلم الفعلي، أي أنَّ الهدف كان حصول علم الله حول إبلاغ الرسالة وتجنّده خارجاً.

فالنسبة هي أن علم الأنبياء ﷺ بأسرار الغيب عن طريق الله تعالى أو الملائكة، يكون السبب وراء إكمال إبلاغ الرسالة وتحكيم أسس النبوة (تأمل جيد).

والآية الثانية وبعد نفيها لاطلاع عامة الناس على الغيب استنتجت الأنبياء ﷺ، يقول تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ»

مع أنه لم تبتد هناك إشارة صريحة في هذه الآية إلى مسألة اطلاع الأنبياء ﷺ على أسرار الغيب للوهلة الأولى، لكن بطراً لكون جملة «وَلَكِنَّ اللَّهَ...» مشعرة بالإستدراك والإستثناء، فسيكون مفهوم الآية هو أنه ينتخب فريقاً من الرسل ويعلمهم من أسرار الغيب<sup>١</sup>.

١ جمهور المفسرين اتحدوا هذا المعنى في تفسير الآية، لكن البعض ذكر احتمالات وأهمل تلك الآية لا علاقة لها بمسألة اطلاع الأنبياء على علم الغيب، وسبب التردد في ورد في البعض من التفسير مثل روح المعاني شاهد على ذلك، التفسير المشهور أيضاً.

صحيح أن بداية الآية إشارة إلى الحوادث التي ميّزت صفوف المنافقين عن فريق المؤمنين، وفصّحت ما يكتّبه في قلوبهم، لكن من الواضح أن شأن الزول هذا لا يحدّد المفهوم الكلّي للآية، لأنّ الكلام إنما هو عن عدم اطلاع عامّة الناس على العيب، وإطلاع الأنبياء على ذلك التعليم الإلهي.

كما ويستفاد من هذه الجملة أنّ الإطلاع على العيب مقام رفيع يمنع للأنبياء الإلهيين فقط، وهو في الواقع مكمل لبرامجهم وسبب لتحقيق أهدافهم (تأمل جيداً).



#### وهنا يرد سؤالان :

١- إنّ هذه المرتبة لا تنحصر بالأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، بل أن بعض الصلحاء ذوي القلوب النورانية الذين بلغوا درجات سامية من الشهود، مطّلعون على رايحة من أسرار العيب، فكيف سلاّم هذا الشيء مع النفي المطلق لاطلاع عامّة الناس على أسرار العيب الواردة في الآية الأئمة المذكورة؟



#### الجواب :

نظراً لكون هذا الإطلاع محدوداً غير ذي شأن قياساً بإطلاع الأنبياء عليهم السلام، فلم يؤخذ في الآية بنظر الاعتبار، وبعبارة أخرى أن المراد هو نفي المعرفة الواسعة عن أسرار العيب، وهو ما يصدق في حقّ غير الأنبياء عليهم السلام.

كما يحتمل أيضاً أن يكون لهاتين الأئمتين مفهوم واسع بحيث يشمل كلّاً من الأنبياء وكذلك الملائكة وأصحاب الكشوف والشهود، الذين بلغوا مقاماً عالياً عن طريق المجاهدات النفسية والرياضات المشروعة وإرشادات المعصومين، لأنهم إنّما يحصلون على معارفهم عن طريق الارتباط بالأنبياء والأئمة أو الملائكة، وبناءً على هذا فإنّ الله يضع

علم غيبه عند أنبيائه فقط ثم يستعين الآخرون بهم. أي بالضبط مثلما أن «مريم» مثلاً، أو امرأة إبراهيم «سارة» اطلعتا عن طريق الملائكة الإلهيين على البعض من أسرار الغيب فيما يتعلق بولادة عيسى أو إسحاق ويعقوب ﷺ.

كما ويحتمل أيضاً كون العلوم العيبية على ثلاثة أقسام: قسم منها خاص بذاته تعالى، لم يطلع عليها سواه حتى الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين (كالعلم برمان قيام الساعة وأمثالها).

الثاني: العلوم العيبية الخاصة التي يودعها الله عند المعصومين (الأنبياء والأئمة والملائكة المقربين)، والقسم الثالث العلوم التي يودعها عند فريق من الأتقياء الذين يملعون مقام الشهود، وتزال المحجب عن قلوبهم كما ورد عن بعض أصحاب النبي الأكرم ﷺ وأصحاب أئمة الهدى ﷺ، مثل سلمان وأبي درّ وميثم التمار ورشيد الهجرى وأمثالهم، أو ما نقل في عصرنا عن فريق من العلماء المتقدمين أو المتأخرين، وبالإمكان إطلاق اسم «خاصّ الخاصّ» على القسم الأول و«الخاصّ» على الثاني و«العام» على الثالث. ويمكن أن تكون العبارات من قبيل «فَلَا يَظْهَرُ عَنْ غَيْبِهِ» إشارة إلى نفس هذا المعنى، لأن لفظة «غيبه» لها دلالة على الأسرار الغيبية لخاصة

٢- إنه فضلاً عما قيل عن الصحاء من رباب الكشف والشهود، فلفظ سمعنا مراراً وتكراراً أن فريقاً من الكهنة في العصر الجاهلي، أو لمرتابين في عصرنا، الذين لم يكونوا من أهل الإيمان والتقوى، يحبرون أحياناً عن أسرار الغيب أو الأمور الخافية عن أنظار الناس، ويتوقعون أموراً تحدث بعد ذلك، أليس هذا مافياً لما قيل آنفاً حول تفسير الآيات؟ لكن الإثنيات إلى نكتة واحدة يكشف لإجابة عن هذا السؤال، وهي إن توقعات المرتاضين وإخبارات الكهنة العيبية لم تكن تبدأ بإخبارات يمكن الاعتماد عليها، فضلاً عن عدم خلوها من الإشتباه بأي حال من الأحوال، فقد تصدق أحياناً وقد تكون كاذبة أحياناً أخرى، وهناك أمثلة كثيرة جداً عليها، وبناءً على هذا فلا يمكن أهدأ اعتبار هذه الأخبار والمعلومات من علم الغيب، بل إنهم يعترفون بأنفسهم أحياناً بأن هذه الأخبار هي تلقين

الشياطين الذين لا يصدقون القول معهم أبداً!

وبعبارة أخرى أن هناك أشباحاً تتراءى في فوق أذهانهم بسبب رياضتهم، فيفسرون هذه الأشباح من عندهم، لتقع تارةً صحيحة وأخرى خاطئة، مثل الأحلام التي يراها الناس، والتي تكون تفاسيرهم لها صحيحة أحياناً وأخرى غير صحيحة.

هذه المعلومات والمواضيع الخاطئة والتي يحالطها الشك لا يمكنها أبداً أن تعدّ من علم العيب، أو أن تخدم في تفسير الآية

❦❦❦❦

أما في الآية الثالثة فيدور الكلام عن معرفة المسيح ﷺ بأسرار العيب، وإظهاره لها صراحةً كمعجزة، وقوله لمن شك في دعوته: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى﴾ (آل عمران / ٤٩)

ثم يضيف قائلاً: ﴿وَأُتِيكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَأَنْ تَدْخُرُوا فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وبهذا قلعد وضع مسألة خلق الطائر الحي من الطين، ومعالجة العرجى الذين يستحيل علاجهم، وإحياء الموتى، إلى جانب لإخبار عن أسرار العيب واعتبرها جميعاً أدلة على نبوته.

وبديهي أن الطعام الذي يأكله الناس، أو ندى يدحروه في بيوتهم يتعلّق بحياتهم الشخصية، فليس للآخرين اطلاع عليه عادةً، فاطلاع أحد على هذه الحريات، والحالة هذه دليل على اطلاعه على العيب.

قال بعض المفسرين إن هذين الموردين هما محرّد مثال، ولا يمكن أن تستعده بهما معرفة المسيح ﷺ أبداً، فقد كان يعلم لكثير من أسرار العيب.

❦❦❦❦

مضافاً إلى ما قيل، فهناك العديد من آيات القرآن تعدّ مصداقاً جلياً لإطلاع نبي الإسلام ﷺ على بعض أحداث المستقبل، والتي تعتبر من أسرار الغيب، كآيات الأولى

من سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بَضْعِ  
سِنِينَ﴾. (الروم / ٢-٤)

ومن الواضح أنّ الإخبار عن انتصار دولة مغلوقة على أمرها في المستقبل القريب  
(خلال بضع سنين) وبكلّ هذه الصراحة والثقة، ليس بالشيء الذي يمكن الإحاطة به  
بالطرق الاعتيادية، ولهذا فهو مصدق بارر لعلم الغيب

وفي موضع آخر يحاطب القرآن الكريم المسلمين ﴿لَتَذْكُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
آمِينَ﴾. (الفتح / ٢٧)

وكان هذا الكلام في وقت أحكم فيه المشركون سيطرتهم على مكة، وقويت شوكتهم  
بدرجة بحيث سمّوا من فرض شروط صلح الحديبية على النبي الأكرم ﷺ بحسب  
الظاهر، إدر فالإخبار عن النصر السريع للمسلمين عليهم بشكل يمكنهم من إزالة أكبر عقبة  
تعرّض لطريقتهم، ودخول مكة بكلّ طمأنينة يَكُنْ سِوَى إِحْصَاءٍ عَسِي

وفي موضع آخر حينما علم النبي الأكرم ﷺ بأن إحدى روحاته قد أطلعت الأحرار  
سراً على أمر كان أودعه عندها، سألته قائلة: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾

قال ﷺ: ﴿نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾. (التحریم / ٣)

وكذلك حينما أحصى هريق من المصافقين عمالهم الشيعة، وحاموا بأعداد واهية لمرص  
عدم الإشتراك في غروة تيوك، قال لهم الرسول ﴿لَا تَغْتَبِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ  
أَخْبَارِكُمْ﴾. (التوبة / ٩٤)

كما يخبر تعالى في موضع آخر عن حتمية هزيمة المشركين صراحة، مع أنهم كانوا  
بكامل قوتهم، حيث يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُنْ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ﴾.

ويصيف على الفور ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. (القمر / ٤٤-٤٥)

لا شك أنّ المسلمين كانوا أقلّة قليلة حين رول هذه الايات والعدوّ في أوج القدرة  
والعطرسية، وتوقع مثل هذا النصر المؤرّر ولسرّيع غير ممكن بالطرق الاعتيادية، ولكن لم  
يمض وقت حتّى وحقّوا ضربة ماصصة إنّي لعدو في أول حرب طاحنة معه، أي في معركة

(بدر) ثم توالى الانتصارات الواحدة تلو الأخرى. وأصبحت كل الجزيرة العربية تحت راية الإسلام خلال فترة قصيرة.

وظير هذا المعنى جاء في قوله تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ • وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ﴾. (التوبة / ١٤-١٥) وورد نفس هذا المعنى في القرآن الكريم حيث يخاطب أصحاب النبي الأكرم ﷺ ويقول: ﴿وَإِنْ يَغَاتِلْوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذَى ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾. (آل عمران / ١١١)

كل التعابير التي في هذه الآيات تخبر بشكل قاطع عن انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء، ذلك الإخبار الذي لم يكن يصدق به أحد في ذلك الزمان.

ونفس هذا المعنى ورد بقلب آخر في سورة لقصص الآية ٨٥، عندما اضطر الرسول ﷺ إلى ترك أرض مكة المقدسة، نتيجة للضغط الشديد الذي تعرض له من قبل المشركين، الذين كانوا بكامل قدرتهم في ذلك الوقت حيث رلب الآية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

هذه البشارة القطعية في تلك الفترة العصيبة حين كان المسلمون أصعب ما يكونون بحسب الظاهر لم تكن سوى خبر غيبي.

وهي آية أخرى حينما كان يستبشر الأعداء بانقراض ذرية النبي، وعدم وجود من يحافظ على دينه باعتبار انحصار عقبه في ابنته فاطمة الزهراء ﷺ فقط، وقالوا: إِنَّ «مَحْتَدًا أَبْرًا»، نزلت سورة الكوثر وبشّرت النبي، لأكرم ﷺ بحبر حتمي بأننا أعطيناك خيراً كثيراً .. وأن عدوك هو الأبر الذي لا عقب به بكل تأكيد ﴿بِأَنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

واليوم نجد أن نسل ذلك العظيم قد انتشر عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ﷺ في كل أرجاء المعمورة، وظهر منهم الكثير من القادة بذين وطّفوا أنفسهم لخدمة الإسلام طيلة عمرهم

في حين أن من كان يؤدي النبي ويعيرهم ﷺ بذلك وهم (مشركو قريش)، قد اصمحلوا ولم يبق لهم اليوم أثر يذكر، ولو بقي شيء على سبيل الفرض فهو غير معروف وبهذا فقد

أمسى كل واحد منهم أبتراً، والنبي الأكرم ﷺ داسل عظيم.

ونلاحظ في قوله تعالى: ملاحظة أخرى تعد من إخبارات القرآن العيبيّة، حيث قال:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبْهَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَمَخْلُقًا مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الحل ٨ /

مع أن الكثير من المفسرين يعبرون جملة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى الحيوانات التي ستخلق مستقبلاً، أو التي ستؤلف عند الإنسان، أو كل الأشياء الضرورية التي سيخلقها الله في المستقبل سواء الحيوانات أم غيرها، ولكن إدراك مفهوم هذه الجملة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في عصر التكنولوجيا المتطورة يعد أمراً يسيراً - كما أشار إلى ذلك بعض المفسرين المتأخرين كالمراغي والسيد قطب في تفسير «في ظلال القرآن»، بل هو إخبار القرآن عن عصرنا، ولا مصادفة بين عبارة (يخلق) مع اختراعها من قبل الإنسان، إذ إن عمل الإنسان ليس سوى تركيب المواد التي خلقها الله تعالى، هذا/تولاً.

ولذلك: إن ابتكار الإنسان في صنع هذه الوسائل ناتج من الاستعداد الذي وهبه الله تعالى له، كل هذه الآيات تبين أن الله قد وصع بعضاً من العلم الغيبي بحسب تصرف عبده ﷺ.



### الثمرة من مجموع آيات علم الغيب:

أوضحنا إلى الآن طائفتين من الآيات التي تتحدث عن علم الغيب، طائفة تنفي علم الغيب عن الأنبياء ﷺ على الإطلاق والأخرى تثبته، وحينما نضعهما إلى جانب بعضهما البعض، ونجمع بينهما ندرك مفهومهما الأصبي النهائي (وهذا ما يمكن أدائه عن طريق التفسير الموضوعي بسهولة) وهو الطريق الأول لنجمع بينهما

أجل، يستفاد من مجموع هذه الآيات بوضوح أن علم الغيب بإطلاقه وبلا قيد أو شرط محتص بدلائل المقدسة فحسب.

هو المحيط بكل عالم الغيب والشهود، وهذا لعلم قائم بداته المقدسة غير منك عنها

أهدأ.

أما الآخرون (كالأنبياء والأئمة المعصومين والملائكة) فاطريق الوحيد لاطلاعهم على علم الغيب هو الإلهام الإلهي فحسب.

وبعبارة أخرى أن أشهر طريق للجمع بين هذه الآيات هو القول: إن المراد باختصاص علم الغيب بالله تعالى هو «العلم الذاتي الاستقلالي»، ولذا فلا اطلاع لأحد غيره على أسرار الغيب مستقلاً، بل لابد أن يكون منه تعالى وعن طريق تعليمه ولطمه وعيائه، وهذا في الواقع له «ميزة غير استقلالية»

الأدلة على الجمع بين الآيات المذكورة كثيرة يمكن الإحاطة بها بالتحقيق والتدقيق فيها ثانية.

كما أن الأحاديث الشريفة أيضاً تشير إشاره لطيفه إلى هذا الأمر منها: ما ورد في نهج البلاغة أن علياً عليه السلام خلال حديثه للإخبار عن وقائع المستقبل (وتوقعه لهجوم المغول على الدول الإسلامية) قال: «كأنني أراهم قوماً كأن وجوههم المحمان المطرقة... فقال أحد أصحابه: لقد أعطيت يأمرير المؤمنين علم العيوب فابتسم عليه وقال: ليس هو يعلم غيوب، وإنما هو يحكم من ذي علم (أي من النبي الأكرم عليه السلام)»<sup>١</sup>.

**الطريق الثاني:** للجمع بين هذين القسمين من الآيات هو القول إن علم الغيب الذي يحتص بالله هو الإطلاع على اللوح المحفوظ، الذي يتحقق كل ما فيه بلا زيادة ولا نقص لا محالة، (وهو في الواقع علم بالعلل انتمة للأشياء التي لا تنفك أبداً عن معلولاتها). وأما الأنبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام فيهم اطلاع على لوح المحو والإثبات القابل للتبديل والتغيير، لأنه علم بـ «العلل الناقصة» لا «العلل التامة».

وبعبارة أخرى: إن من المحتمل أن تتواجد هناك موانع تعترضها وتعيثها، أو تنفي شروط تكاملها، كما جاء في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «لو لا آية في كتاب الله لعدتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة» فقلت له: آية آية؟ فقال: قول الله:



يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أتم الكتاب» (أي اللوح المحفوظ) ١.

**الطريق الثالث:** للجمع بين هذه الآيات هو لقول بانقسام أسرار الغيب إلى قسمين: أحدهما يختص به تعالى ولا يعرفه أحد سواه، والآخر هو الذي يعلمه لأنبيائه وأوليائه، كما جاء في نهج البلاغة ذيل الخطبة المتقدمة أنه ﷺ قال: «وَأَمَّا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا هَدَّدَهُ اللَّهُ شُهْرَانَهُ يَقُولُهُ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ (آخر آية من سورة لقمان)، (لا اطلاع لأحد على كنهه وكيفية وجرثباته وإن كان أصل نزوله قابلاً للإحتمال) وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ (لم يكن اطلاعه على حسنة وهل أنه ذكر أو أنثى فحسب، بل على كل القابليات والمميزات التي تكس في جسمه وروحه) وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» (المراد هو العلم التمهيلي بهذه الأمور)

ثم يضيف في حاشية هذا الكلام «فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد ومن يكون في النار خطياً، أو في الجنان للنبين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي بأن يعينه صدري، وتضبط عليه جوانحي» ٢.

وعلى هذا فالذي يختص بالدات المقدسة هو العلم بكل خصوصيات وتفاصيل الأجنه الروحية والبدنية.

نفس هذا الكلام يمكن تطبيقه على نزول مطر وأعمال الإنسان أو مكان موته والذي لا يعلم جزئياته إلا الله تعالى.

**الطريق الرابع:** للجمع بين هذه الآيات هو تعريف بين «العلم الفعلي» و«العلم الشائني والاستعدادي»، إذ لا يخفى شيء عن علمه إلا محدود، في حين أن الكثير من أسرار الغيب يمكن أن تعيب عن الأنبياء والأولياء فعلاً، لكن الله يعلمهم ذلك متى ما أرادوا (طبعاً هذه

١. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥١٢ ح ١٧٠

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨

الإرادة لا تتحقق إلا بإدبه تعالى ورضاه (تأمل جيداً).

هذا المطلب يشابه حالة كون كل الأسرار العسكرية لدولة ما مدونة في كتاب ضخم محفوظ عند شخص أو أشخاص متحيين من قبل الدولة بحيث يمكنهم الإطلاع عليه بإذن من القائد العام للقوات المسلحة، فالقائد هنا له إحاطة تامة بهذا الكتاب كما ويمكن للآخرين أيضاً الإطلاع عليه متى شاؤوا (على فرض كون مراجعتهم للكتاب مرهونة بإذن القائد وإجازته طبعاً).

الدليل على هذا الكلام هو الروايات التي جمعها المرحوم الكليني في كتاب الكافي في فصل تحت عنوان «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِذَا شَاءُوا أَنْ يَعْلَمُوا عِلْمُوا»<sup>١</sup>

❦❦❦

ستنتج من مجموع ما قيل أن الأنبياء والأولياء أطلاعاً على عالم الغيب بلا شك، كما ويمكن استخلاص طرق الجمع بين الروايات المرتبطة بعلم العيب بأربعة

- ١- العلم الذاتي المستقل خاص بالله، وعدم الأنبياء والأولياء يرتبط به تبعاً.
- ٢- العلم التفصيلي هو من شأنه تعالى، والعلم الإجمالي من شأن الأولياء والأنبياء.
- ٣- العلم بالروح المحفوظ خاص بالله، والعلم بالروح السحر والإيماءات من شأن الأنبياء والأولياء.

٤- العلم الفعلي خاص بالله، والعلم بالقوة من شأن الأنبياء والأولياء.

❦❦❦

### دولياء علم للغيب:

إنّ لمسألة «علم العيب» بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء ❦❦❦ بحثاً موسعاً في الروايات الإسلامية أيضاً، وقد ذكرت كل الفرق الإسلامية نماذج كثيرة عن علم العيب فيما يرتبط

١. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥٨

بالنبي الأكرم ﷺ، أو أئمتهم وقادتهم، وسببه مسأله علم الغيب إلى الشيعة من قبل بعض المعقلين، أو القول بأنهم يعتبرون أئمة أهل البيت ﷺ شركاء مع الله في هذه الصفة، هو اشتباه عظيم لا يمكن جبرانه، لأنه:

أولاً: لا يرى أي أحد من علماء الشيعة أي إنسان لا نبي الإسلام ﷺ ولا الأئمة ﷺ نظراء لله تعالى بأية صفة أبداً، واعتقادهم بعصمهم بالغيب إنما هو من باب «تعلم من ذي علم» (الأئمة من النبي والنبي من الله العظيم)

وبعبارة أخرى، كما أن كل ما لدينا هو من عند الله وأنا محتاجون إليه ومتعلقون به في كافة شؤون حياتنا، فكذاك علم عيب النبي لأكرم ﷺ والأئمة ﷺ إنما هو من عند الله ومرتبطة بعلمه.

ثانياً: اطلاع الأنبياء والأولياء ﷺ على غيب مسألة واردة بشكل كبير في الروايات أيضاً، فضلاً عن الآيات القرآنية، وحسبنا ما في كتب أهل السنة من أن لبعض الصحابة وغيرهم فضلاً عن النبي الأكرم ﷺ، اطلاع على كل أسرار العجب أو حلها، ويكفي هذا ذكر خلاصة البحث التحقيقي «ندي ذكر العلامة الأميني في كتابه «العدير» الجزء ٥، (بالإضافة إلى التطرق لبعض الروايات الأخرى إكمالاً للبحث).

١- جاء في الكثير من المصادر المعروفة لأهل السنة أن «حديثاً» قال: «إن النبي ﷺ علمني علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»

٢- وجاء في حديث آخر عن «حديثاً» أيضاً أنه قال: «والله أني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنته فيما بيني وبين الساعة»<sup>١</sup>

٣- تقرأ في حديث آخر في صحيح مسلم أن أبا ريد أي «عمرو بن الخطيب» قال: «صلى النبي الأكرم ﷺ صلاة الصبح، ثم رثى المنبر وحطب خطبة دامت إلى الظهر ثم صلى الظهر وصعد المنبر إلى صلاة العصر ثم نزل وصلى العصر وصعد المنبر ثانية وحطب إلى

١ صحيح مسلم (كتاب الفتن باب إخبار النبي لأكرم ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة)، مسند أحمد، ج ٥، ص ٢٨٦ وكتب أخرى.

٢ مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٨٨.

غروب الشمس، «فأخبرنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا»<sup>١</sup>

ثم يذكر أحاديث أخرى متعرضة لمسائل العيب في بعض الأحيان عن بعض من الصحابة وأمثالهم، من جملتها قوله وذكر الخطيب البغدادي في تأريخه عن أبي الحسن المالكي قال: كنت أصعب - محمّد بن إسماعيل - سبعين كثيرة، ورأيت له من كرامات الله تعالى ما يكثر ذكره، إنه قال لي قبل وفاته بنمائية أيام، إني أموت يوم الخميس المغرب فادعني يوم الجمعة قبل الصلاة. قال أبو الحسن فسيته إلى يوم الجمعة فلقيني من ختري بموته، فخرجت لأحضر حارته فوجدت الناس راجعين، فسألتهم لم رجعوا فذكروا أنه يدفن بعد الصلاة، فبادرت ولم أنتفت إلى قولهم فوجدت الجنازة قد أخرجت للدفن قبل الصلاة.

ثم يضيف العلامة الأميني رحمته الله توجد في طي كتب الحفاظ ومعاجم أعلام القوم قضايا جمّة في أماس كثيرين، عدّوها لهم فضلاً وكرامة نبي، عن علمهم بالعيب وبما تحفي الصدور ولا يراها أحد منهم تركاً وهو ما يدعوا للمعجب<sup>٢</sup>

كما نشاهد مسائل علم العيب هي روايات أهل البيت عليهم السلام بكثافته أيضاً، من جملتها الباب الذي عقده المرحوم العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» الجزء ٢٦ حول هذا الموضوع، وجاء بالعشرات من الروايات حول إطلاق لائمه المعصومين عليهم السلام على علم العيب، من حملتها الرواية التي وردت بتعابير شتى، ومن مختلف الطرق من أن الإمام الصادق عليه السلام قال «أكرى من جعله الله حجة على خلقه يحض عليه شيء من أمورهم»<sup>٣</sup>. ونقرأ عبارته أخرى لهذا الإمام عليه السلام «أن الله أحكم وأكرم وأجل وأعظم من أن يكون احتج على عباده بحجة ثم يقيب عنه شيئاً من أمورهم»<sup>٤</sup>

كما نجد في نهج البلاغة أيضاً على العديد من الجمل التي تحبر عن الإطلاع الواسع

١. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٢٢١٧ (باب إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة من كتاب الفتن) يتبين من هذا الحديث أنه عليه السلام كان مشعراً ببيان أخبار العيب لأصحابه يوماً بأكمده من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

٢. العدير ج ٥، ص ٥٩ - ٦٢ (باختصار) وورد الحديث الأخير في تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٤٩.

٣. بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٣٧ - ١٥٤.

لعلي عليه السلام على علم الغيب، لكن وكما قال هو بنفسه في الخطبة ١٢٨ فهذه ليست علم غيب (إستقلالي ذاتي)، بل هي تعلم من دي علم (أي نبي الإسلام ﷺ) الذي تعلم هو بدوره من الله تعالى).

هذه الإخبارات العينية جاءت في عدة خطب من حملتها الخطبة ١٣ حول أحداث البصرة القادمة.

وفي الخطبة ٤٧ حول مستقبل الكوفة.

وفي الخطبة ٥٧ حول بعض سلاطين بني أمية

وفي الخطبة ٥٩ حول عدد قتلى سفوارج وأصحابه ومريديه في معركة النهروان وذلك

قبل نشوبها

وفي الخطبة ١١٦ حول ظهور الحجاج وجباياته العجيبة البشعة في المستقبل.

وهي الخطبة ١٢٨ حول الفس العظيمة التي ستقع في البصرة (فسه صاحب الزنج أو

الأتراك والمغول).

وفي الخطبة ١٣٨ حول أحداث الشام في مستقبل

وفي الخطبة ١٥٨ حول الجرائم العجيبة بني أمية

وفي الحكمة ٣٦٩ يتعرض لحوادث آخر زمان.

واللطيف هنا هو انكاؤه في الكثير من هذه الموارد على الجرئيات، وعدم اقتناعه أبداً

بذكر الكليّات التي ربما تحطر على ذهن المتأمل العظم غير المعصوم أيضاً، ويتّضح جيداً

أن كلّ هذه الأخبار نابعة من الإطلاع على علم الغيب

ونذكر هنا ما جاء في الخطبة ٥٩ حول حوارج النهروان كمثال على ذلك، قال:

«مصارعهم دون النطعة! ولقّه لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة».

وفي الخطبة ٦٠ حينما قاوا لعلي عليه السلام، لقد صمحن الحوارج وانقرضوا، قال كلّاً والله

إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نجّم منهم قرن قطع، حتّى يكون

آخرهم نصوصاً سلايين!

فأشار ﷺ هنا إلى مسألة إحصاء بار الحوارج خلال مختلف الأنظمة وعاقبة أمرهم

أيضاً، وعلى حدّ قول ابن أبي الحديد «وهكذا وقع وصحّ إخباره ﷺ أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين، فإنّ دعوة الحوارح ضمحلّت، ورجالها فنيت، حتّى أفضى الأمر إلى أن صار خَلْفَهُمْ قطّاع طرق، متظاهرين بالنسوق والفساد في الأرض».

ثمّ تعرّص بعد ذلك لمقاطع معتدعة من تاريخهم بالتفصيل، وحروح بعضهم في أيام الحلفاء والقضاء عليهم<sup>١</sup>.

وريدة الكلام هي أنّ مسألة العلم بأسرار عيب سواء فيما يتعلّق بالماضي أو المستقبل أو حتّى الأمور الخافية عن الأنظار في الوقت الحاضر، ليست بذلك الشيء الذي يمكن إنكاره من وجهة نظر القرآن، والأحاديث الإسلامية وتواريخ الأنبياء والأولياء ﷺ وهذه المسألة من الواضح بحيث إنهم عدّوا اتّشمال القرآن على الأخبار العيسة أحد وجوه إعجازه، وقد أشير في كتب إعجاز القرآن إلى تلك الموارد على الأعمّ الأغلب، كما تعرّصنا نحن أيضاً في التفسير الأمثل إلى أموار ذات العلاقة بهذا القسم في ديل كلّ آية، ألم يكن القرآن بمثابة تعالم إلهية لسي الإسلام ﷺ؟ فما هو الفرق بين تعليمه عن طريق القرآن أو غيره؟

XXXX

### حدود علم الغيب وكيفية:

لا كلام في مسألة اطلاع الأنبياء والأنّة لمصومين ﷺ على علم الغيب عن طريق التعليم الإلهي. وقد تقدّمت أدلّتها مفصلة في لأبحاث السابقة.

لكنّ هناك كلاماً مطوّلاً حول كيفية هذا العلم ومساكنه، وهذه المسألة تعدّ من أعقد المسائل التي تواجه الباحث في مثل هذه الأبحاث، وقد وردت بحقّها أخبار متعاقبة، كما وتلاحظ هنالك آراء متنوّعة من قبل العلماء أيضاً، ومجموع هذه الإحتمالات الأساسية في هذه المسألة كالتالي:

١- إنهم يرون كلّ شيء «بالعمل» باستثناء تقسم الحاصّ بالذات المقدّسة، كالعلوم

١ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٥، ص ٧٣

الخمسة الواردة في آخر سورة لقمان والتي نعت الإشارة إليها سابقاً، وكما علم بكنهه ذات الباري جلّت قدرته وكنهه أسمائه وصفاته.

الدليل على هذا الكلام هو الروايات المتطرفة التي تقول صراحة: إنّ للأئمة «علم ما يكون وما هو كائن حتّى تقوم الساعة»، ومن سببها أنّ للشيء ذلك العلم بطريق أولى. المرحوم الكليني وفي أصول الكافي ذكر باباً تحت عنوان: «إنّ الأئمة ﷺ يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شيء»<sup>١</sup>

٢- إنهم يعلمون كلّ هذه الأمور لكن «بالقوة» لا «بالفعل»، أي أنّهم كلّما شاؤوا أن يعلموا شيئاً من أسرار الغيب ألهمهم الله به، أو أنّهم يمتلكون قواعد وأصول يستندون عليها للإطلاع على كلّ أسرار الغيب، أو أنّ معهم كتباً يطلعون على أسرار الغيب من خلال التأمل فيها، أو أنّهم يعلمون بهذه الأسرار كلّما شاء الله ذلك، أي كلّما مسحهم حالة البسط اصطلاحاً، في حين أنّ هذه العلوم محتوي عند عوده العتبات وحصول حالة القبض كما يصطلح على ذلك.

الدليل على هذا القول (في الحالة الأولى) هو الروايات القائلة إنّ الأئمة والقيادة المعصومين إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً علموه، وقد عقد المرحوم الكليني في أصول الكافي باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «إنّ الأئمة إذا شاؤوا أن يعلموا علموا»<sup>٢</sup>.

هذا البيان يحلّ الكثير من المشاكل المتعلّقة بعلم الأنبياء والأئمة أيضاً، من جعلتها أنّه لماذا شرب الإمام الحسن عليه السلام ماء الحرة المسموم؟ وتناول الإمام الثامن عليه السلام العنب أو الرمان المسموم؟ لماذا انتخبوا فلاناً المناسب للمضاء أو القيادة؟ ولماذا كان يعقوب قلقاً إلى ذلك الحدّ على إيه؟ مع أنّ ابنه كان يتدرّج في المناصب الحسّاسة، ثمّ استبدل الفراق إلى الوصال في خاتمة المطاف، لماذا؟ ولماذا؟

١ أصول الكافي، ج ١، ص ٢٥ (ذكر المرحوم الكليني في هذا الباب ست روایات) كتب أنّ المرحوم العلامة المجلسي قد تعرّس لشرح هذه الروايات في مرة العقول ج ٣، ص ١٢٩ - ١٣٤.  
٢ المصدر السابق، ص ٢٥٨ (ذكرت في هذا باب ثلاث روایات ينص هذا المضمون) كما أشار إليها المرحوم العلامة المجلسي في مرة العقول، ج ٣، ص ١١٨.

يمكن القول أنهم وفي كل هذه الموارد نوسوا أن يعلموا لعلهم لكنهم كانوا يعلمون أن الله لم يجز لهم الإطلاع إما اختياراً ولمصالح أخرى.

ويمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال. لو أعطى أحد رسالة حاوية على أسماء أشخاص أو مناصبهم أو على حقائق سرية أخرى، لشخص آخر فبإمكان ذلك الشخص الإطلاع على هذه الحقائق بمجرد فتح الرسالة، لكن حيث إنها لم تفتح بعد فليس له إطلاع على محتواها، كما أن الشخص الرئيسي الذي أعطاه لرسالة كان قد حوله فتح الرسالة متى شاء.

٣- المراد من إطلاع المعصومين على علم الغيب هو الإطلاع على كل المسائل ذات العلاقة بهداية البشرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبإزاء على هذا فهم مطلعون بالفعل على كل المعارف والأحكام، وتواريخ الأنبياء ومسائل الخلق والحوادث السابقة واللاحقة إلى كل ما يرتبط بهداية الناس، لكن ليس من الظاهر أن يكون القبول بما هو خارج عن نطاق هذه الدائرة في حقهم.

الروايات المتعددة التي أشرنا إليها والقائلة: «إِنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ وَأَكْرَمُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَعْدَلُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ بِحُجَّةٍ (لِلْخَلْقِ) ثُمَّ يَتَقَبَّلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ»<sup>١</sup>.

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ رَضِمَ أَنَّ اللَّهَ يَحْتَاجُ بِعِدَةٍ فِي بِلَادِهِ (بَيْنَ خَلْقِهِ) ثُمَّ يَسْتَرْ عَنْهُ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ»<sup>٢</sup>.  
هذه كلها إشارة إلى العلوم الضرورية بهداية الخلق.

٤- إنهم مطلعون على كل أسرار الغيب، لكن إطلاعهم هذا مبني على أصول كلية، فهم يعلمون بكلّيات كافة الأمور، في حين أن العلم بكلّيات العالم وجرثيماته كلها خاصه بداته تعالى.

هذا الكلام في الواقع يشبه ما ورد في روايات متعددة من أن علياً عليه السلام قال: «إِنَّ

١. بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٢٨، ح ٥ (ورد هذا الحديث نيل عدة صفحات يتفاوت ضلّل).

٢. المصدر السابق، ص ١٢٩، ح ٨.



رسول الله ﷺ علمني الف باب من الحلال والحرام ومتا كان ومتا يكون إلى يوم القيامة،  
كل باب منها يفتح الف باب فذلك الف باب»<sup>١</sup>

العدد (الف) في هذا الحديث سواء كان للعدد أو كناية عن الكثرة فهو دليل على الكثرة،  
التي تفوق الحد لأبواب العلم التي عنده إياها سي الأكرم ﷺ، وكذلك إشارة إلى اشتغال  
هذه الأبواب على سلسلة من الأصول لكلية تبي تطل عليها مئات بل آلاف الأبواب  
الأخرى.

والملاحظة الجديرة بالإعتبار هي أن الحديث، (إذا شأوا أن يعلموا صلوا) يمكن أن  
يكون إشارة إلى نفس هذا المعنى وهو أنهم إذا شأوا أن يعلموا بعضاً من الحرفيات، لراجعوا  
الأصول الكلية التي علمهم إياها الله تعالى أو سي الأكرم ﷺ وأطلعوا عليها.

٥- إن علمهم يكون بكل حقائق لعالم لكن من خلال «لوح المحو والإثبات»، في حين  
علم الله بكل الحقائق هو من خلال «نوح المحفوظ».

بيان ذلك: حوادث الكون لها مرحلتان: المرحلة القطعية التي لا تسبل لأي تغيير إليها،  
أي أن حادثة ما بكل أسبابها وعللها حاضرة عند العالم، وحيث إنه مطلع على كل  
أسبابها وعللها وموانعها وعلاقتها بالماضي والمستقبل، فهو يعلمها قطعاً ويحبر عنها  
بجدية، وقد تم التعبير عن هذه المرحلة على لسان الآيات والروايات بـ «أتم الكتاب» أو  
«اللوح المحفوظ».

والمرحلة الأخرى هي «المرحلة غير القطعية» أو بعبارة أخرى «المرحلة العشوائية»،  
فالشخص العالم مطلع على علل الحوادث في هذه المرحلة، لكن من الممكن عدم وضوح  
كل شروطها وموانعها لديه، وبذا لا يمكنه التنبؤ في وقوع الحوادث إنما يمكنه ذلك  
مشروطاً، وهذا ما تم التعبير عنه على لسان الآيات والروايات بـ «لوح المحو والإثبات».

الاختلاف بين علم الله وعلوم الأنبياء ولأولياء هو نفس الاختلاف بين هاتين

١. المرحوم العلامة المجلسي عقد في المجلد الأربعين تحت نفس هذا العنوان (بسي ﷺ علمه الف باب)  
ودكر ٨٢ حديثاً حول هذا الموضوع والذي ذكره أعلاه هو الحديث السادس (بحار الأنوار ج ٤٠، ص ١٣٠)

المرحلتين، أي أنه فضلاً عن كون أحدهما ذاتياً ومستقلاً دون الآخر فإن لأحدهما صفة القطع واليقين دون صاحبه.

٦- آخر كلام ونظرية يمكن بيانها فيما يتعلق بكيفية اطلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب، هو القول بإطلاعهم عليها إجمالاً، لكن ما هي مساحة ذلك ياترى؟ فلا يعلم ذلك بالدقة، وما نعلمه فقط هو أن الله العليم يعلمهم كلما وجد في ذلك مصلحة وضرورة، لكن كيف؟ وكم؟ فهذا ما لا نعلمه.



كانت هذه هي الطرق الستة التي يمكن ذكرها لإجابته عن مسألة كيفية اطلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب وحدود ذلك.

ونظراً إلى أن البحث حول كل الحرفيات المرتبطة بعلم الغيب قد أورد في كتاب مستقل، فضلاً عن أن هدفنا الرئيس من عرض هذه المسألة شيء آخر (وهو دفع التصادف الذي ربما يتوهمه بعض المعطلين بين الآيات المرتبطة بعلم الغيب) فسنوكل مريداً من الشرح والتفصيل حول هذا الموضوع، واختار النظرية الأقوى من بين هذه النظريات إلى بحثه العاصي به.





**إثبات علم القادة**

**الإلهيين عن طريق العقل**





تجربہ نامہ

## إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل

كان الكلام لحدّ الآن عن الآيات والروايات التي أثبتت مسأنة إمكان علم الغيب للأنبياء والأنمة المعصومين عليهم السلام، لكن علاوة على ذلك فهناك طريق آخر أيضاً لإثبات هذا المعنى وهو عن طريق العقل، حيث إنّ هؤلاء المعطاء لا يستطيعون أداء وظيفتهم على أتمّ وجه في حاله عدم اطلاعهم على أسرار الغيب أو بعض منها

بيان ذلك: نحن نعلم أنّ دائرة وظيفتهم ومسعة حدّاً، سواء من الناحية الزمانية أو المكانية، خصوصاً فيما يتعلّق بمسأنة رسالة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وإمامة الأنمة عليهم السلام إذ هي «عالمية» و «خالدة»، أي أنّها شاملة لكلّ بقاع العالم ومحيطبة بكلّ الأرضة إلى قيام الساعة فهل يمكن لمحافظة مدينة مثلاً أن يؤدي دورها في تلك المحافظة دون الوقوف على أوصاع أهاليها، وإمكانات المنطقة و متبارتهم ومحرومياتهم؟ من البديهي أنّه غير قادر على ذلك.

ومع هذا فكيف يمكن لرسول مرسل إلى البشرية جمعاء، وإلى يوم القيامة تبليغ رسالته دون الإطلاع على وضع العالم إلى آخر يوم من مهمته؟! بديهي أنّهم لا يتمكّنون من الإحاطة بكلّ الأعصار والقرون، أو الإطلاع على الأفوام والطوائف عن طريق العلوم الإعتيادية، إذن فلا سبيل لهم إلى ذلك سوى علم الغيب (بالتعليم الإلهي).

علاوة على ذلك فمساحة دائرة مسؤوليتهم لا تنحصر بالطواهر محسب إنّما تمتد لتشمل ظاهر المجتمع، وباطنه وجوهر الإنسان ومظهره أيضاً، واتّساع المسؤولية هذه يستلزم بدوره الإطلاع على أسرار أفراد المجتمع الباطنية أيضاً، وهذا هو نفس ذلك الذي ورد في

روايات متعددة بشكل استدلال عقلي، لا حكم تعبدى (تأمل جيداً).

يقول الإمام الصادق عليه السلام - على سبيل المثال - لأحد الرواة باسم «عبد العزيز الصائغ» في حديث أشرنا إليه سابقاً: «أتري أنّ الله لستر عن راعياً (على عباده) واستخلف خليفة عليهم بحجب عنه شيئاً من أمورهم» ١٢١

كما ورد نفس هذا المعنى بتعبير أوضح في حديث إبراهيم بن عمر أنّه قال، قال الإمام الصادق عليه السلام «من زعم أنّ الله يحتجّ بعبد في بلاده ثم يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد اتقى على الله» ٢.



### العلوم الأخرى للأنبيا في القرآن المجيد:

يستعاد بوضوح من آيات قرآنية مختلفة أنّ لبعض الأنبياء الإلهيين فضلاً عن العلوم ذات العلاقة بهداية الخلق وتربيتهم والمحافظة على نظام المجتمع البشري وبلوغ الأهداف النهائية للخلق، علوماً أخرى يصعب من جملتها الموارد الآتية:

#### ١- تعلم موسى من الخضر

ورد في سورة الكهف ٢٣ آية تمّ من خلالها بيان قصّة موسى عليه السلام بعبارات لطيفة جداً وموزونة، وتعلّمه من عبد الله لم يذكر لقرآن، سمّه لكّنه هي الحقيقة هو «الخضر» كما هو المتعارف (الكهف / ٦٠ - ٨٢).

هذه الحادثة تبين بوضوح أنّ موسى عليه السلام قد ذهب وراء ذلك المعلم الإلهي طيقاً للعنوان الذي كان لديه، ليستفيد من العلوم التي تعلّمها من الله، ولذلك فحينما وصل إليه بعد جهد جهيد قال: «هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا» (الكهف / ٦٦)

١. بصائر الدرجات طبقاً لما نقله صاحب بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٣٧، ح ٢

٢. المصدر السابق، ص ١٣٩، الرواية الثامنة.

فوافق الحصر على ذلك ورافقه موسى عليه السلام بدوره، ثم إنه واجه ثلاث حوادث مؤلمة وغير مألوفة بحسب الطاهر (وذلك لعدم إحاطته بها)، لأولى حرق السفينة التي تعود إلى فريق من الطبقة المسحوقة، والتي كانت تعدّ مصدراً لمعيشتهم، الثانية قتل الشاب، والثالثة إقامة الجدار الذي يريد أن ينقضّ، مع عدم وجود أي دليل لها ظاهراً.

وهي كلّ مرّة كان يتصاعد اعتراض موسى عليه السلام وذلك لتعرض أحكام شرعية مهمة في هذه الحوادث الثلاث لخطر الروال والإصحال، ففي أوّل حادثة تمّ التعدي على حرمة أموال الناس من قبل الحضر، وفي الثانية انتهكت حرمة حياة الناس، وفي الثالثة صدر منه تصرف غير مسؤول بحسب الطاهر، وذلك بسببه للجدار الذي كان مشرفاً على السقوط فلا أخذ آخر عليه أو دليل على لزوم إعادة بنائه.

وأخيراً بيّن له الحصر أسرار هذه الأمور المفمضة ليقف على فلسفتها وحكمتها، وتبين أنّه لو لم يحرق السفينة لأخذها ملك عاصب ولتهورت أحوال أصحابها، ولو لم يُقتل ذلك الشاب المرتدّ لاحتل أن تصلّ أبويه المؤمنين، وأنّه كان هناك كثر حمى تحت ذلك الجدار لتهيمس وكان أبوهما صالحاً، وأردف حفظ عليّ كرهما عن هذا الطريق إلى أن يبلغا أشدهما ويستخرجاهما كرهما للاستفادة منه، ومع أن موسى المأمور بظاهر الشريعة لم يمكن من البقاء أكثر من هذا مع الحصر الذي كانت له وظائف أخرى أيضاً وأنّه انفصل عنه طبقاً للعهد الذي أحده على نفسه، لكنّه توضح من خلال هذه القصة بشكل عام إلى أن الكثير من الحوادث التي لها ظاهر مؤلم تعدّ سبباً لليمن والبركة في جوهرها، فضلاً عن وقوفه على العلم التفصيلي لهذه القصص الثلاث، وتبين لعلمنا المحدود نتوهمها في غير محلّها في حين أن وقوفنا على حقيقة الأمر يدفعنا لاقتضاء أثره وإدراكه بكلّ سرور.

كانت هذه علوماً تعلّمها موسى من الحصر إلى جانب علم الشريعة، والأسمى منها هو الحضر الذي يعدّ من الأنبياء الإلهيين عظمي لشأن، والذي كان له اطلاع واسع على هذه الأمور<sup>١</sup>.

١. لمزيد من التوضيح فيما يتعلّق بهذه الآيات وجرئيات هذه القصة، راجع التفسير الأمثل، ديل الآيات ٦٠ - ٨٢ من سورة الكهف.

## ٢- اطلاق داود على إعداد وسيلة دفاعية

تمّ البحث في سورتين من القرآن المجيد حول احصاء الدرع المناسب، الذي كان يعدّ وسيلة دفاعية مهمة لحروب الأزمنة العابرة، وذلك من قبل داود النبي الإلهي العظيم الشأن. يقول تعالى في أحد المواضع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ؟» (الأنبياء / ٨٠)

يتّضح جيّداً من هذه الآية أن إبداع هذه وسيلة الدفاعية قد تمّ في عهد داود عليه السلام وتعليم ربّاني، في حين أننا نعلم بعدم ضرورة أن يكون نبي إلهي مبتكراً لمثل هذا الموضوع.

كما ونقرأ في قوله تعالى: «وَأَلِّهَ لَهُ الْحَدِيدَ • أَنْ اغْمِثْ سَافِرَاتٍ وَفِيزْ فِي السُّرُدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (سأ / ١٠-١١)

لا شك أن هذا الأمر يكشف عن أن إقدام داود عليه السلام على صنع شيء فريد من نوعه، كان بأمر إلهي وأنه تعالى هو الذي علّمه كيفية الصنع وسلّ تلس الحديد، سواء كانت لهذه المسألة صفة إعمار أم تعليم إلهي بالاستفادة من المعدادات والأسباب، وعلى أيّة حال فابتكار هذا الأمر (صنع الحلقات الدقيقة والقوية لحرص سح الدرع في ذلك الزمان، بحيث لا يعيق حركة المقاتل، كما ويسهل ارتدّاه بالإضافة إلى مقاومته لصرّبات وأسنة السهام والسيوف والرماح في نفس الوقت) كان عملاً شاقاً ومحقّداً للغاية، ولم يكن أهميته في ذلك العصر أدنى من إبداع الأسلحة المتطورة في عهده اليوم.

كما ويحمل أن تكون الآية ١٥ من سورة سمل إشارة إلى نفس علم ومعرفة داود بصناعة هذه الوسيلة الدفاعية أيضاً، أو أن تكون مضافة إلى العلوم الأولى حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً»<sup>١</sup>

لقد تناولنا هذا البحث فيما سبق أيضاً - بمسألة أخرى -.



١ ورد هذا الاحتمال في تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٧٩، بل الآية مورد البحث.



## ٣- معرفة يوسف بتفسير الأحلام

هل بإمكان الرؤيا إزالة الستار عن حوادث لمستقبل والكشف عن المسائل؟  
لو كان الجواب «معم»، فأى رؤيا هذه، وهل تنطق الأحلام صراحة أم كناية، أو تكون  
صريحة تارة وكناية أخرى؟ وفي الحالة الثانية فمن أوسك الذين يجيدون لغة كناية الرؤيا،  
ومن بيده هذا العلم؟

وأساساً ما هي حقيقة الرؤيا؟ وكيف ترسم في روح الإنسان وذهنه؟  
هذه هي الأسئلة المعقدة التي تتطلب الإجابة عنها الخوض في أبحاث مطولة ومفصلة،  
وحارجة عن موضوع بحثنا في نفس الوقت<sup>١</sup>.

إن من المسلم به في الأبحاث القرآنية أن بإمكان الرؤيا الدلالة على الأحداث كناية أو  
صراحة، وقد أشار القرآن إلى سبع أحلام صادقة هي سور مختلفة بالإمكان الوقوف عليها  
هي «رسالة القرآن»، المجلد الأول في فيبحث مصادر المعرفة (المصدر السادس - الكشف  
والشهود)<sup>٢</sup>

إن بعضاً من هذه الأحلام كان كينائياً (مثل حلم عمرير كمصر) وبعضها صريحاً مثل حلم  
نبي الإسلام ﷺ حول دخول المسلمين إلى مسجدهم الحرام، وأداء مراسم الحج.  
ويصرح القرآن في سورة يوسف بأننا عشنا يوسف هذا العلم، وتقرأ في قوله تعالى:  
﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف / ٦)  
وقال أيضاً: ﴿وَلَنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. (يوسف / ٢١)

ثم تجسدت نماذج من تفسير يوسف للأحلام، بما فيها الرؤيا التي قصها كل من  
السجينين عليه، ورؤيا ملك مصر، ولتي تحكي كلها عن إحاطته الكاملة بعلم تعبیر  
الأحلام.

بدلها أن عدم اطلاع الأنبياء ﷺ على تعبیر الأحلام لا يحدث في نبوتهم، لكن

١. ورد هناك في التفسير الأمثل، في الآيات المرتبطة بيوسف عليه السلام، بحث مفصل نوعاً ما حول هذا الموضوع، وإن  
كان يواته بالكامل يحتل كتاباً مستقلاً لوحده.

٢. لمزيد من الايضاح راجعوا إلى ج ١، ص ٢١٢ من هذا التفسير

بإمكان هذا العلم أن يلعب دوراً فعالاً في الإسراع من عجلة تطوّر مأموريتهم، وإصفاء المزيد من التقدم على خطّهم.

❧❧❧

#### ٤- العلم بمنطق الطير

تعت الإشارة في القرآن الكريم إلى نوع آخر من العلم والمعرفة بالنسبة لسليمان عليه السلام، والذي يبدو لأول وهلة أمراً عجيّباً، ألا وهو مسأنة القدرة على محاكاة الطيور وفهم حوارها، ونقرأ في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ﴾. (الحل / ١٦)

الكلام هنا طويل:

هل حقاً تتكلّم الحيوانات؟ كيف يكون حديثها؟ هل يهدد الأصوات المتنوعة انسي تبعث منها في مختلف الحالات، أم أنّ هناك كيفة خاصة أخرى؟ لا شك أنّ للطيور أصواتاً متفاوتة ويحسب الظرف والغذاء المختلفة، كالغضب والرضا والجوع والمطش والمرض والضجر، وأنّ بإمكان من نهم أدنى اطلاع على حالها إدراك مرادها لكن من المستبعد أن تكون الآيه أعلاه وأمثالها باطرة إلى هذا المعنى، إذ إنّها تحكي عن مطالب أدقّ وأهمّ، فالبحث هو عن تفاهمها وتخاطبها مع الإنسان، والحديث هو عن سلسلة من المفاهيم العالية والراقية.

مع احتمال إقدام البعض على حمل هذه الآيات وأمثالها على الكسايات أو لغة الأساطير، توهماً منهم باستحالة مثل هذا الشيء للحيوانات، فامتلاك سليمان عليه السلام للمعجزة وإطلاعه على العلوم الإلهية الخاصة لا يستبعد أبداً.

وهناك سؤال وهو، هل أنّ للحيوانات مثل هذا الفهم والشعور لتحدّث مثلاً عن عبادة ملكة سبأ للشمس من دون الله؟

التمنّى في أسرار حياة الطيور، والمطالب لعجيبة التي ينقلها العلماء فيما يتعلّق بذهنها

ومهارتها ودقتها، يكشف عن سقم وسطحية فتراص تجرد الحيوانات خصوصاً الطيور من الشعور.

إنَّ أبحاث العلماء تشير إلى أنَّ لكثير من الحيوانات القدرة على تحديد الظروف الجوية، حتَّى قبل حدوثها بعدة أشهر، في حين أنَّ الإنسان ومع كلِّ الأجهزة التي يستعين بها يعجز أحياناً عن مثل ذلك، ولو لساعات قليلة قبل ذلك.

أغلب الحيوانات تعلم بالزلزال قبل وقوعها وتبدي ردَّ فعلها لذلك، في الوقت الذي تعجز فيه أجهزة رصد الزلازل عن تحمين ولو مقدَّمتها.

غرائب حياة النحل واقتنائها العجيب للمسقط التي تكثر فيها الزهور، وشاطات النمل المحسنة وتطوُّرها المعقَّدة، ومعرفة الطيور انهم حرة بوضع الطرق حين تطوي أحياناً المسافة بين القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الأرضية، وإطلاع البعض من الطيور على أحوال فرائخها قبل تفقيسها، وتوقعها الدقيق لاحتياجاتها مع عدم امتلاكها لتجربة سابقة، وأمور أخرى من هذا القبيل والتي ذكرنا في الكتب المصيرة، والمستندة في هذه الأيام، تشير بمجموعها إلى أنَّ لا عربة في تمتع الحيوانات بموع من الحوار فيما بينها، مع تمكُّنها من التحدُّث مع من له إطلاع على أبعديات لعنها، وحلق رابطة ما معه

الكثير من آيات القرآن تدلُّ على أنَّ محبوبات شعوراً وإدراكاً على خلاف ما يتوهمه البسطاء، بل بلغ الحدَّ بالبعض إلى الاعتقاد أنَّ لكلِّ ذرَّات الكون بما فيها الجمادات نوعاً من الشعور، ومن هنا فقد اعتبروا عموم تسميها مقروناً بالشعور.

هذه المواضع تعود بطبيعة الحال إلى بحوث أخرى ذكرناها في محلِّها، أمَّا الذي ينبغي الالتفات إليه هنا فهو مسألة إطلاع البعض من الأنبياء على «منطق الطير»، وتحدُّث قسم من الحيوانات معهم، والتي لا تعدَّ علماً ضرورياً لأداء الرسالة بل باعثاً على كمال النبوة



قبرستان

# طرق معرفة سفراء الله



١- الاعجاز

٢- التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء ﷺ

٣- جمع القرائن

٤- شهادة الأنبياء السابقين



تجربہ نامہ

## طريق معرفة سفر الله

### تمهيد:

لا شك أن أي ادعاء لا يمكن قبوله إذا لم يكن معرراً بدليل، خصوصاً الإدعاء الخطير جداً وهو ادعاء النبوة مثلاً، وبالأخص بعد معرفتنا لكثير من الأشخاص وعلى امتداد التاريخ ممن ادعوا السفارة والنبوة، ورسالة هداية الخلق من قبل الله روراً وبهتاناً، بهدف إضلال البسطاء من الناس، فادعوا أنهم مرسلون من قبل الله لتحقيق أهدافهم المشؤومة وضمان طموحاتهم اللامشروعة، وقد وقعوا بعض الشيء في كسب بعض المعطلين نحوهم، وبناءً على هذا فلا بد من وجود مقاييس يمكن من خلالها تمييز الأنبياء الإلهيين من المدعين الكذابين، وبعد مطالعة هذا الموضوع بدقة تكشف أمامنا أربعة طرق:

١ - «الإعجاز» وهو القيام بأمور خارقة سعادة وحارجة عن قدرة الإنسان، مرفقة بدعوى النبوة.

٢ - التحقيق في مضمون دعاتهم والتي يمكن أن تكون لوحدها في بعض الأحيان دليلاً على صدقهم وحقائيتهم، وقد يكون هذا الطريق أكثر قبولاً وثقة لدى العلماء حتى من المعجزة.

٣ - جمع القرائن التي تعوم حول مدعي النبوة، وسوابقه وسلوكه ومحيطه والذين آمنوا به، بالإضافة إلى الطرق التي يسلكها لنشر دعوته، وما إلى ذلك.

وكثيراً ما يحدث أن تدفع هذه القرائن مجتمعة للإيمان برسائله وصدق دعوته دون حاجة إلى اللجوء إلى شيء آخر.

٤ - شهادة الأنبياء السابقين التشخيص عن طريق الأخبار وتركيب الأنبياء السابقين، أي أنه يمكن لأخبار من اتضح أنه نبي أن تكون دليلاً وعاملاً مساعداً لمن يأتي بعدهم.

على أية حال فالنبيء المسلم به هو عدم إمكان قبول أي دعوى بلا دليل مقنع، وقد عاتب القرآن مراراً وكراراً أولئك الذين يدعون أو يتبعون بلا علم ولا دليل ومن البيهقي أن أشخاصاً كهؤلاء سيكونون في مهب ريح اللوم والعتاب على الدوام.

وعلى حد قول بعض الفلاسفة: «من يقبل كلاماً بلا دليل لا يستحق اسم الإنسان»

كما أن القرآن يعتبر أمثال هؤلاء الأشد من أي الذين يتبعون الهوى بلا علم ولا دليل من أضل الناس إذ يقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاءَ بَغْيٍ هُدًى مِّنَ اللَّهِ» (التقصص / ٥٠)

وفي موضع آخر يقول بصراحة لمن يدعي دعوى فيما يتعلق بالتوحيد أو السوء: «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (البقرة / ١١١) (النمل / ٦٤)

كما يقول في موضع آخر: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (الإسراء / ٣٦)

وأخيراً فقد اعتبر أولئك الذين يتكلمون بغير علم من أكثر الناس كذباً وامراءً وطمعاً.

يقول الله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَتَمَ عَلَى السَّمْعِ وَالْأَفْصَارِ لِيُحْسِلَ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (الأنعام / ١١٤)

بعد هذه المقدمة الحاطقة يأتي دور كل واحد من هذه الطرق الأربعه وبدأ بمسألة

«الإعجاز».



## ١- الإعجاز

وينبغي الالتفات إلى أن القرآن لا يعتبر بإعجاز المعجزة في هذه المسألة، بل يستعمل وبشكل رئيسي ثلاثة تعابير أخرى وهي «آية» و«آية» و«برهان»، والآن لنسأل خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

١- «قَالَ (فرعون) إِنَّ كُنتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ • فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ • وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بِنُصْحَاءِ لِلنَّاطِقِينَ»

(الأعراف / ١٠٦-١٠٨)

٢- «وَرَمَوْا إِلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَٰئِيلَ أَسْيَ قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْكَلْمَةَ وَالْأَهْرَاصَ وَأُخِي الْمُرْتَضَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ»

٣- «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّنُخْرِجَنَّهُ بِهَا فَا تَخُنْ لَكَ يٰمُؤْمِنِينَ • فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ»

(الأعراف / ١٣٢-١٣٣)

٤- «وَإِلَىٰ (قوم) ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ...»

(الأعراف / ٧٣)

٥- «قَالَ (نوح) يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي لَفُتِّيتُ عَلَيْكُمْ (فهل تنكرون دعوتي ثانية) أَنْزِلُكُمْ كُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ»

(هود / ٢٨)

- ٦- «وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ... \* اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... قَدْ آتَاكَ  
بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ» (القصص / ٣١-٣٢)
- ٧- «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ  
كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (الإسراء / ٨٨)



### جمع الآيات وتفسيرها

#### الإعجاز، أول دليل على النبوة:

كما تمت الإشارة سابقاً فإن لفظة الـ «معجزة» لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم أبداً، بل إن ألفاظاً أخرى من قبيل «آية» و «آية» و «برهان» قد حلت محلها. وعلى الرغم من إطلاق هذه الألفاظ الثلاثة في القرآن على معاني أخرى أيضاً، فإن «المعجزة» أحد معانيها

الآيات المختارة المذكورة هي من أحلى الآيات التي تتحدث عن المعجزة بالاستفادة من هذه الألفاظ الثلاثة، بالإضافة إلى بعض آيات الأخرى التي تعكس مفهوم ضعف الإنسان وعجزه عن مقابلة بعض ما يقوم به الأنبياء من بعض الممارسات المخارقة للتوابع الطبيعية بالمثل، بالرغم من خلوقها من كل وحدة من هذه الألفاظ الثلاثة، وبالنتيجة فهي تثبت استعانة الأنبياء بـ «الإعجاز» لتدليل على حقايقهم من جهة، ومطالبة الناس بـ «المعجزة» من جهة أخرى.

ورد في الآية الأولى: «قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ \* وَنَزَعَ يَدَهُ فَيَسْخَرُ لَهَا وَيَخِشَعُ لِلنَّاطِقِينَ»  
إدنى ما أن فرعون قد اعتبر المطالبة بـ «آية» أي «معجزة» حقاً مشروعاً له، ومن المعلوم أن موسى قد وافق بدوره على هذا الطلب برحابة صدر، وجاء بنموذجين من معجزاته.

وبهذا فهذه الآيات تعتبر الأمور الحارقة لعبادة (المشروطة) تمثل الطريق لمعرفة الأنبياء ﷺ.

هذه الآيات لم تقل أبداً أن هذا الشيء قد نعشم أمام أنظار فرعون، بل تحكي عن حقيقة متحققة ألا وهي استبدال العصا بشعب رهيب، ويأخذ يد موسى حينما أخرجها من جيبه، كما أن التعبير بالـ «ممين» إشارة إلى نفس هذا الشيء أيضاً.

يحتمل أن يكون السبب وراء اختيار هاتين المعجرتين يعود إلى امتلاك إحداهما ميزة الإرهاب للمستكبرين والمعاندين وتهديدهم، والأخرى ميزة الترعيب لإيمان المؤمنين، على أمل أن يمتزج «اللين» بـ «الشدة» ليندما معاً دواء شافياً للعباد.

✽✽✽

وفي الآية الثانية تمت الإشارة بقوة إلى معجرات السيد المسيح، وتم التعبير عنها بالـ «آية»، وكان ذلك في وقت شررت فيه أمرهم <sup>بأنهم</sup> بولادة المسيح ﷺ، إذ قال تعالى: «وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِئُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْسِئُكُمْ مَّا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ»

وقد تم في هذه الآية ذكر مجموعة من معجرات لسيد المسيح خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص الذي يستحيل علاجه، وإحياء الموتى، والتي تمت كلها بإذن الله بالإضافة إلى الإطلاع على الأمور الخفية وأسرار الغيب.

لم يكن معجزة المسيح لتحصير بهذه المعجز الأربع فحسب، إذ إن هناك خوارق أخرى للعادات قد نقلت عنه في القرآن الكريم، من حملتها تكلمه في المهد، ونرول مائدة من السماء على الحوارين بدعائه.

والمعروف هو أن اختيار الله لقسم من هذه المعجرات للمسيح ﷺ، إنما كان بسبب انتشار العلوم الطبية وتطورها في ذلك الزمان، وحاجة الناس الماسة إلى مهنة الطبابة نظراً

لشروع الأمراض آنذاك، فوضع الله هذه المعجزات الخاصة تحت تصرف المسيح، ليتعرف به العالم وغيره ويستسلم له ولتتجلى عظمة إعجازه بشكل أكبر<sup>١</sup>.

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالاعتبار وهي وجود نوع من التنسيق بين هذه المعجزات المادية، وبين البرامع المعنوية والتهوية للسيد المسيح فلقد ربي بدعوته هذه أناساً متفتحين على أفكار ومعارف جديدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم على يديه، وإحياء ضحايا ودي انصلال وهداهم، ومسح بأسرار العيب وأنوار المعرفة على القلوب، وبهذا كانت تلك المعجزات المادية متناسبة مع هذه الأهداف المعنوية.

صحيح أن «المعجزة» يجب أن تكون عملاً خارقاً للمادة بحيث يعجز الكل عن الإتيان بمثله، لكن الله الحكيم الذي يتصرف بحكمة، قد اختار المعجزات طبقاً لبرامجه مدروس هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالتأمل والنصح فهي أن التعبير بـ «إذن الله» قد تكرر مرتين في هذه الآية، لئلا يصل الجهال في وادي لشرك<sup>٢</sup> وسالوا في درحة النبي إلى مرتبة العلو، خصوصاً وأن كمية خلق عيسى كانت بشكل يساعده على تهيئة الأرضية المناسبة للعلو في أفكار قصيري النظر، ولذا فقد تم التأكيد مراراً على إذن الله وأمره لئلا يذهب بهم خيالهم إلى انتصافه واقعاً بصفات الربوبية، وكون هذه الأعمال صادرة منه بنفسه، بل ليعلموا أنها جميعاً من عند الله



الآية الثالثة تبين بوضوح أن موسى عليه السلام قد جاء للفراعة بالعديد من حوارق العادة، (أو بعبارة أخرى بالآيات المفصلات)، لكن الملأ من آل فرعون لم يؤمنوا بحجة كون ذلك «سحراً»، يقول تعالى: «وَقَالُوا مَهْلًا تَأْتِيَنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْخَرَنَآ بِهِ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ \* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

١. وردت هذه الملاحظة في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (بمعنى الأتول، ج ١١، ص ٢٠).

هذه الحوادث العجيبة وغير المتوقعة كانت بها صفتي التأديب والإعجاز معاً.  
 كما أنَّ الآيات اللاحقة لها تبين بوضوح أنَّهم كانوا يلجأون إلى موسى عند الشدائد، ويرجون منه الطلب من الله برفع «البلاء» ويعدونه لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك، ولكن حينما كان يكشف عنهم الرجز ينكثون عهدهم، إلى أن استحقوا أخيراً «عذاب الإشتعال» واجتثوا عن بكرة أبيهم.

صحيح أنَّ الفراعة وبني إسرائيل كانوا يعيشون معاً، لكن لا يحفى أنَّ الفراعة كانوا هم المستهدفين بهذه البلايا، فتلك قصورهم الفخمة تطلُّ على طرفي النيل، بينما منازل بني إسرائيل تقع في مناطق تائية، ولذا ذهب الطوبى والقيصان بقصور الفراعة.

كما دمر الجراد والآفات الزراعية مراراً عليهم لواسعة، وحصلت زيادة مطردة ومعاجنة في تكاثر الصقادع لتخرج من النيل وتدخل في كثر حرثيات حياة الفراعة، بل لم تترك حتى عرف يومهم وموائد طعامهم وأوانيهم بالإضافة إلى تعاقبهم لخسائر فادحة جداً حينما تلون نهر النيل بالدم.

لكن هذه البلايا أو بعبارة أخرى «المعجزات المشبهة» التي ورد شرحها في التوراة العالي، في «سفر الخروج» الفصل السابع إلى ماشر، لم توقظهم أبداً.

ويحتمل أن يكون اختيار هذه المعجزات لخصم باطراً إلى إحاطة العذاب الإلهي بكافة شؤون حياتهم، فالطوفان قلب قصورهم رأساً على عقب، والجراد دمر بسايتهم، و«القتل» ذهب بزراعتهم، والصقادع سلبتهم راحة بالهم وسكينتهم، وإشتعال ماء النيل بالدم حرمهم ماء شربهم.

❦❦❦

وهناك إشارة مختصرة في الآية الرابعة إلى معجزة نبي آخر وهو النبي صالح عليه السلام، حيث تمهر عنها بـ «التيئة»، وكذلك «آية»، يقول تعالى:

﴿وَإِلَىٰ نَجْدٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ

مِنْ رَيْتِكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ...».

«الناقة»: تعني في الأصل أُنثى لبعير، وقد أُشير في القرآن إلى ناقة صالح بهذه اللفظة أكثر من مرة، والتي كانت ناقة إستثنائية بلا شك، وذلك في كيفية حرونها بالإصافة إلى بقية الحالات والصفات التي يكون الحوض في حرياتها خارجاً عن موضوع هذا البحث، إذ لا يعلم أكثر من عدم كونها ناقة عادية، ولذلك يعتبرها بمثابة البئنة والآية ولعرض الوقوف على أهمية هذه المعجزة فقد تمّ التعبير عنها في الآية المذكورة بـ «ناقة الله».

لماذا اختار الله هذه المعجزة من بين كل المعجزات لصالح عليه السلام؟ قال البعض: كان ذلك استجابة لطلب القوم لمثل هذه الناقة.

نقرأ في إحدى الروايات «حينما بُعث صالح بالنهزة بين قوم ثمود الذين كان لهم سبعون صنماً يعبدها، لبث عليهم مدة طويلة يدعونهم وينصعهم، لكنهم لم يجيبوه إلى خير، فقال لهم ذات يوم: أنا أعرض عليكم أمرين، إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فوجيبكم فيما تسألون، وإن شئتم سألت آلهتكم فإن أجابوني خرجت عنكم، فقد شئتمكم وشئتموني، فقالوا قد أنصفت!»

فتواعدوا اليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وأكلوا وشربوا فلما فرغوا، دعوه فقالوا يا صالح سل فسألها فلم تجبه، فقال لا أرى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أسأل إلهي فوجيبكم الساعة، فقالوا يا صالح اخرج لنا من هذه الصخرة (وأشاروا إلى صخرة منفردة) ناقة مخترجة جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك وآمنا بك، ففعل صالح ذلك ولم يؤمنوا<sup>١</sup>.



الكلام في الآية الخامسة هو عن «البئنة» بصباً، وقد ذكرت لها «بيتة نوح» تلك البيتة التي يراد منها «معجزة ظاهرة»، إذ برآه يعقّب على كلام مشركي القوم حينما قالوا: «هبل

١ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤١ (يتلخيص).

تظنكم كاذبين». بالقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَتَبَيَّنْتُ عَلَيْكُمْ (نَعَصْباً وَعَاداً) أَتَلْزَمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ»<sup>١</sup>

قال الكثير من المفسرين أن «البَيْتَةَ» تعني هنا المعجزة، وعلى الرغم من المنقول عن ابن عباس أن المراد بالبَيْتَةِ هو الدليل المنطقي لحسي، لكن نظراً للتعبير بـ «مِنْ رَبِّي» ولكون هذه البَيْتَةُ قد اقيمت في مقابل تكذيب نوح واتباعه، فلا يمكن أن يفهم منها سوى المعجزة، وربما كان مراد ابن عباس من الدليل الواضح عن المعجزة أيضاً.



ونلاحظ في الآية السادسة تعبيراً آخر حول هذا الموضوع ألا وهو «البرهان»، إشارة إلى معجرتي موسى المعروفتين والنتين وردت في الآيات السابقة، أي استدلال العصا بشعان عظيم، وبياض اليد، يقول تعالى: «فَقَدْ يَلَّكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ». و«البرهان» وعلى حد قول الرعيني في معجمه، بمعنى الدليل المحكم، وقد اعتبره البعض مصدراً لمادة «بَرَّة - يَبْرُؤ» إذا بَرَّضَ، و«بَرَّة» هذه المفردة على الأدلة المحكمة من باب بيانها للمطلب، وبوضيحه له، أو لأنه يبحث على اعتحار السكلم، أو أنه إشارته إلى الكلام الواضح الذي يعتريه الإيهام.

وفي «لسان العرب» فسر البرهان بمعنى التبدل الواضح الذي يميز الحق عن الباطل، ومن هنا فسّر المفسرون لفظ «برهان» في ديل الآية بمعنى الدليلين الجليين<sup>٢</sup> لكن صاحب كتاب «التحقيق» يعتقد بأن استعمال لفظ «برهان» بمعنى الدليل اصطلاح منطقي خارج عن دائرة اللغة، وأن معناه هو ذلك الكلام الواضح الخالي من الإيهام، أو الموضوع الواضح تماماً

على أية حال، ففي الآية أعلاه قد استعملت هذه اللفظة في التعبير عن المعجزة، التي تعدّ دليلاً حلياً وواضحاً على صدق مدّعي نبوة. أي لنبي موسى ﷺ هنا.

١. جملة «أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» هي بمثابة الجزاء بالنقض الشرعية «إِنْ كُنْتُ».

٢. تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٢٣٨

وفي الآية السابعة والأخيرة من الآيات التي وردت في البحث لم يكن التعبير بالـ «آية» أو الـ «بَيِّنَة» أو الـ «برهان»، بل بمصداق من المصاديق الباردة جداً للمعجزة، وبعد ذلك تمّ التصريح بالقول: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».

الهدف لا يكمن في الخوص في بحث «إعجاز القرآن» لأنّ هذا البحث قد جاء في ذيل هذه الآية في المجلّد الثاني عشر من «تفسير لأمثل»، كما سيأتي أيضاً في المجلّد القادم من نفحات القرآن، بشرح أوفى، إنّما الهدف هو بيان حقيقة كون المعجزة هي إحدى الطرق القطعية لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا قرأ في ديل آية أخرى دعوة القرآن لمخالصين لإتيان بعشر سور مثل سور القرآن «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» (هود / ١٤)



### ثمرة البصيرة:

يمكن الاستنتاج بوضوح من مجموع ما تقدّم أنّ المعجزة لم تكن بنظر القرآن أحد الأدلة الرئيسية لإثبات نبوة نبي الإسلام عليه السلام بحسب، بل لنبوة سائر الأنبياء أيضاً لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هناك آيات قرآنية تعدّ بمثابة العلة لمكري المعجزة، والتي سنتكلّم عنها بالتفصيل في قسم التوضيحات



## توضيحات

### ١ - ما هي حقيقة الإعجاز

لفظة الإعجاز والمعجزة وكما أشرنا سابقاً لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم، بل قد تمّت الاستعانة بتعابير أخرى في هذا المجال، وقد تقدّم شرحها في الآيات التي مرّ ذكرها، فالبحث هنا ليس بحثاً لغوياً، إذ الهدف هو بيان حقيقة الإعجاز والمعجزة، لكن لا



بأس بإشارة مخاطفة قبل ذلك إلى المفهوم الدعوي للغة «الإعجاز»، ليتضح السبب الذي دفع العلماء والأكابر إلى انتخاب هذه المفردة لخصوص هذا المعنى.

مع أن هناك معنيين قد ذكرا في مقاييس اللغة لأصل «الإعجاز» أي «العجز» وهما: «الضعف» و«عقب كل شيء»، لكن اراغب أرجع هذين المعنيين في المفردات إلى معنى واحد، واعتبر المعنى الأصلي هو «عقب كل شيء»، وقد ترد بمعنى «الضعف» نظراً لتبعية الأفراد الضعفاء للآخرين، وحيث إن معجزات الأنبياء هي من القوة بحيث يعجز الآخرون عن التصدي لها ومقابلتها بالمثل، فقد أطلقت لفظة المعجزة عليها.

على أية حال فـ «المعجزة» في تعريف سدي ذكره لها علماء العقائد، عبارة عن ذلك الشيء الجامع للشروط الثلاثة أدناه

١- العمل المخارق للعادة والمعارض كلياً عن طاقة النوع البشري، والذي يعجز عن الإتيان بعينه حتى أكبر نواحي العالم.

٢- أن تكون مرافقة لدعوى النبوة أو الإمامة من قبل الله، وبعبارة أخرى أن تكون بمثابة الدليل على حقانية مدعى الرسالة والإمامية.

٣- أن تكون بلسان «المتحدث» أي الدعوة للمعارضة والمقابلة بالمثل، وبعبارة أخرى أن يتحدث مدعى النبوة أو الإمامة ولئك الذين يسكرون كونها من عند الله، الإتيان بعينها، بالصبط كما عرض القرآن هذا الأمر أكثر من مرة فيما يتعلق بإعجاز هذا الكتاب السماوي، وقد مررنا مثال ذلك في الآيات السابقة.



ومتاً تقدّم أعلاه يمكن استنتاج لأمرين اثنين.

(أ) المعجزة مستندة على القدرة الإلهية

ولا يمكن قياسها بأعمال نواحي العالم، ولإكتشافات العلمية العجيبة، إذ يحتمل مثلاً وجود طفل ذكي لم يتجاوز عمره سبع سنين، ومع ذلك رآه يخطب خطبة عصماء، فهذا

نوع من النبوع، ولذا يحتمل العثور على طعن آخر مثله أيضاً، أمّا الطفل الرضيع فمن غير الممكن (عادةً) أن ينطق بفصاحة ليقول كما نقرأ بالنسبة للمسيح «قَالَ إِنِّي عِنْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا».

أو أن من الممكن لعالم إحتصار فترة مضوح فأكهة ما من سبع سنين مثلاً إلى عدة أشهر، وذلك باكتشاف علمي جديد وأدوية خاصة، فمن الواضح أن هذا العالم قد جاء باكتشاف عظيم، لكن من المحتمل أن يأتي مكتشف وبغية آخر بعمل مشابه له أيضاً، أمّا لو تحولت شجرة يابسة إلى مشرة في لحظة واحدة (وكست ترافقها دعوى السيوة والتحدّي) فهي معجزة إلهية.



(ب) المعجزة لا تعني عمل المستحيل عقلياً

(سواء كان محالاً ذاتياً كاجتماع الفيض والاضداد في مكان واحد و زمان واحد، أو محالاً بالغير كالامر الذي ينتهي وجوده في حزمة المطاف إلى محال عقلي) لأنه غير ممكن بحكم العقل، أو بعبارة أخرى هو خارج عن دائرة القدرة، أي أن استعمال كلمة «القدرة» في حقها لا معنى له أصلاً، مثل أن يريد أحد الأنبياء أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في آن واحد، أو أن يضع صخرة عظيمة داخل بيضة دون أن تصغر الصخرة أو تكبر البيضة، مثل هذه القضايا إنما تزرع التضاد في داخلها بنفسها، أي أنها في حقيقتها قصيدة حاطنة، ومفهومها في الحقيقة هو أن يريد الإنسان شيئاً ولا يريده (تأمل جيداً).

وبناءً على هذا فالمحالات العقلية لا محل لها في بحث الإعجاز، ولا حتى في أي بحث آخر، بل الذي يمكن عرصه هو امحال لعادي محسوب، وبهذا فالمعجزة محال عادي لا غير.

أي أن مثل هذا الشيء لا يمكن تحقيقه طبقاً للتسلسل الطبيعي لقانون العلة والمعلول، واستناداً إلى الأسباب والشروط العادية والطاقة البشرية، لكن لا مانع من تحقيقه أبداً بالقدرة الإلهية كالأمثلة المذكورة آنفاً

## ج) المعجزة لا تعني تعطيم قانون العلّية

قد يتوهم البعض أننا وبقبولنا للمعجرات يجب أن نصرب أصل العلّية عرض الحائط، وإن نسلم بإمكان صدور المعلول بلا علّة، إلا أن هذا المعنى غير مقبول لدى أي عالم ومفكر.

ومن الواضح أن أصل العلّية لا يحصر في الأصول البديهية للعلوم البشرية، بل يمتدّ ليمدّ في الفلسفة أيضاً من المسائل البديهية، وذلك لعدم إمكان وجود أية حادثة بلا علّة، والقائلون بالمعجزة لا يسكرون هذا لأصل سديهي والمسلم به.

وبناء على هذا فـ للمعجرات علل وأسباب حتماً خلافاً لهذا التوهم، ويحتمل أن تكون هذه العلّة أمراً ميتافيزيقياً أي ما وراء عالم الطبيعة (وذلك لعدم انحصار الوجود بعالم المادة والطبيعة فقط)، بل يمكن أن تكون علّة طبيعية إلا أنها غير مكتشفة، أي تلك العلّة التي يستحيل لأفراد البشر إدراكها دون الاتكاء على علم وقدرة الخالق، وبهذا فكلاً وصل إنسان ما لهذا العامل الطبيعي والمجهول في نفس الوقت، لاستنساخ انكاءه على قدره إلهيه ومعجرات الأنبياء عليهم السلام يمكن أن تكون من النوع الأول أو الثاني، وذلك لتساويهما في إثبات ارتباطهم بالله.

وقد اعتمد القرآن في موارد كثيرة على قنون العلّية وتقبله كأصل مسلم به، سواء فيما يتعلق بعالم الطبيعة والخلقة أو بحياة الإنسان الاجتماعية أو حتى بالحياة الشخصية لكل فرد، وهناك ما لا يعدّ ولا يحصى من الآيات لشريعة حول هذا الموضوع، وطبقاً لهذا فلا يمكن القول بأن المعجزات معاليل بلا علّة



## د) المعجزة لا تنزل أسس التوحيد ومعرفة الله

قد يتوهم البعض ويقول، لقد عرفنا الله من خلال نظام عالم الحلقة الثابت، فلو أمكن إزالة هذا النظام عن طريق المعجرات، لترُمل أسس التوحيد ومعرفة الله، إنكم تريدون

إثبات النبوة بواسطة المعجزات، وياكم انكم إنما تهدمون بذلك أساس التوحيد وعلى حد قول البعض الآخر إن النظام الإلهي يسر العوبة بيد المتلاعبين، يحرر كونه كيفما شاءوا وأمثال ذلك.

والحقيقة أن الدين يدعون بمثل هذا هم من المستغربين الماديين، الذين توهّموا أن إنكارهم للمعجزات هذا، سبغت أقطار المفكرين الغربيين إليهم، حتى الماديين منهم، مع كون هذا الكلام خطأ محض بسبب.

أولاً: كما تقدم سابقاً أنه لا شك لأحد في «أصالة» و «عمومية» قانون العلوية، كما أن تفسير المعجزة بـ «المعلول بلا علة» خطأ دح، وغياب مسير العلل العادية استثناء بمثال محدود واحد أو أكثر. لا يحدث في نظام نكون أبداً، لأن ما يتجسد أماما كل ساعة من الآلاف المؤلفة من مصاديقه لا يمكن أن يتركز بحالة استثنائية تحدث بالسهة مرّة مثلاً فصلاً عن كون حصول ذلك الاستثناء لإثبات هدفهم أكبر، نعم لو حدثت كل يوم آلاف الآلاف من المعاجز لكان هناك مجال لتركز البعض في أصل وجود نظام الكون.

ثانياً: لم يدع أحد أن نظام الله هو العوبة، أو أن الأسوء هو يتصرفون به كما يحلو لهم، بل الذي يعوله هو أن الأنبياء عليهم السلام إنما يظهرون أمراً حارقاً للعادة بأمر من الله، ليستبوا ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة، مع اكتفائهم بحد الأدنى من المعاجز، وعدم استعدادهم لتقبل المعجزات المقترحة (المعجزات التي تقترح من قبل ذوي الحجاج والشكوك الباطلة). وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى، والتي سنتكلم عنها بالتفصيل إن شاء الله عند عرضنا لمصطلح «المحالفين للمعجزات».



#### ٥٠ فرق المعجزة عن التبرع

لقد اتضح عدم وجود أي شبه بين المعجزة وعمل سوايح، إذ إن المعجزة هي العمل الخارج أساساً عن قدرة الإنسان، في حين من الممكن أن يظهر أمام كل نابغة شخص مثله

ليقابله بالمثل، فضلاً عن أن أعمال النواحي محدوده بحدود معينة على الدوام، فأحدهم يبرر مثلاً في الأدبيات والآخر في الفن وثالث في الرياضيات والرابع في الصناعة و...، أما إعجاز الأنبياء ﷺ فلا يحده إطار معين

وبعبارة أخرى فأهل النبوغ إنما يؤدّون ما يعلمون لا ما يطلبه الناس منهم، في حين أن معجزات الأنبياء تتم طبقاً لمراد الناس (وهم أتباع الحقيقة طبعاً، لا من يبحث عن الحجب والذرائع).

بالإضافة إلى قيام النواحي عادةً بتنمية قدرتهم الباطنية عن طريق التربية والتعليم، وعجزهم عن أداء أي شيء مع غياب لتعلم مستمر والتدريب المتواصل، في حين أن هذا لا يصدق في حق الأنبياء ﷺ.



### (و) هل أن المعجزات عمل إلهي أو نتيجة قوة نفوس الأنبياء؟

طبعاً لما قلناه سابقاً، فالأمور الصادرة من النبوغ أو إرادة الإنسان القويّة أو النفوس السامية، هي أمور محدّدة ومشحّصة، وبالإمكان العثور على نظير ذلك الشيء عند باقي البشر، في حين أن المعجزات غير محدوده وغير قابلة للمعارضة، كما أنه لا يمكن العثور على أمثالها في غير الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

أما حديثاً فيدور حول المعجزة، وهل أنها من عند الله وأن دور الأنبياء يقتصر على الدعاء والطلب فحسب، أم أن الله يمنح نفوس الأنبياء وإرادتهم قوة تمكنهم من أداء هذه الأعمال الحارقة للعادة بإدبه تعالى؟

لا شك أن بعضاً من المعجزات كالقرآن المجيد هو عمل الله وكلامه، والحديث هنا عن معجزات أخرى كمعجزة عصا موسى عليه السلام وبهد البهائم، ومعجزات المسيح عليه السلام فيما يتعلق بإحياء الموتى وشفاء المرضى.

وكلا الاحتمالين ممكنان بنظر العقل، أي أنه لا مانع أبداً في أن تتحقق المعجزة من قبل

لله ودعاء النبي وطلبه، أو أن يمنح الله مثل هذه القدرة لنفوس الأنبياء، ولا منافاة لأي منهما مع أصل التوحيد وإسناد المعجزات إلى الله.

كما أن هناك اختلافاً بين ظواهر آيات نقرأ أيضاً. يقول تعالى فيما يتعلق بإحياء الموتى من قبل المسيح عليه السلام: ﴿وَأَخِي الْمَوْتَى يَبْذُرُهُ اللَّهُ﴾ إذ إنه نسب إحياء الموتى هنا إلى نفسه.

في حين أنه يقول تعالى فيما يتعلق بحق الطير: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. (آل عمران / ٤٩)

فالأولى تبيّن أن بعضاً من المعجزات يكون من عمل الأنبياء عليهم السلام بأمر من الله، والثانية تدلّ على أن البعض الآخر هو من عمل الله، وكما قلنا فكلاهما يعودان في حانئ المطاف إلى الإرادة الإلهية ولا منافاة لأي منهما أبداً مع أصل التوحيد.

فهل أن الدواء الشافي بإذن الله يتنافى وأصل التوحيد؟

من البديهي أنه لا مانع أبداً في أن تؤثر إرادة شخص النبي الأكرم عليه السلام في إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله، وقد فاتت المصيرين على تقي هذا المعنى، تلك الحقيقة وهي أن تأثير كل شيء إنما هو بإذن الله وهذا هو عين التوحيد.

﴿﴾

## ٢ - العلاقة بين الإعجاز والنبوة

هناك كلام بين العلماء فيما يتعلق بكيفية دلالة المعجزة على نبوة صاحبها، أي كيف تثبت أن المعارف والقوانين والأحكام التي جاء بها هي وحي إلهي؟ قال البعض: إن دلالة المعجزة على هذا المعنى هي دلالة عقلية، في حين رجّح الكثير منهم كونها دلالة وصعية.

بيان ذلك: قد يتصور أحياناً أداء عمل حارق للمادة لا يمكنه أساساً أن يكون دليلاً على صدق مدّعي النبوة، إذ لا مانع من قيام شخص بمعجزة ما مع عدم كونه نبياً، فلو أن أحداً

كان خطأ طأ ماهرأ، فهل يدل هذا على ضرورة كونه عالماً متبحراً أيضاً؟  
لكن هناك ملاحظة لم ينتبه لها أصحاب هذا الكلام، ألا وهي أن الأمر الخارق للعادة  
الصادر من العلماء المتبحرين لا يُعدّ معجزة ودي يعوق قدرة الإنسان، أي المستند على  
خصوص القوة الإلهية

هل يمكن أن يضع الله أمراً خارقاً للعادة، خارجاً عن عهدة البشر، تحت تصرف مدّع  
كذاب ليصل عباده؟ هل يسجّم هذا المعنى مع حكمة الله؟ هذا يشبه تماماً ادّعاء أحد بآتي  
وكيل للشخص الفلاني إليكم، ويستدلّ على ذلك بالحاتم الحاص الذي في يده، والذي يعود  
إلى ذلك الشخص، مع علم صاحب الحاتم بذلك

لا شك في كون هذا الأمر دليلاً على قبوله ورصاء، وإلا فمن المستحيل أن يسكت على  
عمل كهذا

وهذا هو ما بينه القرآن فيما يتعلق بآتي الإسلام ﷺ في الآيات: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ  
الْأَقَاوِيلِ • لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ لَقَطَفْنَا مِنْهُ الْوَيْتِينَ﴾ (الحاقة / ٤٤ - ٤٦)

إشاره إلى أن آتي الإسلام ﷺ ومع امتلاكه لتلك المعجزات، لو انحرف عن الحق وسب  
إلى الله كلاماً محالاً، لاستلزمت الحكمة الإلهية عدم إمهاله ولو لحظة واحدة ولاهلكته في  
الحال.

من الطبيعي أن المدّعين للنبوة كذباً كانوا ولا زالوا كثيرين في العالم، ولا داعي لأن يهلك  
الله أحداً لمجرد ادّعائه النبوة كذباً، هذا الكلام إنما يصدق في حق أولئك الذين لديهم  
معجزة، إذ إنهم لو كذبوا على الله لما أمهلهم أبداً باعتباره اغراء بالجهل.

الجواب الآخر عن هذا السؤال هو أن الأنبياء ﷺ كانوا يدّعون أن الرسالة إنما تعطى  
لهم عن طريق الوحي، سواء كان الوحي نازلاً عليهم مباشرة، أو عن طريق نزول الملائكة،  
أياً كان فهو أمر حارق للعادة غير مشابه لإدراكات الإنسان الاعتيادية، وحتماً فإن هناك  
نوعاً من السيطرة على عالم ما وراء الطبيعة في نفوس الأنبياء.

ومن هنا كان المخالفون يستشكلون على الأنبياء بأنكم بشر مثلنا فكيف تمكنتم من الإرتباط بما وراء الطبيعة؟ ولذا فقد توسلوا بالمعجزات لإثبات تفاوتهم مع الآخرين<sup>١</sup>. ومع أن كلا الجوابين مناسبان وفي نفس الوقت لا تنافي بينهما، فالأول يبدو وكأنه أوضح من الثاني

❦❦❦

### ٣ - الاختلاف بين معجزات الأنبياء ﷺ

من المعلوم أن معجزات الأنبياء الإلهيين كانت متفاوتة ومتنوعة كثيراً، فهل ياترى أن هذا الأمر كان من قبيل الصدفة؟ أم أن هناك فلسفة ما وراء ذلك  
إن احتمال الصدفة بعيد جداً، والظاهر هو أن الله الحكيم قد وصح معجزات الأنبياء بشكل بحيث تترك كل واحدة منها أكبر الأثر، قياساً بالطرووف الرمائية والمكانة لكل نبي على حده.

فمثلاً حينما نجد أن القرآن يُعتبر أكبر معجزة لنبي الإسلام ﷺ، فإن ذلك بسبب كونه أن نبي الإسلام ﷺ مبعوث إلى كل البشرية وإلى أبد الدهر، ومن هنا فلا بد والحالة هذه أن يأتي بمعجزة خالدة لا تتعد دورها بمرور الأيام.  
ثانياً: أنه ﷺ كان أمياً، فمعجزته بمنزل كتاب قرآن بعد من أرفع مراتب الإعجاز  
ثالثاً: إنحطاط المستوى المكري لبئنة الجاهلية مع رفعة مصامين القرآن، وهذا قرينة واضحة أخرى.

مضافاً إلى ذلك نجد أن أدبيات العرب وعلى اختلاف أفكارهم ومعارفهم كانت في ذلك الزمان قد بلغت الدروة، إذ كان لهم شعراء فحول وحطباء يضرب بهم المثل، وبالإمكان الوقوف على سادج منها في الشعر انجاهلى حينما يستسلم مثل هؤلاء أمام فصاحة وبلاغة القرآن، تتجلى هذه المعجزة بشكل أوضح.

١ تفسير الميزان، ج ١، ص ٨٦، ديل الآية ٢٢ من سورة البقرة (بالتباس).



وهكذا بالنسبة لمعجزة سليمان عليه السلام في مسأنة تسخير الرياح والشياطين، ومعرفة منطق الطير كانت متناسبة مع اتساع دفعه ملكه وحكومته. بظراً لتجاوز حدود مملكته لعالم البشرية.

هذا الكلام يمكننا استنتاجه بوضوح من قول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في معرض جوابه عن سؤال «ابن السكيت» (العالم المعروف بأدبيات العرب) حينما سأل «ابن السكيت»: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء والمصفا وآلة السحر، وبعث عيسى بالنطب، وبعث محمداً ﷺ بالكلام والخطب؟ قال الإمام عليه السلام: «إِنَّ الله تبارك وتعالى لما بعث موسى كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحق عليهم.

وَأَنَّ الله بعث عيسى في وقت ظهرت فيه العاهات واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، إذ أحصى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحق عليهم، (طبعاً كانت مهنة الطب والطابة رائحة كثيراً).  
وإِنَّ الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من كتاب الله ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت الحق عليهم.  
فحينما سمع ابن السكيت هذا الكلام قال «تالله ما رأيت مثل اليوم قط» أو «تالله ما رأيت مثلك اليوم قط»<sup>١</sup>.



#### ٤- السحر لا يضاهي المعجزة

وهنا يرد سؤال مهم آخر كان قد تحدث في كلمات العلماء منذ قديم الأيام، وهو أنه كثيراً ما يشاهد أن أشخاصاً حتى من الكفار قد نالوا قسطاً من خوارق العادات نتيجة للرياضات

١- بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٠ (باب ملة السحرة، ح ١).

الشاقة ومقاومة ميل النفس والتمارين الصعبة للغاية، وبالحصوص بين مرتاضي الهند، وهناك نماذج مختلفة منها في كتب العلماء ولصحف انيومية، وهي بكثرة بحيث لا يمكن إنكارها، بل إن أصعب الناس تصديقاً حينما يرى هذه المواقف يذعن بإمكان صدور الأمور الخارقة للعادة من أفراد لا يمتنون للدين بهلّة

والآن يثار هذا السؤال: وهو أنه كيف يمكننا التمييز بين حوارق العادات هذه وبين معجزات الأنبياء؟ ولو كان هناك تعاوياً بينهم فما هو؟ ألا يحتمل أن تكون معجزة النبي من قبيل حوارق العادات لدى المرتاضين أيضاً؟

**الجواب:** يسمى أولاً تقديم تعريف مختصر عن «السحر» فهناك أبحاث موسّعة عن ماهية السحر وتاريخ ظهوره، إذ من الصعب تحديده سارع معي. لكن يمكن القول إن السحر يعني في الأصل كلّ أمر لا يعرف مصدره، ويضيقه عادةً على الأمور الخارقة للعادة التي تتم بطرق معيّنة، والهدف منه هو إشغال الناس كمخداعهم كما وسوسلوا أحياناً بالعوامل الخفية أي أنهم يعكسون أمام أنظار العوام مسائل لا حقيقة لها، بالتلمّسات القويّة والمؤثرات ويستفيدون أحياناً من المهارة والحدع، وهي ما يصطلح عليها بـ «الشعوذة»، وهكذا يشعلون لناظر بأشياء معيّنة ثم يحركون الأشياء عن مواضعها بسرعة ومهارة بحيث لا يلتفت إليها لناظر بل يطنّها حرقاً للعادة.

كما ويستعينون أحياناً بالخواصّ الفيزيائية والكيميائية المجهولة لبعض الأجسام، أو الأمور المرتبطة بكيميّة صدور النور من روي مختلفة، بحيث يرى الناظر أمامه أموراً خارقة للعادة لا يعلم بأسرارها.

وأخيراً تلك الأمور الخارقة للعادة عن طريق الارتباط بالأرواح والاستعانة بالشياطين، وهذه كلّها تندرج تحت المفهوم سموي اجماع لكلمة «السحر».

كما يمكن اعتبار أعمال المرتاضين التي يؤدونها عن طريق التمارين الشاقة، وتركز القوى الروحية والبدنية صريحاً من «السحر» أيضاً، وإن كانت تعدّ أحياناً خرقاً للعادة في قبال السحر.

على أية حال فأداء هذه الأمور من قبل البعض لا يمكن إنكاره، لكن الشيء المهم هو الوقوف على سمات كل من «المعجزات» و«السحر وخرق المرتاضين للعادات»، ليتبين الفرق بينهما بالكامل

وهنا تواجه بعض الاختلافات البارزة:

١- المعجزة مستندة على القوة الإلهية في حين أن سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوة البشرية، ولذا فالمعجزات عظيمة جداً وغير محدودة، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين.

وبعبارة أخرى، فالسحرة والمرتاضون على استعداد لأداء تلك الأمور التي تمرّون عليها لا غير، دون التي تقترح عليهم، ولم يحدث بي الآن أن عبّر السحرة أو المرتاضون عن استعدادهم لأداء ما يشير إليه الآخرون، وذلك يتدرّب كل واحد منهم على نوع معين

صحيح أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبادرون إلى إظهار المعجزات حتى قبل أن يطلبها بها الناس، (كالفرار بالسبب لبي الإسلام ﷺ، ومعجزة عصا موسى وبده البيضاء، وإحياء المسيح للموتى) لكنهم مع ذلك لم يعجزوا عن إجابة اقتراحات الأمم عليهم، كمسألة شق القمر، أو رفع الفتى والبلايا عن الفريضة، أو برول مائدة سماوية للحواريين، وأمثال ذلك (طبعاً على شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التعتب)

ولذا نجد في قصة موسى عليه السلام أن المراجعة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدمات العمل، وذلك تحت عنوان: «فَأَجِئُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اسْتَوَا صَفًّا». (طه / ٦٤) في حين أن موسى كان في عي عن مثل هذه المقدمات، كما أنه لم يطلب منهم إعطائه الفرصة للتفكير في كيفية مقاومة السحرة، حتى بعد اطلاعه على سحرهم، وذلك لاعتماده على القدرة الإلهية واعتماد السحرة على القدرة البشرية المحدودة.

ومن هنا فالخرق البشري للعادات قابض للمواجهة والمقابلة بالمثل، وبإمكان الآخرين الإتيان بمثله، ولنفس هذا السبب أيضاً لا يجرو من يأتي بهذا العمل على «التحدي» أي الدعوة للمقابلة والإدعاء بعجز الكل عن أداء ما يؤدّه، في حين أن المعجزات كانت مرفقة

بالتعدي دائماً، وذلك لعجز أي إنسان عن الإتيان بعثنها أهدأ (اعتماداً على القوة البشرية). فقد أمر الله تعالى نبي الإسلام ﷺ أن يحييهم بهذه الآية. «قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ -» (الإسراء / ٨٨)

ومن هنا أيضاً فسرعان ما تهر الحوارق البشرية أمام المعجزات، ولا يستطيع السحر الوقوف أمام المعجزة أهدأ لعجره عنها، بالصبي كعجر أي إنسان عن الوقوف أمام الخالق المثال الواضح لهذه المسألة في القرآن الكريم قصة موسى وفرعون، إذ إنهم جمعوا كل السحرة من مختلف اصقاع مصر، وأحدوا قسماً وافرأ من الوقت لترتيب مقدمات إبداء السحر، وقاموا برسم الخطط لذلك، لكنهم ما بشوا أن تهرروا في لحظة واحدة أمام إعجاز موسى وأصحي سحرهم كراب بقعة.



٢ - بطراً لكون المعجزات من قبل الله فهي عبيد على التدريب والتعلم الخاصين. في حين أن السحر ورياضات المراثيين مسبوقة دائماً يسوع من التدريب والتمارين المستمرة، إلى درجة أن التلميذ لو لم يتقن تعليمات أستاذه لاحتمل عجره عن أداء ذلك أمام الناس وامتصاحه في خاتمة المطاف

وبمبارة أخرى يمكن للمعجزة أن تتحقق في لحظة واحدة وبدون أية مقدمات، في حين أن الحوارق الأخرى للعادات عبارة عن تلك لأمر التدريجية التي تحصل الإحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الأيام، بل السنوات والتي لا يمكنها الظهور بشكل دفعي فجائي أهدأ وقد تمت الإشارة في قصة موسى وفرعون إلى هذه المسألة أيضاً، حيث يتهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسى عليه السلام، وأنه أستاذهم الذي أطلعهم على أسرار السحر: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» (طه / ٧١)

ومن هنا يحدث أحياناً أن يستغرق السحرة عدة أشهر وسنين في تعليم تلاميذهم وتدريبهم.



٣- أحوال صاحب المعجزة دليل على صدقه، الطريق الآخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنه بين حالات أصحابها، فأصحاب المعجزات مبعوثون من قبل الله لهداية الناس. ولذا نراهم متصفين بأوصاف تناسب ودورهم هذا، في حين أن السحرة والكهنة والمرتاضين لا يهدفون إلى هداية الناس، ولا يتكفلون بمتابعة مثل هذه الأهداف، بل ينحصر هدفهم عادة في واحد من الأمور الثلاثة التالية:

١- إستغلال البسطاء من الناس.

٢- كسب الشهرة بين عامة الناس.

٣- المكاسب المادية التي تجنى عن طريق إشغال الناس وإلهائهم.

وحينما ينزل هذان الفريقان (الأنبياء، والسحرة وأمثالهم) إلى الميدان لا يتمكنون أنداً من كتمان أمنياتهم وأهدافهم مدة طويلة، ينضب كما طلب السحرة وقبيل سرولهم للميدان أجراً عظيماً من فرعون، وقد وافق على ذلك، «قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ» قال نعم وإنكم لمن المقربين. (الأعراف/ ١١٣- ١١٤)

في حين أن الأنبياء يكررون دائماً القول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» (الشعراء/ ١٠٩)

(وقد ورد هذا التعبير في حق الكثير من الأنبياء في العديد من الآيات).

ووقوف السحرة في خدمة فرعون يكفي بنفسه للتصير بين «السحر» و«المعجزة».

ولا يخفى أن حقيقة الإنسان لا بد وأن تنعكس من خلال تصرفاته، وإن أجاد في كتمان أفكاره وأهدافه.

خلاصة القول هي أن الوقوف على بديات حياة أمثال هؤلاء الأشخاص وكيفية استفادتهم من حرقهم للعادات التي يؤدونها، مع الأخذ بنظر الاعتبار مكانة أمثالهم بين مختلف شرائع المجتمع، بالإضافة إلى نوعية تصرفاتهم وأخلاقهم، يمكنها بمجموعها أن تكون دليلاً حساساً لتمييز «السحر» عن «المعجزة»، ومع غض النظر عن موارد الأخلاق الأخرى التي ذكرت، نجد أن من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقيّة خوارق العادات من خلال هذا السبيل.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بتعابير دقيقة، إذ يقول في موضع: «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُ بِالسَّحَرِ إِنَّ اللَّهَ سَيَهْلِكُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» (يونس / ٨١)  
أجل فالسحرة أشخاص مفسدون ذوو أعمال باطلة، ومن الواضح أن أعمالاً كهذه لا يمكنها أبداً أن تكون لها حيشة إيجابية في المجتمع

وفي موضع آخر حينما يخاطب الله تعالى موسى يقول: «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» ثم يضيف: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» (طه / ٦٨-٦٩)

نعم، فعمل الساحر مكر وخديعة، ولا بد لمهوله النفسية أن تتلاءم وعمله هذا، إنهم أشخاص متقلبون مخادعون، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرفاتهم، في حين أن إحصاء وصدق وصفه الأنبياء ﷺ دليل مقرون بإعجازه أصمى عليهم المزيد من الجلاء والوضوح.



## ٥- منطق منكري الإعجاز

يتشبت منكرو الإعجاز في بعض الأحيان بدلائل عقلية طاهرية، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج لها وأجبنا عليها، كما نعتك البعض أحياناً بقسم من آيات القرآن طعناً منه بفسادها لمسألة معجزة الأنبياء، خصوصاً معجزة نبي الإسلام ﷺ، أو إنكارها للمعجزات من غير القرآن، وأهم الآيات التي تمسكوا بها أو التي يحتمل البحث فيها هي الآيات التالية:

١- تقرأ في سورة الإسراء: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَظِيرِ وَعِنْبٍ فَنَقْتِرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيراً \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعْنَتْ عَلَيْهَا سُفُوفاً (قطعاً) أَوْ تَأْتِي بِنَارٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَاباً تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي (من هذا

الكلام الفارغ) هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. (الإسراء / ٩٠-٩٣)

وكما نلاحظ فتبي الإسلام ﷺ لم يستجب أبداً لواحدة من حوارق العادات والمعجزات التي طلبها هذا الفريق من مشركي قريش، بل اقتصر جوابه على القول: «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا».

٢- كما ونقرأ في نفس هذه السورة: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ». (الإسراء / ٥٩)

إذ إن هذه الآية أيضاً تبين أن الله لم يعط المعجزة لمسي الإسلام ﷺ وذلك لأجل تكذيب الأولين بالآيات الإلهية!

٣- وجاء في سورة هود: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ بِحُجَّةٍ مِّمَّا أَنْتَ تُنذِرُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». (هود / ١٢)

هذه الآية كالأولى أيضاً التي تقول في قبال طلب الكفار «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ»

٤- وجاء في سورة الرعد أيضاً: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» (الرعد / ٧)

ألا تصرح هذه الآيات بعدم استجابة النبي الأكرم ﷺ لطلبهم بشأن الاتيان بالمعجزة؟  
٥- ونقرأ في سورة الأنعام أيضاً: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». (الأنعام / ٣٧)

يقول المفسر الكبير المرحوم أمين الإسلام الطبرسي في ديل هذه الآية: وقد اعترض جمع من الملاحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا: إنها تدل على أن الله تعالى لم يُنزل على محسب آية، إذ لو نزلها لذكرها عند سؤل المشركين آياتها (ثم يتعرض بعد ذلك للرد على هذه الشبهة وهو ما سنشير إليه فيما بعد)

يتضح من كلام هذا المحقق أن مثل هذه لوساوس حول المعجزات كانت منذ قديم الأيام، ولم تقتصر على عصرنا هذا

كما أنَّ هائل عدّة روايات ذكرت حول هذا الموضوع، لكن ضعف استدلالها دفعنا لفضّ الطرف عنها

### الجواب :

الانتفاذ إلى بعض الملاحظات يكفي لتوضيح تفسير هذه الآيات، كما ويضع نهاية لهذه المحجج أيضاً.

١ - من الواضح أنَّ أيّاً من هذه الآيات لا ينفي المعجزات بشكل مطلق، وعلى فرض دلالتها على ما توهمه المستدلون فهي لا تتعدّى أكثر من نفي المعجزة عن نبي الإسلام فحسب، فضلاً عن بدهة عدم نهيا لمعجزة لقرآن، وذلك لأنّ الكثير من آيات القرآن قد اعتبرت هذا الكتاب السماوي معجزة خالدة، كما ودعت كلّ المخالفين للمنازلة، لكنّهم عجزوا عن مقابلتها، فأمة معجزة أكبر <sup>(أرفع من دعوة إبليس والجن للمعاصرة وعجزهم عن ذلك<sup>١</sup>)</sup>

وبناءً على هذا فعلى من صرّح صراحةً كلّ هذه الاستدلالات ستختصر معجزة نبي الإسلام ﷺ بالقرآن المجيد، وهذه المسألة (وعلى فرض صحتها) لا تحدث في مسألة نبوة نبي الإسلام ﷺ، كما أنّها لن تخدم محالفي نبوة بأي وجه.

آيات القرآن مليئة بمعجزات الأنبياء السابقين وحرّقهم للمعادن، وبهذا فمعجزاتهم هي مثلاً لا يمكن إنكاره، أمّا فيما يتعلق بنبي الإسلام ﷺ فإنّها تصرّح بإعجاز القرآن، وهكذا لن يبقى سوى نفي باقي المعجزات عن نبي الإسلام ﷺ، وهذا على فرض صحته لا يؤثر في المسائل الاعتقادية باعتباره مسألة فرعية وتاريخية لا غير

٢ - لسان هذه الآيات يكشف عن أنّ الهدف ليس نفي المعجزات الحقيقية بل الافتراضية.

بيان ذلك: إنّ الواجب على كلّ الأنبياء هو إثبات صدق دعواهم عن طريق المعجزات أو

١. راجع الآيات يونس، ٢٨ وهود، ١٢ والإسراء، ٨٨.



طرق أخرى، وبناءً على هذا فكلما جاءوا بالمعجزة بما فيه الكفاية لم يبق هناك دافع يدفعهم لإظهار المزيد من المعجزات، إذ إن مهمة النبي الأكرم ﷺ لم تكن خرق العادة فقط، ليجلس في زاوية ويقترح عليه كل شخص معجزة طبقاً لهواه، ثم يقترح أخرى بعد مشاهدتها لو طاب له ذلك ويثبت بعواتين الحق، وبعد كل هذا أيضاً فإما أن يدعن لدعوة النبي الأكرم ﷺ أو يرفضها لو لم يرغب فيها

وبعبارة أخرى، فالنبي مكلف بإبداء المعجزات لطايب الحق، بما يكفي لإقامة الحجة وليس مسؤولاً أبداً للاستجابة للمعجزات الإقتراحية التي يثيرها المستذرعون طبقاً لأهوائهم، لا لتحقيق الحق، بل للحصول على منفعة يحصلونها من الحقيقة

الإقتراحات التي ذكرت في أول آية دليل واضح على هذا الموضوع، فهم من جهة قد طلبوا سبع معجزات مع أن واحدة تكفي للباحث عن الحقيقة

وطلبوا من جهة أخرى معجزات يكمن فيها فسادهم، إذ قالوا مثلاً «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا»، ومن الواضح أن طالب الحقيقة لا يطلب تلك المعجزة التي فيها فساد أبداً، إذ الهدف من المعجزة هو الإيمان لا الموت والفتنة

ومن جهة ثالثة فقد طلبوا المعال، كما فترحهم مثلاً برول الله والملائكة عليهم «أَوْ تَأْتِي بِلَهُ وَالْمَلَائِكَةِ مِهْبَلًا»، وعدم وجود الله في مكان معين ليتركه ويأتي إلى هؤلاء المتعطلين هو مآل لا يخفى

ومن جهة رابعة نراهم يصرّحون بعد طلبهم للمعجزة المقترحة بأنهم لا يؤمنون به، حتى تؤدي العمل الملاني الآخر أيضاً، «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُوحِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا (من الله) تَقْرَأُهُ».

ومع الأخذ بنظر الاعتبار لما تقدم نفهم بوضوح أن هدفهم لم يكن سوى المعجزات الإقتراحية، وليس هناك أي نبي يستجيب لمثل هذه الطلبات

اللطيف هو ما نقرأه في الكثير من الحوادث التاريخية المرتبطة بعصر ظهور الأنبياء، خصوصاً نبي الإسلام ﷺ أن الكفار وبعد مشاهدتهم للمعجزات نراهم يتوسلون بذريعة

كونها سحراً، تهريباً من المسؤولية وتحاشياً للرصوح لها، وهو ما قام به بالضبط فرعون وأتباعه أيضاً في قبال موسى ﷺ، حيث إنهم وحتى بعد مشاهدتهم لقلب موسى ﷺ بمفرده على كل أولئك السحرة الماهرين المرتاضين وإيمان السحرة به، والذي يدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك على إعجاز موسى ﷺ، واعتماده على القدرة الإلهية، لم يتنازلوا عن كلامهم أيضاً، بل قالوا:

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾. (طه / ٧٠)

وكذلك يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكَيْنَا وَكَلَّمْنَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (ليجبرهم على الإيمان)﴾. (الأنعام / ١١١)

وكذلك يقول: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. (الأنعام / ٢٥)

كما يصرِّح وفي معرض الرد على طلبهم للمعجزات مختلفة، بالقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. (المنكبات / ٥١)

مفهوم هذا الكلام هو أن المعجز، يجب أن تهدف إلى إثبات حقايقه دعوة النبي الأكرم ﷺ وأن هذا الكتاب السماوي فالقرآن هو أفضل دليل ومعجزة، فما الداعي بعد كل هذا للإصرار على المزيد من المعجزات الواحدة تلو الأخرى؟

٣- لا شك أن المعجزات هي من عند الله في الواقع، وأن كل ما يملكه الأنبياء منها إنما هو بإذن الله وأمره، لكن ربما يحطر على ذهن البعض أحياً ما تصور بأن الأنبياء ﷺ، قد أصبحوا فيما يتعلق بالمعجزات مصداقاً لـ «فعل لما يشاء»، وأنهم يفعلون كل ما يريدونه، وهذا ما ساعد على اتساع رقعة الغلو في الأنبياء ﷺ ودفع بالكثير إلى اعتبارهم كالإله، ولهذا السبب لم يستجب الرسل والأنبياء ﷺ لإلهيتهم لما يقترح عليهم من المعجزات، بل قالوا: إن هذا ليس من شأننا، إنما هو منوط بإذن الله وأمره ويجب أن نعرف ما هي إرادته.

الدليل على هذا الكلام هو ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. (الرعد / ٣٨)

كما ورد نفس هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّیُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ رَبِّ وَفَمَا یُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا یُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(الانعام / ١٠٩)

هذه الآية تكشف عن إلحاحهم في طلب لمعجرات من جهة، وارتباط المعجزات بإرادة الله المطلقة من جهة أخرى.

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع هو أنّ القرآن قد ذكر الكثير من معجرات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات. ومن الهديهي أنّ نبي الإسلام ﷺ لم يتمكّن أبداً من ذكر هذه المعجرات في كتابه السماوي، ويكشف الستار عن بعضها عن طريق الوحي الإلهي، لو لم يعكس هو بنفسه جزءاً منها في وقت يعتبر نفسه خاتم الأنبياء وأفضلهم، وكون ديمه دين الخلود وأفضل الأديان.

كيف يقتنع الناس بامتلاك باقي الأنبياء ﷺ لكل تلك المعجرات دون نبي الإسلام ﷺ، مع كلّ ما يتمتع به من منزلة وعظمة؟ هذا التحليل يبيّن أنّ لسي الإسلام ﷺ بالإضافة إلى القرآن معجرات أخرى كثيرة، لم تكن أقلّ أهميّة من معجرات سالفه الأنبياء ﷺ. وهما لك أيضاً آيات قرآنية تشهد على هذا الموضوع ستأتي في محلّها إن شاء الله، وبدء على هذا فالإصرار على نقي باقي المعجرات من قبل بعض المعقّلين لا يبدو صحيحاً بأيّ وجه



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

## ٢- التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء ﷺ

إحدى الطرق الأخرى لمعرفة الأنبياء الإلهيين ﷺ هي التحقيق فيما تتضمنه دعواتهم، أي مجموعة المعارف والأحكام والقوانين، والبرامج الإنسانية والأخلاقية البناءة التي يدعون إليها.

وستكلم عن هذه المسألة بالتفصيل في بحث، لبوة الخاصة، أي إثبات نبوة نبي الإسلام ﷺ كمثال على ذلك، إذ حينما نتأمل في تعاليمه بدقه نجدها وبالرغم من ظهوره في محيط يفتقر إلى كل أنواع الحضارة الإنسانية، بين قوم نصف متوحشين غارقين في العرافات والعادات الجاهلية، تمرقهم الخلافات الكثيرة والعقائد السحيمة والكثير من الأحقاد والعداوات، نعم، وبالرغم من كل ذلك نجد أن تعاليم الدين الإسلامي عبارة عن مجموعة من العائدات التوحيدية الحاصلة العارية على أفضل المعلومات عن الله وصفاته الجلالية والعمالية، والعديد من تواريخ الأنبياء ﷺ المذكورة بما يتناسب ورفعة منزلتهم بالإضافة إلى الأحكام والقوانين المنضمة لمعادلة الاجتماعية، والبرامج العارية عن أوهام العرافات والأخلاق والقيم التي تعد بحق متقدمة لمكارم الأخلاق، ونظير هذه المسائل هو ما سنتطرق لشرحه مستدلين بآيات والروايات.

فهل بالإمكان ظهور مثل هذه التعاليم في مثل تلك البيئة ومن إنسان أمي؟ أليس هذا بنفسه خير دليل على صدق من جاء بها؟

ويكفي صدق نظير هذا المعنى لوحده في حق كل واحد من الأنبياء والأئمة ﷺ للتدليل على صدقهم أيضاً، وبعبارة أخرى، هل هناك معجزة أكبر من ظهور مثل تلك التعاليم من البشر؟ إن استحالة هذه المسألة بدون إمداد إلهي لا تحفى على أحد، فهي المعجزة بعينها.

بل التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء ونكتها الدقيقة، وروعة إرشاداتهم يمدّ أحياناً عند أهل النظر والمعرفة أرفع درجة من المعجزات من قبيل شق القمر وإحياء الموتى وإشفاء المرضى، وإن كانت المعجزات المادية والحسية أهمّ عند عامة الناس، وسنكتفي بهذه الخلاصة حول هذا البحث، ونترقب شرحه في مكان آخر.



### ٣- جمع القرائن

المراد بـ «جمع القرائن» الذي طرحه هـ باعتبارُه أحد أدلّة النبوة هو كون دعوة كلّ نبي مقرونة بسلسلة من الاوصاف الرمائية وسمكانية، والحديثات الأخرى المحيطة بحياته الخاصة والعامة، فتشكّل بمجموعها عاملاً قوياً يدلّ على صدق مدّعي النبوة (مع قطع النظر عن مضمون دينه والذي تحت الإشارة إليه سابقاً).

وهذا هو ما يستعاد منه اليوم في المحافل القضائية، للكشف عن الحقيقة عند عدم وجود الشهود وعدم إقرار أو اعتراف (المتهم، بل يتحقق القاضي من سلسلة القرائن التي تحقّق بالواقعة ببراءة المتهم أو إدلته. وقد تقول هذه القرائن بمجموعها الإقرار وشهادة الشهود من حيث الأهمية في بعض الأحيان، بطراً لإمكان الإفراج بدافع المصلحة الشخصية كالإعتراف بالجريمة لتبرئة ساحة المجرم الحقيقي في قبال ثورة كبيرة يحصل عليها المتهم غير الواقعي سرّاً، أو أن يكون في الظاهر من ذوي الصلاح، أما سرائرهم فمملوثة، في حين أنّه لو تمّ جمع القرائن بشكل صحيح وكانت بانقدر الذي يعتدّ به القاضي لكان لها دور أكبر. فوقع حادثة قتل مثلاً في مكان ما مع إنكار المتهم أو المتهمين وعدم وجود البينة، يدفع بالقاضي العطن إلى الحوض في جمع القرائن وتسليط الضوء على أمور من قبيل: نوع العلاقة التي تربط المتهمين بالمقتول وهل هي قائمة على الصداقة أم العداوة؟ مكان وقوع الحادثة ومميّزاته ومدى انسجامه مع المتهمين. وكذلك زمان وقوع الحادثة والمكان الذي كان فيه المتهم حينها (وما هو الدليل على ذلك).

كيفية القتل ونوعية السلاح الذي «ستخدم في القتل، مع مقارنته بالسلاح الذي شوهد أحياناً عند المتهم.

8008

### روحية المتهم وسلوبه:

ومن القرائن ردود فعل المتهم حين مشاهدة ثياب المقتول الملوثة بالدماء أو باقي آثار الجريمة، وإفادات الحيران وتردد المتهمين هناك وأمور أخرى من هذا القبيل. والتحقيق في بعض الأمور الأخرى قد يدفع بالقاضي أحياناً للبت بانتفاء العلاقة بين المتهم والجريمة، منها السيرة الحسنة وعدم تناقض الأجوبة وأمور أخرى وبذلك يكشف عن براءة المتهم أو كونه المعرّم الحقيقي، وبإمكان القاضي إصدار حكمه النهائي على أساس يقينه وعلمه الحاصل من هذه المقدمات التي هي أقرب إلى الحق. هذا النوع من الاستدلال لا يحتصر بالمسائل القضائية، بل كثيراً ما يسند إليه العلماء لحل المشاكل التاريخية والاجتماعية والعائقة، ويحتوي هرقميات العلوم الطبيعية، بل أن دور هذا الأسلوب لا يمكن إنكاره خصوصاً فيما يتعلق بالمسائل السياسية التي تبقى جذورها - ولأسباب لا تستحق التعليق - عامصة على لأعم الأعلى.

كما ويمكن غالباً التعرف عن هذا الطريق على الأنبياء الصادقين، وتعبيرهم عن غيرهم فيما يتعلق بالمدعين للنبوّة، إذ ينبغي هنا مثلاً لالتفات إلى الأمور التالية:

١- ما هو وضع الهيئة والأصول العقائدية والأخلاقية الحاكمة عليها، وهوية القوم الذين

ينتمي إليهم؟

٢- زمان الدعوة ووضع العالم آنذاك، وماهية الظروف المهيمنة على محيط حياة مدعي

النبوّة في ذلك الزمان.

٣- الخصوصيات الأخلاقية والصفات وروحيات وسيرته من حيث التقوى والورع

والأمانة.



- ٤- هل الأفراد الذين اتبعوه متصفون بالصدق والذكاء أم أنهم سعياء لا تقوى لهم؟
- ٥- مدى إيمانه بأدعائه وحجم تصحيته وإثارة.
- ٦- الطرق التي يسلكها للتعجيل بتحقيق أهدافه وهل هي مشروعة، أم ظالمة وغير منطقية؟
- ٧- ما هو رد فعله فيما يتعلق بالقبائح أو خرافات المجتمع، وهل أنه يخطط لإصلاح المجتمع أم يساوم مع مفاسد المجتمع طمعاً في كرسي الحكم؟
- ٨- مدى حبه للعالم والمظاهر المادية وللمل والمقام؟
- ٩- ما هو موقفه من الأعداء لحظة الانتصار، وهل يتصرف مع معارضيه بعدالة أم لا؟
- ١٠- هل تدور شعاراته مدار المصلحة الشخصية، أم أنه يسير دائماً على أصول ثابتة يقدم راسخة؟ وقرائن أخرى.

جميع هذه القرائن التي نعت بحياة المدعي العامة والخاصة (مع قطع النظر عن مضمون دعواته، تكون أحياناً بمثابة المشعل الذي يكشف عن صدقه أو كذبه بكل وضوح دونما حاجة إلى معجزة أو دليل)، بل وأحياناً تعتبر توفر بعض ما تقدم ذكره دليلاً قاطعاً على إثبات هذا المقصود. وسسأول هذا البحث بالتفصيل في مبحث النوة الخاصة لمسي الإسلام ﷺ إن شاء الله

والملفت للنظر هو ما نقرأه في العديد من روايات في التواريخ الإسلامية عن اعتناق أشخاص لدين الله، لمجرد الوقوف على عدد من هذه القرائن، بل إن عدداً من الأعداء اللدوديين غيروا مواقفهم وعادوا أصدقاء حميمين نتيجة ذلك، ولو تم جمع هذه الروايات لظهر منها بحث موشع ولطيف، يعكس نور الإيمان الذي سطع من القلوب المؤمنة لمجرد اطلاعها على هذه القرائن دون البحث عن أية معجزة



### إرشادات للقرآن حول هذين الدليلين:

إن آيات القرآن الكريم تعابير لطيفة حول الدليلين الأخيرين (جمع القرائن، والتحقيق

في مضمون الدعوة) أو على الأقل هناك إشارات بليغة إليهما من جملتها:

١- تقرأ في قوله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي الثُّورَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْعُرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ النُّكْرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...».

(الأعراف / ١٥٧)

تشير هذه الآية إلى أحد الأدلة للاحقة في شهادة الأنبياء السابقين من جهة، وإلى عظمة مضمون دعوة ذلك النبي من جهة أخرى. وتذكر من جهة ثالثة قسماً من صفاته كشاهد على حقانيته.

ولا شك أن الدعوة غير الإلهية إنما يهدفون إلى كبت طاقات الأمة واستثمارها واستعمارها بدل السعي لتحريرها.

إنهم لا يؤيدون أمداً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهل يعقل صدور كل هذه المعارف الرفيعة والأحكام والفوائد والأوامر المدروسة من شخص جاهل بما ترى؟

٢- تمت الإشارة إلى خمسة أوصاف من صفات النبي الأكرم ﷺ، والتي يحكمها أن تشهد على صدق دعوته، يقول تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ».

٣- تمت الإشارة في سورة (الكهف / ٦) إلى حرص النبي الأكرم ﷺ الشديد على هداية المؤمنين، والذي يعدّ بعينه دليلاً باطقاً على إيمانه بهذا الدين الإلهي: «فَلَقَّسْكَ بِأَخِي نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

٤- تم التأكيد على أن النبي الأكرم كان مُبياً، لما في ذلك من دور في إزالة حالة الشك والتردد التي تثار حول نبوته، يقول تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا يَرْتَابُ الْبَاطِلُونَ».

(الأنبياء / ٤٨)

٥- وفي الآية التي بعدها تمت الإشارة إلى المبشرين بهذا الدين والمؤمنين به، يقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ (القرآن) آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت / ٤٩) لا شك أن تأكيد علماء الأمة ومفكرها على شيء ما، يمكنه أن يكون دليلاً وقرينة على حقيقتها.

٦- كثيراً ما تقرأ هي آيات القرآن عند وصفها للأنبياء الإلهيين ونبي الإسلام ﷺ أنهم لم يطلبوا أجراً أبداً، ولم يفكروا في انطايا المادية وأنهم بقوا على عهدهم هذا طول عمرهم، في حين أن المدعي كذباً بهذا الأمر سيكون ادعاءؤه بلا شك لأمر مادية. من جعلتها ما نقرأ في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُمْتَدُّونَ﴾ (وآثار التقوى والنزاهة ظاهرة عليهم).

٧- كما نجد في أكثر آيات القرآن الطبقات المسحوقة والمستضعفة، كانت في الصف الأول من الذين آمنوا بالأنبياء الإلهيين، وهذا ما كان يطمح به الأترياء المتكبرون غالباً. ومن جعلتها ما نقرأ في القرآن الكريم حينما استشكل فريق من الأغنياء على نبي الإسلام ﷺ حول هذا الموضوع إذ أمره القرآن بعدم التغلّي عن هذه الفئة المؤمنة المستضعفة أبداً:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدَارِ وَالْعِشَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطاً ۖ وَكَلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْكُرْ...﴾ (الكهف / ٢٨-٢٩) ولا شك أن المصلحة المادية تدفع بالمدعين كذباً، وعبدية الدنيا للإلتفاف حول أهل الثراء على طول الخط.

بل نقرأ في قسم من الآيات الشريفة أن هذه الطبقة المستكبرة اعتبرت المؤمنين المستضعفين طبقة المجتمع السفلى، التي لم تثبت وجودها وعبرت عنها بـ «الأراذل»، والتدقيق في آيات القرآن يكشف عن أن الكثير منها تشير إلى هذا الدليل والذي قبله.



## ٤ - شهادة الأنبياء السابقين

الطريق الآخر الذي يمكن من خلاله تصير الأنبياء عليهم السلام عن المدّعين كذباً هو إخبار الأنبياء السابقين القطعية الصريحة بالنسبة للأنبياء اللاحقين، باستثناء أوّل نبي إذ لا يمكن التعرف عليه عن هذا الطريق بل لابدّ من الرجوع إلى أحد الطرق الثلاثة التي تقدّم شرحها وهي (الإعجاز، والتحقيق في مضمون الدعوة، وجمع القرائن).

وهذا الطريق ليس بتلك السهولة التي توهمها بعض النعسين بالرغم من كونه أسهل من سابقيه، ولقرص الحصول على نتيجة قطعية غير قابلة للإنكار هنا ينبغي مراعاة الشروط الأربعة التالية:

١- إثبات «نبوة» النبي السابق الذي يجرى عن يمينه ويذكر صفاته، بالدليل القطعي الذي لا يقبل الإنكار، ولا يعتد بإخباره وشهادته هذه، إلا بعد إحراز نبوته بشكل تامّ مسلّم به.

٢- صدور هذا الخبر عن النبي السابق يجب أن يكون قطعياً، وعلى هذا فلا يعتد بالأخبار الضعيفة والمشكوكة من أي مصدر كانت، بل لا يعتد حتّى بإخبار الكتب المعتمدة لو لم تبلغ مرتبة القطع واليقين.

٣- دلالة هذا الخبر يجب أن تكون صريحة قطعية غير قابلة للاحتمال، إذ من الخطأ التمسك بأحد شقي الإحتمال والتكلّف بتطبيقه على نبوة المدّعي الجديد بتفسير وتوجيهات، بل وحتّى «تحرّيمات» في بعض الأحيان، لأنّ هدف النبي السابق من إخباره هذا إنّما هو الكشف عن حقيقة خطيرة تقرّر مصير مستقبل، وتوقف أصحابه على هويّة النبي الجديد، وليس اللعب بالألغاز لإسدال الستار على «السّر المكتوم»، إذ الصراحة في

موقف كهذا حاكمة على الكناية بكن تأكيد، وذلك لسد الباب أمام المستذرعين ومثيري الفتن.

وقد تمسك بعض مبتدعي الدين المعترفين بتأويلات وتحريجات عجيبة بالنسبة للكتب السماوية، وبلغ بهم الحد إلى لتوش بحسابات الـ «أبعد» وحسابات العرافين وأمثالها.

كيف يفكرون يا ترى؟ فالنبوة التي يسمي أن تكون مشعلاً لهداية البشرية ليست شيئاً محظوراً مبهماً كأسرار الكيميائيين القدماء لتتم عن طريق حسابات الأبعاد «الصفير» و«الكبير» خوفاً من وقوعها في غير محلها.

٤- يجب أن تنطبق العلامات التي جاءت في أقوال الأنبياء السابقين بالكامل على حالة المدعي الجديد، لا أن تتصرف فيها بملء لرغبات وحذف الإضافات التي تتصورها، لأن ذلك يصي بالتأكيد حداً لنا لأنفسنا. **إِنَّ بَيْنَ بَيْتَيْ كَهْدٍ لَيْسَا هُوَ مَرْسَلٌ مِنْ قَبْلِ «أَفْكَارِ الشَّيْطَانِيَّةِ»** لا من قبل الله تعالى

لو تم جمع هذه الجهات الأربع الواردة في اختيار النبي السابق لأمكن التعرف من خلالها على مقام نبوة المدعي الجديد ولو عاب أحدهما لا عتلت النتيجة وعلى أية حال فقد نمت الإشارة إلى هذه المسألة في موردين قرآنيين على أقل تقدير، وقد اكتفينا في هذا البحث الكلي (النبوة العامة) بشرح مختصر على أمل تفصيل ذلك في «النبوة الخاصة»:

١- حول بشارة المسيح عليه السلام ﷺ تقرأ في الآية: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

(الصف / ٦)

لا يخفى وجود هذه البشارة (أو البشارات) حتى في أناجيل اليوم المحرفة، وهو ما سنوكل البحث فيه وكذا فيما يتعلق بكون الإسم «أحمد» من أسمائه الشريفة ﷺ إلى

جانب الاسم «محمّد» (مدعوماً بالشواهد وقرائن) إلى المستقبل.

٢- بشارة التوراة (أو التوراة والإنجيل) بظهور نبي الإسلام ﷺ والتي تعرّضت لها عدّة آيات قرآنية، هي من الواضح عند ذكرها لصفاته وكأنّه ﷺ يعيش بين طهرانهم يعرفونه كأحد أبنائهم.

بل جاء في التواريخ أنّ هجرة اليهود من نشام وفلسطين إلى المدينة والإستقرار فيها إنّما كان لأجل تلك البشارات التي وحدوها في كتبهم حول ظهور النبي (هذا الموضوع ورد بالتفصيل في التفسير الأمثل ديل الآية ٨٩ من سورة البقرة)<sup>١</sup>، وعلى الرغم من كون الكثير منهم من المبغضين لنبي الإسلام ﷺ لكنهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم وامتنعوا عن الإيمان به بعد ظهوره، نظراً لتعرّض مصالحهم الشخصية للخطر، وقد لامهم القرآن على ذلك.

من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى ما جاءت في قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»<sup>١</sup>

(البقرة / ١٤٦)

وورد نفس هذا المعنى في قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

أَبْنَاءَهُمْ»<sup>١</sup>

وجاء هذا المعنى بصراحة أجلى حيث قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ

الَّذِي يَخْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ».

(الأعراف / ١٥٧)

كما أنّ أحد الاحتمالات الواردة في تفسير الآيات الفائلة بتصديق القرآن، والكتب

«السابقة» هو أنّ المراد من «لتصديق» هو سبطاق القرآن وصفات النبي الأكرم ﷺ على

تلك العلامات التي جاءت في تلك الكتب<sup>٢</sup>.

كما وأشارت الروايات الإسلامية إلى بشارة الأنبياء السابقين باللاحقين، إذ قرأ في أول

١ التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

٢ لمزيد من الإطلاع راجع التفسير الأمثل ديل الآية ١٩ سورة البقرة.

خطبة من خطب نهج البلاغة: «مِنَ سَابِقِ مُسَمًّى لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ غَايِرَ عَرَفَهُ مِنْ قَبْلِهِ». هذا التعبير الذي كشف النقاب عن طرفي القضية بعدد من أبلغ التعابير حول هذا الموضوع، كما تمّ التصريح بهذا الأمر في حديث مفصّل عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: (وَيُشْتَرُ أَدَمُ نُوحًا).

وقال في مكان آخر: «وَيُشْتَرُ نُوحٌ نَسَامًا يَهُودِيًّا».

وجاء عنه عليه السلام في موضع آخر: «فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ... كُلَّمَا نَزَلَ الْأَنْبِيَاءُ مُبَشِّرٌ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَسِيحَ صِبْغِي بْنَ مَرْيَمَ قَبْلَهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ»<sup>١</sup>.

❦❦❦

١- شرح نهج البلاغة لمخونى، ج ٢، ص ١٢٨-١٤١.



# مسألة الوحي



مكتبة دار الفكر



مکتبہ اسلامیہ

## «كيفية الارتباط بعالم الغيب»

تمهيد:

لا شك أن للأنبياء الإلهيين ارتباطاً بعالم غيب وما وراء الطبيعة، وبعبارة أخرى، أن لهم علاقة خاصة بالله تعالى، وقد استلهموا عن هذا الطريق التعاليم الخاصة والأحكام والقوانين الإلهية وبلغوها الأمم.

لكن كيف كانت هذه الرابطة بآثرى؟ فهذه مسألة في غاية التعقيد، ومن السهل الإطّلاع عليها إجمالاً في حين تعدّ الإحاطة بها تفصيلاً في غاية الصعوبة، لاستحالة إدراكها بالدقة من قبل من يعنق لهذه العلاقة، بالصسط كإحياء البصير منذ ولادته بامتلاك الآخرين لحسّ إضافي، يطلعون من خلاله على كل الموجودات المحيطة بهم ولامتدادات واسعة، كما ويدركون من خلالها مختلف الألوان ولأشوار، أمّا ما هو هذا الحسّ، وما هي حقيقة «اللون» و«النور»؟ فهذا ما لا يمكن إدراكه بدءاً

إذن فالذي سيعرض في مبحث الوحي وحقيقته لا يتعدّى سوى الحصول على العلم الإجمالي بحواص الوحي، مع الإجابة عن الأسئلة التي ستثارها، ومن هنا لا ينبغي مطالبة هذه المباحث بالكشف عن «كنه» لوعي، لاستحالة ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام بالصسط كالمثال المتقدم أعلاه.

في المجلّد الأوّل من هذا التفسير «مبحث القرآن» وعند شرح حامس مصدر من مصادر المعرفة تحدّثنا بالتفصيل عن مسألة لوعي، وكشفنا النقاب عمّا يرتبط به من معارف قدر المستطاع. ولذا فقد اكتفينا بذكر موجز لمبحث الوحي، مع إضافات جديدة على ما قبل هناك، وسنوكل توضيح باقي المسائل إلى ذلك المبحث، وبهذه الخلاصة نعود إلى

القرآن وتتأمل خاشعين في الآيات التالية الواردة في هذا المجال:

١- «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ». (الشورى / ٥١)

٢- «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ» (الشعراء / ١٩٣-١٩٤)

٣- «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبَشَرِ». (هود / ٦٩)

٤- «قَالَ يَا هَيِّئْ لِي آيَةً فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْهَبُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آهَتِ

الْفَعْلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». (الصافات / ١٠٢)

٥- «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا

مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (القصص / ٣٠)

### جمع للآيات وتفسيرها

طرق الارتباط بعالم النسيب:

تم في هذه الآيات بيان مختلف الطرق التي يصل إليها الأنبياء الإلهيون عن طريقها بعالم النسيب وما وراء الطبيعة بصورة إجمالية، والتي تبلغ أربعة أو خمسة طرق:

في الآية الأولى أشير إلى ثلاثة طرق، يقول المرحوم الطبرسي في تفسير هذه الآية: «ليس لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى إليه وحياً كداود الذي أوحى في صدره الزبور، أو يكلمه من وراء حجاب مثل موسى أو يرسل رسولا كجبرائيل إلى محمد ﷺ ليبلغه أمره».

فهذا الارتباط إنما يكون أحيانا عن طريق الإلقاء في القلب، وأخرى عن طريق الأمواج الصوتية التي يسمعها النبي من الخارج، وثالثة عن طريق نزول الملك الموكل بالوحي. أصل «الوحي» الإشارة السريعة، وذلك يكون بانكلام على سبيل الرمر أو بالصوت المجرد عن التركيب اللعوي، وتارة بالإشارة أو كتابة.

هذا ما ذكره «الراغب» في «المفردات»، سكن «ابن فارس» في «المقاييس» يرى

معناه الأصلي إلقاء علم ما بشكل خفي أو عسي على شخص آخر.

ذكر «ابن منظور» أهم معاني هذه اللفظة وعبرها لرسالة والإلهام والكلام من غير معاينة، والإلقاء في الروح، كما ذكر معظم أرباب اللغة هذه المعاني بزيادة أو تقيصه، ولكن الخليل بن أحمد ذكر معناه في كتاب (العين) بأنه الكتابة والتدوين!

أما في اصطلاح أهل الشرع فيطلق عسى إيلاع الرسائل الإلهية من قبل الله إلى الأنبياء عليهم السلام، وإن كانت دائره استعماله في القرن أوسع من هذا المعنى كثيراً، وشاملة لكل أنواع الإلقاء للعلم المرمور، ولذا استعمل في مورد الفرائز أو العلوم التي استودعت عند بعض الحيوانات كالحل مثل: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» (الحل / ٦٨)

ويقول فيما يتعلق بما ألقاه الله على قلب أم موسى بالنسبة لولدها: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ

(القصص / ٧)

مُوسَى».

إدق من التعبير عن الإلهام الإلهي لها بالوحي مع عدم كونها بيتاً قطعاً، كما أن يوسف لم يكن في طفولته بيتاً ومع ذلك يقول القرآن في حقه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمُ (أحوتك) بِأَمْرِهِمْ هَذَا (التخطيط لقتلك)».

كذلك استعملت هذه المفردة فيما يتعلق بوساوس الشياطين الحمية إلى اتباعهم قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» (الأنعام / ١١٢)

واستعملت الأوامر الإلهية العامضة فيما يتعلق بأحمادات كالأرض قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا

(الزُّلْزَالُ / ٥)

رَبُّكَ أَوْحَى لَهَا».

جملة «من وراء حجاب» تعني ربه كمن يحاطب نبيه بأموح صوتية خاصة خافية

على الآخرين أو أن نبيه كان يسمع الخطاب دون مشاهدة مصدره، بالضغط كالكلام الذي

يطرق السمع من وراء الستار.

ودار الحديث في ثاني آية عن نزول ملك وحي وإتيانه بالقرآن للنبي ﷺ، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنُنَزِّلُ لَكَ الْقُرْآنَ رَبِّ الْقَالِينَ • نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

الملفت للنظر هو أن ملك الوحي قد سمّ وصفه بوصف «الروح» أي عين الحياة و«الأمين» إشارة إلى الأمانة التي هي أهم شرط للرسالة والتبليغ.



يستفاد جيداً من مختلف الآيات والروايات أن ملك الوحي المأمور بإبلاغ الرسالة إلى نبي الإسلام كان اسمه جبرائيل، في حين أنه يظهر من ثلث آية من الآيات مورد البحث، أن الملائكة بـ «صيغة الجمع» كانوا أحياناً يؤمرون بإبلاغ الوحي الإلهي إلى الأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا﴾. البشارة التي كان يحملها هذا الفريق من الملائكة هي البشارة بولادة إسماعيل وإسحاق، إذ إن إبراهيم عليه السلام كان قد قضى كثيراً من عمره محروماً من الولد مع تمنّيه الدّرية لحمل لواته، كما كانت هنالك وظيفة أخرى للملائكة ذكرت في الآيات التي بعدها، إلى جانب وظيفتهم الأولى في إبلاغ إبراهيم بالبشارة الإلهية ألا وهي تدمير مدينة قوم لوط وقلبها رأساً على عقب.



هنالك نوع آخر من أنواع الوحي ذكر في رابع آية وهو الرسالة التي كانت تصل إلى النبي عن طريق الرؤيا، وهي «رؤيا صادقة» لا تتعدى مع حالة اليقظة، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾. ونقرأ في الآيات التي بعدها أن إبراهيم عليه السلام ساعد لتنفيذ هذا الأمر، ولا يخفى أن هذه الرؤيا لو كانت مثل الرؤيا العادية لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ابنه أبداً وهذا يكشف عن كونها وحياً إلهياً قطعياً.

كما يصدق نفس هذا المعنى في حق نبي لإسلام ﷺ فيما يتعلق بالبشارة التي بشر بها  
 هي (الحلم) من دخول المسلمين إلى المسجد حرام، وأدائهم لمناسك الحج بكلّ أمان:  
 «لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُثَيَّا بِالحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ  
 رُءُوسَكُمْ وَتَقْصِيرِينَ». (الفتح / ٢٧)  
 التعبير بـ «صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُثَيَّا» يدلّ بوضوح على كون هذا الحلم حلماً إلهياً أي  
 نوعاً من أنواع الوحي.



في خامس وآخر آية من الآيات مورد بحث نشت الإشارة إلى إحدى طرق ارتباط  
 الأنبياء بمبدأ عالم الوجود، والتي أُشير إليها كتابة في أول آية أيضاً بالتعبير (من وراء  
 حجاب) يقول تعالى «فَلَمَّا أَتَاهَا أَحْبَبَا هُوَ يُسَارُّهَا بِهَا بِحَابِ الطُّورِ نُودِيَ مِنْ  
 شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».   
 أجل فلقد سمع موسى ﷺ كلام الله مباشرة، وطبعاً لبعض الروايات يقول موسى «لقد  
 سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمع من جهة واحدة من جهاتي».  
 هذا الكلام سمعه موسى ﷺ من كلّ الجهات وبكافة جوارحه (لا الأدين فقط)، ومثل  
 هذا الارتباط على حدّ قول الطبرسي في مجمع البيان يعدّ من أفضل مآثر الأنبياء وأرفع  
 أنواع ارتباطهم بمبدأ عالم الوجود.

ولا شك أنّ الله لم يكن جسماً وليس له سائر أعوارض الجسمانية واللسان والأمواج  
 الصوتية، لكنّه يتمكّن من إيصال مشيئته إلى سمع حواسّ عباده بالأمواج الصوتية التي  
 يوجدها، ولعرض العلم بكونه من كلام الله بهي أن يكون محفوظاً بالقرائن لتفي أي احتمال  
 آخر عنه، وهذه القرائن كانت موجودة في قصّة موسى ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام.  
 هذه القرائن يمكنها أن تكون رؤية النار من الشجرة الخصراء أو سماع الصوت من كافّة

الجهات، مع الإحساس بكونه صادراً من الشجرة أو سماعه بكل أعضاء بدنه، أو على حد قول البعض: اتحاد صوت كل الكون بهذا الصوت، أو مصموباً خاصاً غير ممكن من غير الله، أو قرائن أخرى يستفاد من سور (طه / ١١)، و (النحل / ٨) أن هناك كلاماً آخر أيضاً قيل لموسى عليه السلام في هذه اللعطة إذ قرأ في سورة طه: ﴿تُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

ونقرأ في قوله تعالى ﴿تُودِي أَنْ تُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (النحل / ٨) على آية حال فمن مجموع الآيات أعلاه، انعكست أشكال مختلفة من ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود.

إن عجز الأدلة العقلية عن حلّ حُرثيات هذه المسألة هو مقالا يخفى. لانهصار وطيفتها في بيان لزوم إرسال الرسل، وإبرال الكتب المستلزمة لارتباط الأنبياء بعالم الغيب، ومن هنا فيبغي الرجوع إلى الأدلة القلبية للموقوف على حُرثياتها.



### توضيحات

#### ١ - أقسام الوحي وكيفية في الروايات الإسلامية

مع خروج مسألة الوحي عن دائرة حسن الإنسان الإعتيادي، وامتلاك العلم إجمالي عنه دون العلم التفصيلي كما قلنا، فهناك توصيحات أكثر في الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع نشير فيما يلي إلى بعضها

- ١ - نقرأ في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنه ذكر تفسير وأقسام متعددة للوحي.
- الأول: «وحي النبوة والرسالة» الوارد في آية الشريعة ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ (النساء / ١٦٣)
- الثاني: «الوحي الإلهامي» الوارد في الآية ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل / ٦٨)
- الثالث: «الوحي بالإشارة» كما قال الله عن ركبنا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم / ١١)



الرابع: «الوحي التقديري» كما يقول تعالى «وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ صَبَإٍ مُّذْنَبًا» (فصلت / ١٢)  
 الخامس: «الوحي الأمري» كما يقرأ عن الحورين: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنِ آمِنُوا  
 بِي وَبِرَسُولِي» (المائدة / ١١١)

السادس: «الوحي الكافري» بالشكل الذي يخبر الله تعالى به عن الشياطين: «يُوحَىٰ  
 بَنُظْمِهِمْ إِلَى تَغْيِثِ زُخْرُفِ الْقَوْلِ غُرُورًا» (الأنعام / ١١٢)

السابع: «الوحي الإخباري» كما يقول تعالى عن فريق من الأنبياء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً  
 يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْتُنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»<sup>١</sup> (الأنبياء / ٧٣).



٢ - يستفاد من بعض الروايات أن حاله لسي الأكرم عليه السلام كانت طبيعية عند نزول  
 جبرائيل بالوحي عليه، في حين كان عليه السلام يحمق بضيق شديد عندما يكون الارتباط  
 مباشراً، بل ربما يفشى عليه كما ورد في توحيد الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام حينما  
 سأله: «الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي؟ قال ذلك إذا لم يكن  
 بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلى الله له»<sup>٢</sup>.



٣ - الآخر هو أن جبرائيل حينما كان ينزل عليه عليه السلام كان يهرل بأدب ووقار، كما جاء في  
 حديث عن الإمام الصادق عليه السلام (كان جبرائيل إذا أتى النبي قعد بين يديه قبضة العبيد، وكان  
 لا يدخل حتى يستأذنه)<sup>٣</sup>.

٤ - يستفاد من روايات أخرى أن النبي الأكرم عليه السلام قد تعرف على جبرائيل بتوفيق إلهي  
 كما جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما عَلِمَ رسول الله صلى الله عليه وآله أن جبرائيل من  
 قبل الله إلا بالتوفيق»<sup>٤</sup>.

١- بهار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٢

٢- توحيد الصدوق طبقاً لما نقله بهار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦، ح ٥

٣- علل الشرائع طبقاً لما نقله بهار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦

٤- بهار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦

٥- وهنالك تفسير ملئت للنظر لمسألة عشية النبي الأكرم ﷺ عند نزول الوحي عليه، في حديث عن ابن عباس إذ يقول «كان النبي إذا نزل عليه الوحي وجد منه ألماً شديداً ويتصدع رأسه ويجد ثقلاً، وذلك قوله إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، وسمعت أنه نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ستين ألف مرة».



## ٢- للوحي في كلامه للفلاسفة للمتقدمين والمتأخرين

فات الكثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين هذه الملاحظة وهي كون مسألة الوحي ارتباطاً خاصاً للأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة، وانحصار علمنا به بالإجمال دون التفصيل، إذ أننا لا نرى سوى شبح من بعيد، ونشقى بوجوده دون العلم بحقيقة ماهيته ومن هنا فقد سعوا للوصول إلى حقيقة الوحي، لكنهم اصطدوا بطريق مسدود بطسعة الحال.

وهنا نعرض لنقد وتحليل نظريتين أو فرضيتين على الأصح للفلاسفة المتقدمين والمتأخرين حول هذا الموضوع لتتضح الحقيقة أعلاه:

**النظرية الأولى:** الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون أن حقيقة الوحي هي ارتباط الإنسان «العقل الفعال»<sup>١</sup>

ببيان ذلك: إنهم يعتقدون بالأفلاك التسعة البطليموسية وبوجود النفس المجردة لكل واحدة من تلك الأفلاك (أي ما يماثل الروح بالنسبة لأبدانها) كما أضافوا: إن «النفوس» الفلكية تستلهم من موجودات مجردة تدعى «العقول»، وبهذا فقد قالوا بـ «تسعة عقول» لتلك الأفلاك التسعة، واعتقدوا وراء ذلك بـ «عقل العاشر» أو «العقل الفعال» باعتباره المصدر لكل المعلومات.

كما كانوا يعتقدون من جهة أخرى بضرورة إفاضة العقل الفعال على النفوس الإنسانية وأرواحها لتدرك الحقائق وتصفى بعلية على قابلياتها، ويعتقدون بكون

النسبة بين قوة الروح الإنسانية وشدة اتصالها بالعقل الفعال الذي هو مصدر العلوم طردية. واستنتجوا من هذه المقدمات أن اتصال أرواح الأنبياء بالعقل الفعال ولشدة قوتها يفوق العادة، ولهذا السبب تمكنت من استلام معلوماتها الكلية (صورها) من العقل الفعال في أغلب الأحيان، ونظراً لحدة «قواهم التخيلية» التي يدركون بواسطتها «الصور الجزئية» ولتبعيتها للقوة العقلية في نفس الوقت، فقد تمكنت من إعطاء صور محسوسة مناسبة لتلك «الصور الكلية» التي استلموها من العقل الفعال، لتجسد في أفق أذهانهم متلبسة بلباس الحس.

مثلاً لو كانت تلك الحقائق الكلية من قبيل المعاني والمعارف والأحكام في إمكانهم سماعها على شكل ألغاز موزونة جداً، وفي غاية البلاغة والفصاحة على لسان شخص في غاية الكمال، ونظراً لكمال هيمنة قواهم التخيلية على الحس المشترك (الحس الذي يدركون من خلاله صور المحسوسات) في إمكانها صماء صبعة «الحسية» على هذه الصور «الذهنية»، وتمكين النبي من مشاهدة ذلك الشكل على هيئة ملك يبصره وسماع الألغاز بأذنيه (تأمل جيد).



### النتائج

هذه الفرضية قابلة للنقد من عدة جهات:

أولاً - ابتناؤها على «الأفلاك البطليموسية التسعة» و«المقول العشرة» التي أبطل أحدها بشكل قاطع، ولم يوجد أي دليل لإثبات الآخر، ويدهي أن فرصة كهذه لا يمكن قبولها أو تقييمها.

ثانياً - هذه الفرضية ليست سوى محاولة للاهتمام إلى الطريق لحل مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا، والإحاطة بها تفصيلاً، (بالضبط كـ رغبة المكفوف للوقوف على حقيقة البور والألوان عن طريق الفرضيات التي ينسجها مستعمياً بحواسه) إذ من الواضح أن فرضية كهذه لا يمكنها أن تلاقى النجاح أبداً.

ثالثاً - لا تتناسب هذه الفرصة بأي وجه مع الآيات القرآنية التي تتحدث عن الوحي، لأنّ الأخيرة تقول بصراحة: الوحي نوع من الارتباط بالله، لا بالعقل الفعّال ولا عن طريق الإلهام بالقلب أو بواسطة ملك الوحي (الملك الذي هو وجود واقعي يظهر أمامه لا أنّه متولّد من القوة التخيلية أو تأثير الحسّ المشترك)، وأنّه يسمع تلك الأمواج الصوتية التي أوجدها الله في جسم ما بأذنيه لأنّ للأصوات صبغة حيالية ومتولّدة من تأثير القوة التخيلية أو الحسّ المشترك

وبناءً على هذا فالفرضية أعلاه مردودة عقلاً ونقلًا

❦❦❦

النظرية الثانية - فسّر بعض الفلاسفة المعاصرين الوحي كأحد مظاهر الشعور الباطني يقول فريد وجدي في «دائرة معارف القرن العشرين» في مادة «الوحي»: كان العربيون إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم المتديّنة يقولون بالوحي، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء فلما جاء العلم الحديدي فسّر كل طاهرة تفسيراً مادياً، ذهبت الفلسفة العربية إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الحرافات القديمة، وعالت حتّى أنكرت الحالى والروح معاً لكن بحلول القرن التاسع عشر الميلادي تغيّرت وجهة النظر في المسائل الروحانية وظهرت إلى الوجود ثمانية مسألة الوحي، إذ أعد فريق من العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي، فتوصلوا إلى نتائج ورن كانت غير ما قرره علماء الدين الإسلاميون، إلّا أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد سبب لبس عالم الغرابة»، ثمّ يصيغ قائلاً: إنّ المؤيدين لمسألة الروح والمظاهر الروحية دوّنوا إلى الآن (زمن تأليف دائرة المعارف) خمسين مجلّداً ضخماً حول المطالب أعلاه، وتمّ حلّ الكثير من المسائل الروحانية بها من جملتها مسألة الوحي<sup>١</sup>

هذا نموذج من كلمات العلماء حول هذه المسألة إذ لكلام حولها كثير، ولكن بالإمكان بيان خلاصة كلامهم كما يلي

١. دائرة معارف القرن العشرين، مادة (الوحي)

إنهم اكتشفوا أن للإنسان شعوراً وإدراكاً وراء شعوره وإدراكه الظاهري، أطلقوا عليه اسم **الشعور الباطن** أو **الوجدان الخفي**، واعتبروا تقسم الأعظم من شعور الإنسان كامناً فيه، حتى أنهم شبهوه أحياناً بالثلوج الطافية في مياه المحيطات، والتي لا يخرج منها فوق الماء إلا عشرها في حين تبقى تسعة أعشارها تحته

لقد اعتبروا الوحي نوع «تجلٍّ بشعور باطني»، وطرأ لكون الأنبياء رجالاً يعوقون العادة، فمن الطبيعي أن يتمتعوا بشعور باطني أقوى، وتجلٍّ يعوق العادة في أهميته، وهو نفس ما كان يطلق عليه القدماء اسم الوحي<sup>١</sup>

كما ذهب البعض أحياناً أكثر من هذا وقالوا إن أفكار وعلوم ورغبات النبي، تخلق له إلهامات وتطلُّ من خلال شعوره الباطني ووحدانه الحفي على تحيته الرفيع بل وترك أثراً حتى في نظراته فيرى الملك أمامه ويسمع كلامه<sup>١</sup>

XXXXX



### نقد وتحليل:

هذه الفرضية التي قال بها فريق من الفلاسفة المتمدنين تماثل الأولى، من حيث افتقارها للسند الكافي والدليل والشاهد، ومصدرها هو نفس ما أشربنا إليه، أي إنهم يريدون قياس مسألة حارجة عن نطاق أفكارنا بعقلها ومحوها بالمقاييس المتداولة، ومن المسلم أن هذا الأمر محال وغاية لا يبلغها مفكر أبداً.

وحيثما ندعن بمحدودية المعلومات دون لمجهرات، يجب أن نقبل هذه الحقيقة أيضاً وهي أن للأنبياء الواقعيين نوعاً من الارتباط بعالم ما وراء الطبيعة، لا يمكن شرحه وتفصيله بحواسنا الفعلية وإدراكاتنا الاعتيادية.

على أية حال فلهذه الفرضية جدور مشتركة مع طريقة الفلاسفة القدماء من جعلتها:

١- الوحي يمثل نوعاً من الارتباط الخاص بعالم ما وراء الطبيعة، غير مغاير للروابط الفكرية والعقلية لسائر الأفراد

٢- مصدر الوحي هو نبوغ الأنبياء وسموهم الروحي

٣- الوحي لا يمثل وجود مجهول روحي مستغل عن وجودنا بطلق عليه رسول

الوحي أو الملك الإلهي، بل مشأ هو الشعور الباطني والاتصال بالعقل الفعال الذي يترك أثره في عالم الخيال، ثم في إحساس النبي فيرى مظاهر الوحي ويسمعها!

لا شك أن مثل هذه التحليلات لا تتلاءم بدأ مع ما جاء به الأنبياء وما يستفاد من آيات

القرآن من جهة، ومع الدليل العقلي الذي ذكرناه سابقاً من جهة أخرى.

فضلاً عن اعتقارها كلها للسند والدليل، وأساساً ما هو السروراء إعجاب بعض العلماء

بعلومهم ومعارفهم المحدودة إلى هذا الحد الذي دفعهم لتفسير وتحليل كل أسرار الكون

بهذه الحصيعة من العلوم والاكتشافات، هذا الأمر يشبه قيام المحلة بتفسير وتحليل أنواع

رموز الكامبيوترات والسفن الفضائية والأقمار الصناعية بمعلوماتها المحدودة، فهل يعطيها

مثل هذه المكانة يا ترى؟

مؤلف تفسير المنار وبعد نقله لهذه النظرية عن فريق من الملائمة الماديين، وبعبارة

شبهه للتي ذكرناها أعلاه، يضيف قائل: «لقد سرى هذا الإشياء إلى انكثير من المسلمين

العارفين في الشك والترديد، الذين يقلدون العلماء الماديين (بأبصار وأذان مغلقة) أو

يقتنعون بتفاسيرهم، ثم يتعرض بعد ذلك لنقد مثل هذه الأفكار بالشرح والتفصيل»<sup>١</sup>

وبهذا يكون قد وصلنا لحاتمة البحث المختصر الذي اعددناه حول مسألة الوحي، إذ

وكما قلنا سابقاً فلقد شرحنا هذا الموضوع شرحاً وافياً في «نفحات القرآن» «المجلد

الأول» في مبحث «مصادر المعرفة» (المصدر الخامس).



# الأصول العاقمة

لدعوة الأنبياء ﷺ  
در تقييد تفسیر روح مسیحی



مکتبہ اسلامیہ



## الأصول العامة لدعوة الأنبياء.

### تمهيد:

من الكات المهمة في مباحث النبوة العامة هي الاهتمام بالأصول العامة لدعوة الأنبياء التي تحظى بإسجام خاص، والتي تعكس نشاط يدى تقوم به هذه السلسلة الجليلة لأنبياء الله بين البشرية، كفاعلة عظيمة متحدة.

وبعبارة أخرى. يمكن تشبيههم باللجنة العلمية للجامعة التي تقوم بتعليم الطلبة وفق برمجة دقيقة. اعتصاراً من المرحلة الأولى وإلى الخطوة شكل منسجم صفاً بعد صف. ومن خلال مطالعة هذه الأصول العامة تتحس هذه الحقيقة المكررة في القرآن، وهي أنه «لا تفاوت بين أنبياء الله، كما لا يسعي التفرق بينهم»

و من المسلم أنه لا مضافة لهذا الإسجام مع نسخ الأديان بعضها للبعض الآخر أبداً. بالصبط كاستبدال المباحح الدراسية للجامعة في كل سنة، إذ إن كتب السنة الأولى لا تصلح للثانية، وهذه لا تصلح للثالثة و... مع أن أصولها العامة مسجمة مع بعضها في نفس الوقت، فكذلك لا مضافة لهذه المسألة مع تفاوت درجات الأنبياء لأجل تفاوت مسؤولياتهم.

هذا الإسجام في الأصول العامة يؤكد من جهة على الخطوط الأساسية للأديان الإلهية ويوقفنا عليها، كما ويوضح حقايق دعوتهم من جهة أخرى، إذ إن الساسة الديوثون ينفي حلفهم سلفهم طبقاً للآية: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَفَنَتْ أُخْتَهَا» (الأعراف / ٣٨)

وباعتبار أن إحدى معيَّرات الطواعيت هي حالة التصاد القائفة بينهم على طول الخط. كما ويمكن لهذه المسألة من جهة ثالثة أن تكون معياراً لمعرفة حقيقة الأنبياء، من

المدعين كذباً، لأن انسجامهم وتوافقهم مع الأنبياء المعروفين السابقين سيكون كقرينة لها دورها المهم.

وبهذه الخلاصة نعود لتأمل خاشعين في آيات القرآنية التالية الواردة في هذا المجال:

١- ﴿لَا تَقْرَبُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ لَهُمْ سُبُلًا﴾ (ولا تدفعا التعضبات العرقية

والمصالح الشخصية لقبول فريق ورفض الآخر).

(البقرة / ١٣٦)

٢- ﴿إِنَّا أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بني إسرائيل) وَهَارُونَ

وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَشَلْحَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُكْرًا.

٣- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء / ٢٥)

٤- ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمُ أَنَّى شَكَّ غَاطِرُ السُّحُوبِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُبْعَثَ لَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّتِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (إبراهيم / ١٠)

٥- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذِيرُونَكُمْ

لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام / ١٣٠)

٦- ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِبْرَاهِيمَ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾

(النساء / ١٣١)

٧- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

(الحديد / ٢٥)

٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بني الإسلام) وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة / ٦٢)

٩- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فَمَا تَرْضَى اللَّهُ لَهُ شَيْءٌ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ

(الأحزاب / ٣٨)

أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَعْدُورًا﴾.

١٠- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا • مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ظَفُّوا أَخْذُوا وَقُتِلُوا كَتِيلًا • سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (الأحزاب / ٦٠ - ٦٢)

١١- «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ».

١٢- «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»

(الأنبياء / ١٠٥)

١٣- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

١٤- «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا

(هود / ١١٦)

قَلِيلًا يَمُنُّ أَتَمَّيْنَا مِنْهُمْ».

(ال عمران / ١٩)

١٥- «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»

❦❦❦

## جمع الآيات وتفسيرها

وحدة التفسير لدى الأنبياء جميعاً:

١- الكلام في أول آية هو عن الأمر لدى أصدره الله إلى المسلمين كافة بالقول لمخالفهم: إِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهَا وَمَا نُرِلْ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى «لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ» وورد نفس هذا المضمون في آيتين أخريين من القرآن الكريم: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

(البقرة / ٢٨٥)

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآثِهِ وَرُسُلِهِ وَهُمْ أَغْفُورُوا﴾ (النساء / ١٥٢)

وبهذا فهي تؤكد على أن المؤمنين لحققتهم هم الذين لا يفرقون بين الأنبياء الإلهيين، ويؤمنون بكل تعاليمهم، وهذا خير دليل على اتحاد الأصول العامة لتعاليمهم. ولم لا يكونون كذلك وقد بعثوا كنهم من قبل الله، وتساوت أدوارهم، كما أن أصول المعارف الإلهية وسعادة البشرية واحدة في كل مكان، إذ ليست بذلك الشيء الذي يستغنى بتغير جزئياته على مر الأيام.

بالضبط كحاجة الإنسان إلى الطعام والملبس والسكن والصحة والنظافة والتربية والتعليم، إذ إن أصول هذه الأمور ثابتة لا تغير، في حين أن جزئياتها هي في تحول وتغير، أي، إن في حالة تكامل بعبارة أخرى.

لأن من القول إن هذه الآية وطعاً لسياسة ترونها كانت رداً على اليهود والمصريين، حيث كان يعني أحدهما الآخر ويعتبر نسته هم الأفضل وكتابهم هو الأقدس (مع إيمانهم بالآخرين)، فجاء دور المسلمين للتفسير بصراحته باستحالة التعريق بين أنبياء الله.

على أية حال فهذا يعد توصيحاً محملاً لوحدة الأصول العامة لدعوة الأنبياء، والآن يعود إلى بقية الآيات التي تؤكد على كل واحد من هذه الأصول.

﴿﴾

٢- مسألة الوحي هي واحدة من هذه الأصول والتي عرضت في ثاني آية من الآيات مورد البحث، يقول تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءِ (أنبياء بني إسرائيل) وَجِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

وعلى هذا فالكل يشير إلى الوحي والارتباط بعالم غيب، والكل يحطو في مسيرة إبلاغ الدعوة الإلهية وإتمام الحجّة على الناس، لم يعرف أحد منهم شيئاً من عنده، والهدف النهائي للكل واحد.

٢- أصل التوحيد ونفي الشرك هو أحد أهم أصول دعوة الأنبياء، وبشهادة آيات مختلفة من القرآن، فالتوحيد هو كلامهم الأول حين بعثتهم، التوحيد هي كافة الأبعاد خصوصاً في العبادة.

والآية الثالثة من البحث تدور حول هذا موضوع باعتباره أصلاً عاماً في دعوة الأنبياء، يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

وورد هذا المعنى بتأكيد أكبر في قوله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

وعلى هذا فمقاومة الطواغيت وتحصيل العبادة لله كما ينصدران قائمة معالم كل الأنبياء، باعتبار كون الإنسان أسيراً ما دام في عبادة الطاغوت، وحرراً حيث ما يعبد الله وحده. الله الذي هو مصدر كل القيم السامية وصاحب الأسماء والصفات الحسنى الملمت للنظر هو أن «الطَّاغُوتَ» صيغة مبالغة بلطيمان الذي يعني التمدي ومجاور الحد، ومن هنا تطلق لفظة الطاغوت على الشيطان ولويس والحاكم الجبار والمنتكبر والمستكبر، وكل طريق ينتهي إلى غير الحق، هذه المعرودة وعلى حد قول الرابع في المعردات التي تستعمل في المعرد والجمع كنيهما (كما وتجمع في نفس الوقت على صيغة «طواغيت»، وفسر لسان العرب لفظة الـ «ط عوت» بمعنى الشيطان وأنفة الضلال والانحراف<sup>١</sup>

على أية حال فإحدى علامات الأشياء الحقيقية هي الدعوة للتوحيد، واجتناب كل الطواغيت، في حين أن المدعين كذباً يدعون باسم للشرك وعبادة الأوثان، بل وحتى إلى عبادتهم أحياناً كفرعون، هذا النحو من النظرة السلبية للطاغوت - كما قيل في محله - له أثره في كافة شؤون الإنسان، خاصة في فك يديه ورجليه من قيود الرق والعبودية ودعوته للإتحاد والحرّة والتحرّر.

١ العجيب هو أن المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٢٤٢، قد اعتبر هذه اللفظة مصدراً، مع أنها تستعمل بالمعنى الوصفي في كل المواضع، خصوصاً الموارد الثمانية الواردة في القرآن إذ إنها أعاد المعنى الوصفي على الأعم الأغلب.

٤ - التأكيد على نظام الكون للتعرف من خلاله على الله هو أحد الأصول العامة لدعوة هؤلاء الرجال الإلهيين، كما نقرأ في الآية الرابعة من آيات بحثنا: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِروا السُّعُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ (مع كل هذه العظمة والنظام في الكون والأسرار الكامنة) يَدْعُوكُمْ لِيَعْرِفَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (لتسطروا طريق معرفة الله وتبلغوا الكمال اللازم).

أي هل يبقى هناك مجال للشك في وجود الله مع الأخذ بنظر الاعتبار كل أسرار خلق السماوات والأرض، وأنواع الابداعات التي تحتويها ولأسرار التي يتم كشفها يوماً بعد آخر نتيجة تطور العلوم والمعارف؟

صحيح أن معرفة الإنسان بأسرار خلق السماوات والأرض كانت في قديم الزمان بسيطة، لكن نفس ذلك النظام البسيط الحاصل للإنسان بدقة متواضعة يكفي لإثبات وجود الخالق، أما اليوم حيث تم خلق الحليمة وأنشطار الذرة والجزء، والوقوف على الكثير من أسرارها فالتأمل في إحدى الدرات كآية ليصنع حول معرفة الله في القلوب، وبحق هذا في البيت الشعري المعروف باللمعة العارضية والذي مصمومه:

قلب كل ذرة حين فتحه      تجمد نوره يشع فيه  
وقريب من هذا المعنى بجده في البيت الشعري المعروف والمسحوب للإمام علي عليه السلام:  
أترزعم أنك جرم صغير      وفبك انطوى العالم الأكبر



٥ - التأكيد على مسألة المعاد باعتباره أصل آخر من أصول دعوتهم كما يقول تعالى في الآية الخامسة من آيات بحثنا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

هذا الكلام سواء كان صادراً من الله أم لملائكة فلا فرق في ذلك، إذ المهم أنه يعكس قيام كل الأنبياء والمرسلين بتحذير الناس من هول يوم القيامة واشتراكهم في هذا الأصل الأساسي.

وهل ياترى أرسل إليهم رسلاً من «الجن» (كما يبدو من كلمة «منكم») أم أن كل الرسل الإلهيين كانوا من الإنس؟ هناك نقاش بين لفسّرين، وإن ذهب معظمهم إلى الاحتمال الثاني باعتبار أن ما جاء في الآية السابقة يُعَدُّ هو من باب التعليب اصطلاحاً، ومع ذلك لا مانع من قيام الأنبياء والرسل الإلهيين بتكليف رسل ووكلاء لهم من جنسهم لدعوتهم كما يستفاد ذلك من قوله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَشْتَعِبُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُتِبَ  
وَلُّوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.  
(الأحقاف / ٢٩)

٦- الدعوة للتقوى: وهي أيضاً من الأصول العامة لدعوتهم ﷺ، وذلك لاستحالة ضمان الهدف النهائي من خلق البشر ونظام حياته فردية والاجتماعية بدونها، تقرأ في سادس آية من البحث، «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِلَيْكُمْ أَن اتَّقُوا اللَّهَ»، وهذا التعبير إلى حدٍّ يشمل كل الكتب السماوية السابقة، وبإساءة على هذا فالوصية بالتقوى، أي، حفظ النفس وتجنب الذنوب وعدم الخروج عن طاعة الله، كان ولا يزال من الأصول المشتركة للأديان السماوية.

كما نعلم أن للتقوى مروعاً كثيرة، التقوى في العمل والحديث والتفكير والنية والعزم، كما أن للتقوى العملية مروعاً متعددة أيضاً، التقوى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، والعلاصة هي أن للتقوى مفهوماً واسعاً يقبَل كل بهمال وتسيّب في كافة الأمور، ولذا جاء في تفسير القرطبي عن بعض الفصلاء العرفاء أن هذه الآية هي بمثابة القطب من الرمح وأن كل الآيات القرآنية تدور حولها<sup>١</sup>.



٧- الدعوة إلى العدالة الاجتماعية هي أصل آخر من هذه الأصول الأساسية، وقد وردت بصراحة في الآية السابعة، يقول تعالى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

ولم يكن كذلك حين يستحيل على المجتمع البشري بلوغ أهدافه النهائية أي التكامل المعنوي مع غياب إقامة القسط والعدالة الاجتماعية؟

الملفت للنظر هو قوله: إن الهدف من إرسال الرسل والبيّنات والكتاب والميزان هو قيام الناس بالقسط والعدل مباشرة مع تعييده، لأن يعرض عليهم ذلك فرضاً، أجل فصماً هذا الهدف مرهون ببلوغ المجتمع البشري مرحلة إقامة القسط والعدل وتنهيده بداته.

وحول المراد من «البيّنات والكتاب والميزان» هناك أبحاث كثيرة للمفسرين، أقواها كما يبدو أن «البيّنات» معني واسعاً شاملاً لكل المعجزات وأنواع الأدلة العقلية التي تقام لإثبات النبوة، و«الكتاب» إشارة إلى مجموع تعاليمهم، و«الميزان» بمعنى معايير قياس الحق من الباطل، أو القواسم والمقررات التي يعمل بها الحق إلى أهله.

وهذه كلها وسائل لبلوغ العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والتي تكون بدورها مقدمة لتوفير الأرضية المناسبة لتربية الإنسان وتعليمه وبكامله.

٨- أهميته «الإيمان» و«العمل الصالح» كقيم أساسية لإيقاد البشرية هي أيضاً من الأصول المشتركة لتعاليم الأنبياء، نقرأ في ثمن آية من البحث

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَتَبَارَكُ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنَ الْبَيْنِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»

جاء في أحد التفاسير المعروفة إن أهل سبحاء هم المسلمون الذين آمنوا بسبي الإسلام ﷺ، وثبتوا على إيمانهم وعملوا صالحاً وكذا الذين عاشوا قبل ظهور نبي الإسلام ﷺ وآمنوا بالاديان السماوية وعملوا صالحاً

طبقاً لهذا التفسير فـ «الإيمان» و «العمل الصالح» كانا كأصلين عامين في برامج كل الأديان الإلهية لغرض نجاة الإنسان.



وهناك طبعاً تفاسير أخرى لهذه الآية بإمكانك الإطلاع عليها بالرجوع إلى التفسير  
الأمثل ذيل الآية ٦٢ من سورة البقرة



٩ - القضاء على «السنن المخاطئة» التي تنسب في انحراف المجتمعات البشرية  
وتأخرها بعداً أيضاً من الأصول العامة لدعوة النساء

في ناسخ آية من البحث وضمن لإشارة إلى مسأنة رواج النبي الأكرم ﷺ من مطلقة  
إيمه بالتبني والتي عزلت لازلة إحدى العادات الجاهلية (حيث كانوا يعتبرون الإبن بالتبني  
كالإبن الحقيقي) يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فَمَا قَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي  
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

حول ماهية هذه السنة التي كانت جارية في الأقوام السابقة وانسي عطف الله عليها  
مسؤولية النبي الأكرم ﷺ، قال فريق من المعترضين: المراد بها هو السنة الإلهية في رفع  
الموانع من الاستفادة من الدند المحللة، أو سنة بعدد زوجات التي كانت جارية في الأمم  
السابقة أيضاً<sup>١</sup>.

في حين أن هناك أدلة واضحة في آيات نبي تحف بهذه الآية تشهد على أن هذه السنة  
كانت ترتبط بإبلاغ رسالة إلهية لا تيسر الدند المحللة، كما مر في الآية التي بعدها:  
﴿الَّذِينَ (الأنبياء السابقون) يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.  
لكن أنسبها كما يبدو هو أن هذه الرسالة لإلهية ليست سوى «القضاء على السنن  
المخاطئة» فحسب.

كما تقرأ في الآيات التي قبلها، ﴿وَيَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَنْ تَخْشَوْهُمْ﴾ كما يصرح بعد  
هذه الآية: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.  
(الأحزاب / ٣٧)

١ تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٦١؛ تفسير الكبير ج ٢٥، ص ١٣؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٢٧٧؛ وتفسير  
روح المعاني، ج ٢٢، ص ٢٥

هذه القرائن بمجموعها تشهد بوضوح على أن المراد من هذه السنة الخالدة للأنبياء السابقين هو إزالة السنن الحاطئة وانغراسية تلك.

ولم لا؟! وأحد أهداف بعثة الأنبياء هو تحليص الناس من مغالب مثل هذه السنن الباطلة، لتحل محلها السنن الإلهية



١٠ - مقاومة المنافقين بشدة وعدم الرصوح لهم هي إحدى الأصول الأخرى لتعاليم الأنبياء الثابتة، كما جاء في نفس هذه الآية وبعد الإشارة إلى أعمال المنافقين القبيحة المتعمدة في المجتمع الإسلامي، والتهديد بأن هؤلاء المنافقين الكذابين، والذين هي قلوبهم مرض والدين يشيعون الأباطيل لو لم ينتهوا عن غيهم ويرجعوا عن مواصلة أعمالهم العدوانية، لجعلناك تشور عليهم وتطردهم من كل مكان وتمزقهم شر ممزق. «سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (الأحراب / ٦٢)

صرح معظم المفسرين بأن المراد من هذه السنة هي نفس مجاهدته المنافقين والأفراد المضرين الذين لا ينتهون عن أعمالهم الشيعة في اجتماعات البشرية وعن عدائهم للأنبياء والمؤمنين<sup>١</sup>.



١١ - أصول العبادات والأعمال الحسنة. كست أيضاً من ضمن التعاليم المشتركة لهؤلاء القادة الحقيقيين كما يقول تعالى في الآية لعادية عشرة من البحث، وضمن الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَتُذَكَّرُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

إشارة إلى أنه فضلاً عن مقام أسبوة والرسالة اللذين يتطلبان استلام الوحي وإبلاغه

١. راجع تفاسير مجمع البيان؛ والنراعي؛ والكبير؛ والقرطبي؛ وروح البيان؛ دليل الآيات مورد البحث.

للناس، كانت الإمامة أي القيادة الشاملة لكل الأبعاد الجسدية والروحية، الظاهرية والباطنية للناس ضمن مسؤوليتهم، وكان دورهم في هذه المرحلة هو «الهداية بأمر الله» أي الإيصال إلى المطلوب وبلوغ المراد، وضمن هذه المرحلة أوحى الله إليهم فعل الخيرات والعبادات.

ومع أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعدان من الخيرات والأفعال الحسنة، فقد تمّ التأكيد عليهما بالخصوص نظراً لأهميتهما.

حول المراد من «الوحي» هنا في جملة «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، فقد اعتبره أكثر المفترين بمعنى «الوحي التشريعي»، أي إن أسواع الأعمال الحسنة وضعناها ضمن برامجهم الدينية<sup>١</sup>، لكن البعض الآخر فسر معنى «الوحي التكويني» أي أننا منحناهم التوفيق لأداء هذه الأعمال بلمهة وأيدناهم بروح القدس ليؤدوها على أتم وجه.



١٢- حكومة الصالحين: وبشكل هام فقد كانت حكومة «العدل الإلهي» مدرجة أيضاً ضمن برامج الأنبياء، سواء وقفوا في إقامتها أم أعانوا طرؤهم وأوصاعهم الخاصة عن ذلك.

في الآية الثانية عشرة من البحث إشارة لطيفة إلى هذا المعنى، يقول تعالى «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (التوراة) أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ذكر ثلاثة أقوال في تفسير «الزبور» و«الذكر».

١- «الزبور» يعني كل كتب الأنبياء و«الذكر» يعني اللوح المحفوظ، أي أن هذا الحكم جاء أولاً في اللوح المحفوظ ثم في كل كتب الأنبياء.

٢- «الزبور» يعني الكتب النازلة بعد التوراة و«الذكر» إشارة إلى التوراة.

١. طبقاً لهذا التفسير فلابية معدود تقدير، وأوحينا إليهم الأمر بفعل الخيرات.

٣- «الزبور» يعني زبور داود و «الذكر» يعني التوراة<sup>١</sup>

على أية حال فالآية تبين أن هذا كان حكماً عاماً وسمة إلهية دائمة، تقوم بتوجيه تعاليم الأنبياء نحو تأسيس حكومة الصالحين والظاهرين في الكرة الأرضية، وقد وفق البعض منهم أحياناً في تشكيل نموذج لها، وطبقاً لبرويات المتواترة فسيستجسد مصداقها الكامل عند ظهور المهدي (أرواحنا قدامه).

ومن البدهة أيضاً أن ضمان أهداف أديان لأتباع الإلهيس مرهون بتشكيل مثل هذه الحكومة، إذ أثبتت التحارب أن الأحكام الإلهية لا يمكن تطبيقها بالكامل عن طريق الوصايا والنصائح والحكم فقط، بل لابد من استثمار كل طاقات الحكومة وفي كافة الأبعاد، مع وضع الإنسان منذ لحظة ولادته وإنه وفاته تحت إشراف التعاليم السماوية

التعبير بـ «عبادي الصالحون» تعبير جامع وبلغ جداً، شامل لكل المؤهلات من حيث «الإيمان» و «العلم» و «التقوى» و «الإدارة والتدبير»، أجل، فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يكونوا وارثي حكومة السلام في الأرض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣- الدعوة إلى الوحدة: الاختلاف أكبر عامل لفساد المجتمع وضياع الطاقات المادية والمعنوية لكل قوم وشعب، ومن هنا فأحد الأهداف الرئيسية للأنبياء وبرامجهم العامة هو محاربة الاختلافات، كما نقرأ في الآية الثالثة عشرة من البحث حيث يقول تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (نم طهر الاختلاف فيما بينهم) فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (وليقتضوا على تلك الخلافات).

ومع هذا فقد أشعل فريق نار الفتنة وشق لكلمة، بل اختلفوا حتى في الحقائق النازلة في الكتب السماوية: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٦٦، ووردت نفس هذه المعاني الثلاثة في تفسير القرطبي

لكن: ﴿قَهْدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِذُنُوبِهِ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وبناءً على هذا فقد ظهر هنالك نوعان من الاختلاف بين الأمم، الاختلاف الأول قبل ظهور الأنبياء والناشيء من اختلاط العلوم البشرية بأنواع الأخطاء والجهل والاشتباة في تشخيص الحقائق، ففرق الأنبياء بين الحق والباطل ووضعوا نهاية لتلك الخلافات مدعومين بالوحي.

الاختلاف الذي كان بعد ظهور الأنبياء، وناشئ من البغي والظلم والحسد وعبادة النفس، حيث قام فريق بتفسير نعمة تعاليم الأنبياء طبقاً لميولهم ومصالحهم وحرّفوا الحقائق وفقاً لأهوائهم، فلم ينج من عاقبة هذه الاختلافات سوى المؤمنين الحقيقيين نظراً لعدم إمكان إزالة هذه الاختلافات إلا في ظل الإيمان والتقوى.

ومن هنا يتضح الجواب عن سؤال يثار حول هذه الآية وهو أنه لو كان مجيء الأنبياء هو من أجل حلّ الخلافات العقائدية والمكرية والاجتماعية، فلماذا واصلت هذه الاختلافات مسيرها بعدهم أيضاً؟

الآية المذكورة تقول بوجود التفاوت بين هذين الاختلافين، فالأول تابع من الجهل والعملة وعدم الإطلاع وقد زال ببعثة الأنبياء، أما الآخر فقد كان متصصاً لدوافع كالبغي والظلم والعباد والغرور حتّى دفع بالمعزّز إلى مواصلة طريق الفرقة عن قصد، حتّى بعد أن تبين لهم الحق، وفي الواقع فقد كان الاختلاف الأول نابعاً من قصور الناس والثاني من تقصيرهم.

على أية حال يستفاد من الآية الآتفة الذكر أن الدعوة إلى الوحدة ومحاربة الاختلاف وفي أبعاد ومجالات مختلفة كانت من بين الأصول العامة لمسؤولية الأنبياء.



الأنبياء، وبعبارة أخرى فالأديان الإلهية وبالإضافة إلى المسائل الشخصية، كانت ترقب عن كثب وضع المجتمع أيضاً وتدعو الكل للمشاركة في إصلاحه ومحاربة الفساد.

ولذا تُشَمُّ من الآية «الرابعة عشرة» من بحثنا حالة من الاعتراض العام على الأقوام السابقة التي ابتليت بالعذاب الإلهي، حيث يقول تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ (لَمْ يَكُنِ الْعُلَمَاءُ فِي الْأُمَمِ النَّبِيُّ قَبْلَكُمْ مَتَصِدِّينَ لِلْحَكْمِ وَلَدَا شَاعَ بَيْنَهَا الْفَسَادُ وَاسْتَحَقَّتْ عَذَابُ) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

«أولوا ببقية» أي «أصحاب إرث وثبات»، وحيث إنَّ لإنسان يدخر عادة الأشياء النفيسة ويحتفظ بها، فقد ورد هذا التعبير بحق أولئك الذين يمتلكون ثروة نفيسة أي أصحاب العلم والشخصية والقدرة والنفوذ، ومثل هؤلاء هم الذين يتمكنون من الوقوف بوجه الفساد ويساعدون على بقاء الأمم.

على أية حال يتبين من هذا التعبير أنَّ التكليف بالأمر بالمعروف، ومحاربة الفساد خصوصاً على مستوى العلماء وأصحاب القدرة والنفوذ، كان موجوداً في كل الأديان الإلهية، وأنَّ الكثير من الأمم قد استحقَّ العقاب الإلهي نتيجة الانحراف عن هذه المهمة



١٥- التسليم لأمر الحق تعالى: لأصل الآخر الموحود في كل الأديان، والحاكم عليها هو أصل التسليم المطلق لأمر الله، لذا نقرأ في آية من البعث ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

أجل فروح وجوهر كل الأديان تعبر عن الحق وعن أمر الخالق وتمثل القوانين الإلهية وجميع الحقائق، ونظراً لكون دين نبي الإسلام ﷺ من أفضل الأديان الإلهية فقد اختير له اسم الإسلام وإلا فبالإمكان إطلاقه على كل أديان السماوية.

وبناءً على هذا الآية لا تعني أنَّ دين نبينا هو الإسلام (وإن كان هذا هو الواقع)، بل المراد أنَّ الإسلام كان الدين الحقيقي في كل نصوص، لأنَّ التسليم أمام العقيدة الواقعية في

مقام العمل بالأحكام الإلهية كان موحوداً هي كل الأديان الإلهية، وبراء على هذا فالأديان الإلهية وإن كانت قد بدأت بأبسط أشكالها إلى أن انتهت بأكملها إلى دين محمد ﷺ، لكن روحها كلها واحدة ألا وهي التسليم المطلق لمشار إليه أعلاه، ولا تباين أبداً بينها من هذه الناحية.

كما يقول تعالى في مكان آخر ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ (والتسليم لأمر الله) دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران / ٨٥)



### لمحة للبحث:

هذه الأصول الخمسة عشر هي من أهم الأصول المشتركة بين كل الأديان الإلهية، وبعبارة أخرى فإنها تشكل العمود الفقري لكل المذاهب السماوية وجميع تعاليم الأنبياء، كما أن بالإمكان تشخيص الأديان الحقيقية عن المذاهب المختلفة والانحرافية عن طريقها كما أن التدقيق فيها يعكس من جهة أخرى جلاله للقونم السامية لعالم الأنبياء وعلى مرّ القرون والأعصار، بالإضافة إلى كونها لوحدها من الأدلة على صدق دعوتهم وحقانية دينهم.





مکتبہ اسلامیہ



الأنبياء ﷺ

في القرآن المجيد



## الأنبياء في القرآن المجيد

تمهيد:

سيتم في هذا البحث الإجابة عن عدة أسئلة مهمة تدور حول أنبياء الله ورسوله

١ - عدد الأنبياء في القرآن.

٢ - الأنبياء قولوا العزم في القرآن.

٣ - الكتب السماوية للأنبياء.

٤ - الفرق بين الرسول والنبي.

٥ - لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصة؟

٦ - تكامل الأديان.

القرآن هو محور كل هذه الأبحاث بطبيعته تعالى، وعلى أساس التفسير الموضوعي، أي أنه سيتم البحث في هذه الجهات على ضوء نقرأ أولاً، ومن ثم يبحث على حدة باقي المسائل المستفادة من الروايات الإسلامية، و لتواريخ والأدلة العقلية، لتتضح مختلف أبعاد هذه المباحث.



### ١ - عدد الأنبياء في القرآن:

لنتضمن في آيات القرآن الكريم خاشعين:

نقرأ في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ

(المؤمن / ٧٨)

نَقْصُصْ عَلَيْكَ».

يتضح من هذه الآية عدم مجيء أسماء فريق من الأنبياء والرسول الإلهيين في القرآن

المجيد (على الأقل في السور البارحة قبل سورة المؤمن)<sup>١</sup>، وأن عددهم يريد على المذكور في القرآن.

نظير هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»<sup>٢</sup> (النساء / ١٦٤)

طبعاً لم يتصح عدد انبياء الله ورسله من خلال تعرض آيات القرآن لذكر العدد، لكن استفاد من بعض الآيات أن عددهم كان كبيراً جداً، كما قرأ في القرآن الكريم حيث يقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» (فاطر / ٢٤) مع الأحاد بظن الإعتبار عنواني «بَشِيرًا» و «نَذِيرًا»، الواردان في حق النبي الأكرم ﷺ في صدر الآية، يتصح أن المراد من كلمة «نَذِيرٌ»، في ديل الآية هم انبياء الله ورسله أيضاً، كما يستفاد من عموم مفهوم الآية أن هالك سبباً إلهياً كان قد ظهر بين كل أمة من الأمم فيما مضى وأنه قام بتحذيرهم. وبمعنى بعض المفسرين لكلمة «نَذِيرٌ» هنا بالمعنى الأوسع الشامل لكل الفقهاء والعلماء الذين يتدبرون الناس ويحذرونهم، يعالفاً طاهر الآية بطبيعة الحال.

وبهذا يتصح جهداً أن عدد الأنبياء من وجهة نظر القرآن عدد هائل!

### سؤال:

وهنا يرد هذا السؤال وهو: كيف يمكن جمع بين مصمون الآية أعلاه وبعض الآيات القرآنية التي تخاطب نبي الإسلام ﷺ بالقول: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» (سبا / ٤٤)

وكذا في قوله تعالى: «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ \* لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَسْأَفُوهُمْ فَهُمْ عَابِدُونَ»<sup>٣</sup> (يس / ٥-٦)

١ سورة المؤمن وطبعاً لقول: هي السورة السابعة والخمسون المنزلة على النبي ﷺ.

٢ سورة النساء طبقاً لرواية: هي السورة الثانية والثمانون المنزلة على النبي ﷺ.

٣ ذهب معظم المفسرين إلى أن «مَا» في جملة «فَمَا أَسْأَفُوهُمْ» «ساعة» لجملة «فَهُمْ عَابِدُونَ»، والآية الثالثة

## الجواب:

الظاهر أن المراد من الـ «نذير» في هذه الآيات هم الأنبياء العظام خصوصاً الأنبياء أولي العزم، الذين شاعت سمعتهم في كل مكان، ولا فساد حجة إلهية في كل زمان للمشتاقين والطالبين طبقاً لمختلف الأدلة العقلية والفقهاء التي بحورثنا، ولو اعتبرت الفترة ما بين المسيح ﷺ ونبي الإسلام ﷺ فترة ركود وجمود، فإنما هي بسبب عدم ظهور نبي عظيم ومشهور، لا عدم وجود حجة إلهية مطلقاً.

ولذا يقول الإمام علي عليه السلام حول هذا الأمر: «إِنَّ اللَّهَ يَهْتَمُّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابَهَا وَلَا يَدْعِي نَبَوَّةً»<sup>١</sup>

على أية حال يستفاد من مجموع ما قبل أن عدد انبياء الله ورسله وعلى طول التاريخ كان كبيراً جداً، وأن القرآن لم يشخص لهم رقماً بالخصوص.

عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم يبلغ ٢٦ سماً فقط وهم عبارة عن: آدم، نوح، إدريس، صالح، هود، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يوسف، لوط، يعقوب، موسى، هارون، شعيب، زكريا، يحيى، عيسى، داود، سليمان، اليسع، اليسع، ذو الكفل، أيوب، يونس، عزيز، ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

وجاء في سورة الانعام اسم ثمانية عشر منهم، يقول تعالى: «وَمِمَّنْ جَعَلْنَا آتِيهَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءِ إِنَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ \* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ \* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ». (الأنعام / ٨٣-٨٦)

وجاء في سورة الأنبياء اسم كل من إدريس وذو الكفل: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» (الأنبياء / ٨٥)

<sup>١</sup> من سورة السجدة: «يُنذِرُ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَفُونَ». حبر شاهد على هذا المدعى، في حين اعتبر البعض الآخر «ما» موصولة أو مصدرية، لكن كلا هذين الاحتمالين ضعيفان حسب الظاهر والذي قيل إنما على أساس المعنى الأول.

وأشير في سورة هود إلى اثنين آخرين منهم (هود وصالح) «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ». (هود / ٨٩)  
 وأشير في سورة العنكبوت إلى شعيب «وَلِي مَذِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» (العنكبوت / ٢٦)  
 وأشير في سورة التوبة إلى عذير «وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ». (التوبة / ٣٠)  
 ونقرأ في سورة آل عمران: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ» (آل عمران / ٣٣)

أخيراً وهي آخر آية من سورة الفتح، ورد اسم حاتم الأنبياء عليه السلام «مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ». وهذا هو مجموع أولئك العظماء الستة والعشرين في مقاطع خاصة من آيات القرآن. لكن علاوة على هذا فهناك ٢٦ نبياً عظيماً أحرأشير إليهم في القرآن دون التعرض لذكر أسمائهم مثل: أشموئيل<sup>١</sup> الذي أشر إليه في سورة البقرة تحت عنوان: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ...» (البقرة / ٢٤٧)

ويوشع الذي أشر إليه في سورة الكهف تحت عنوان: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ...» (الكهف / ٦)

إذ يعتقد الكثير من المفسرين أن المراد به هنا هو يوشع بن نون.

و«أرميا» الذي ذكر في سورة البقرة تحت عنوان: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...»

(البقرة / ٢٥٩)

وإن اعتبره البعض «عزير» أو الخضر، لكنه ورد في رواية الإمام الباقر عليه السلام باسم «أرميا». «الخضر» الذي جاء في آيات متعددة من سورة الكهف من جملتها الآية (٦٥) تحت عنوان: «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا». وإن لم يرد اسمه صريحاً في هذه الآيات، لكن طبقاً للشهور فهو أيضاً من أنبياء الله ورسله، وهناك قرائن متعددة على ذلك في آيات من سورة الكهف. كما يستفاد من قوله تعالى أن الوحي كان ينزل على «أسباط بني إسرائيل»، حيث يقول تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ». (النساء / ١٦٣)

١. قال البعض أن اسمه «يوشع»، وذهب غيرهم إلى أنه «شمعون»، لكن المشهور بين المفسرين هو نفس «أشموئيل» (تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٢٥٠).

«الأسباط»: جمع سبط عني ورن (تمشط) تعني هنا قبائل بني إسرائيل التي كان لكل واحدة منها نبياً، خلاصة القول هي أن عدد الأنبياء الذين أشار الله إليهم قصصهم وحياتهم في القرآن يتجاوز الـ ٢٦ نبياً، لاحتصاص هذا العدد بما صرح القرآن بأسمائهم فقط.

١- عدد الأنبياء في الأحاديث ولروايات الإسلامية.

هناك في الروايات الإسلامية بحث واسع حول عدد الأنبياء والرسل، من جعلتها ما جاء في رواية مشهورة أن عددهم هو ١٢٤ ألفاً، كما بلغ عددهم في بعضها ٨ آلاف سبي فقط أربعة آلاف منهم من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم<sup>١</sup>.

جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى رضى الله عنه أن النبي الأكرم ﷺ قال: «خلق الله عز وجل مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله ولا فخر الآن ذلك من لطف الله، وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، فعلي أكرمهم على الله وأفضلهم»<sup>٢</sup>.

ونقرأ في حديث آخر للنبي الأكرم ﷺ، عن أبي ذر رضى الله عنه، قلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت كم المرسلون منهم؟ قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جناً غفيراً»<sup>٣</sup>.

وفي حديث آخر يعل الإمام لياقراً رضى الله عنه النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «كان عدد جميع الأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، خمسة منهم أولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد»<sup>٤</sup>.



## ٢- الأنبياء أولوا العزم في القرآن

تمت الإشارة في القرآن المجيد إلى الأنبياء أولوا لعزم وذلك، حين كان الخطاب موحهاً

١ تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٣٧

٢ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٠، ح ٢١

٣ المصدر السابق، ص ٢٢، ح ٢٤

٤ المصدر السابق، ص ٤١، ح ٤٢

إلى نبي الإسلام ﷺ: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ»

(الاحقاف / ٣٥)

للمفسرين كلام طويل عن هوية أولي العزم من الأنبياء وهناك احتمالات وتفسيرات  
متعددة حول هذا الموضوع يمتدح معظمها إلى تدليل  
ومن جملتها:

١- الأنبياء كلهم أولوا العزم لمتعتهم بعزم راسخ وإرادة قوية! لكن هذا التفسير إنما يصح  
حينما تكون «مينة» في جملة «من الرسل» بمعنى البيان في حين أن طاهر الآية يدل على  
كونها تعبضية، وقد نقل المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا الكلام عن أكثر  
المفسرين<sup>١</sup>.

٢- الأنبياء أولوا العزم ٣١٣ نبياً، كما جاء في الدر المنثور عن جابر بن حيان (مرسل)  
أنه قال «بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر».  
٣- ويقول البعض بأنهم أولئك الثمانية عشر نبياً المذكورة أسماؤهم في الآيات ٨٣-  
٨٦ في سورة الأنعام<sup>٢</sup>.

٤- أنهم أولئك الأنبياء الذين تحمقوا مزيداً من الصبر أمام أدى أقوامهم، وواجهوا كثيراً  
من الشدائد والمشاكل، وهم تسعة: نوح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، أيوب، موسى،  
داود، عيسى عليه السلام<sup>٣</sup>.

لكن من الواضح أن الأنبياء الذين صمدوا أمام المشاكل والمصاعب لم يحصروا  
بهؤلاء، إذ الكثير منهم ذاق مشاكل ومصاعب قسي وأمر، فضلاً عن عدم كون الإبتلاء  
بالمشاكل دليلاً على كونهم من أولي العزم.

٥- أنهم كانوا أنبياء صبروا أمام أدى الأعداء، وهم ستة: نوح وإبراهيم وإسحاق  
(إسماعيل) ويعقوب ويوسف وأيوب

١. تفسير مجمع البيان ج ٩ و ١٠، ص ٩٤

٢. تفسير روح البيان نقل هذا التفسير عن الحسن بن الفضل ج ٢٦ ص ٣١

٣. المصدر السابق.



لكن وكما قلنا فالأنبياء الصابرون لا يحصرون هؤلاء، بل إن أنبياء مثل نوح ويحيى وجرجيس وأمثالهم تحمّلوا صعوبات وأذى كثيراً

٦- أنهم كانوا أنبياء مأمورين بالجهاد ومحاربة الأعداء إعلاءً لدين الله، وكانوا ستة، نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان

سقم هذا التفسير واضح أيضاً إذ لم يقاوم لأعداء كلّ هؤلاء الستة كما لم يستحلّ عن القتال غيرهم مطلقاً<sup>١</sup>

٧- أفصل تفسير ورد حول أولي العزم في قرآن لمحمد هو أنهم أنبياء جاءوا بشريعة جديدة، وكانوا أربعة من السابقين (روح وإبراهيم وموسى وعيسى) حيث يكتملون بنبي الإسلام ﷺ خمسة، والتعبير به (أولو العزم) بما هو لأجل أن الأنبياء أصحاب الشريعة الجديدة تقع على عاتقهم مسؤولية خطيرة، فيدُلّون على احتياضهم إلى العزم والإرادة لأدائها. هذا المعنى نقل من حديث عن «الإمامين الباقر والصادق» ﷺ

المرحوم الطبرسي نقل هذا القول في مجمع البيان عن ابن عباس، كما جاء هذا التفسير في «روح المعاني» عن الإمامين العظيمين الباقر والصادق ﷺ، وكذا عن ابن عباس، كما ينقل عن المفسر المعروف السيوطي أن هذا من أصحّ الأقوال، وينقل عن بعض العظام من العلماء أن الأسماء المقدسة لهؤلاء الأنبياء لحمة قد ذكرت ضمن هذا الباب الشعري.

أولو العزم نوح والخليل للمجدد موسى وعيسى والحبيب محمد ﷺ<sup>٢</sup>

❦❦❦

### ٣- لكتاب السماوية للأنبياء.

بديهي أن لكل واحد من الأنبياء أولي العزم (طبقاً للتفسير الأخير الذي ذكرناه) كتاباً سماوياً حيث إن اسم البعض منها معروف بالكامل، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوي

١. هذه الأقوال والتفسيرات نقلت بشكل رئيسي من تفاسير مجمع البيان وروح المعاني؛ والدرر المنتورة دليل الآية ٢٥ من سورة الأحقاف.

٢. تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ٣٢

لنبي الإسلام ﷺ والإنجيل كتاب المسيح ﷺ والتوراة كتاب موسى ﷺ.

لكن ما هو اسم الكتاب السماوي لنوح وإبراهيم؟ بالإمكان الاستنتاج من الآية ١٩ من سورة الأعلى (صحف إبراهيم وموسى) أن اسم كتاب إبراهيم هو الـ«صحف»، بالصبط كما ذكروا اسم الـ«صحف» لكتاب نوح أيضاً.

كما ورد اسم البعض من الكتب الأخرى في القرآن من حملتها الـ«زبور» الذي أنزله الله على داود ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾. (النساء / ١٦٣)

والظاهر أن الاسم الآخر للزبور هو السزمير (جمع مرمور أي الأشعار الروحية بالصوت الجذاب).

«الزبور»: لم يكن كتاباً سماوياً حارياً على الأحكام والشرعة الجديدة

وبعارة أخرى فالكتب السماوية البارزة على الأنبياء على صريخ.

١ - الكتب السماوية الحاوية على الأحكام التشريعية الجديدة، والتي تعلن عن دين جديد كالكتب الخمسة البارزة على الأنبياء المعصية أولي الحرم.

٢ - الكتب الخالية من الأحكام الجديدة المشتملة على النصائح والمواعظ والوصايا والأدعية والمأجاة، كتاب «الزبور» أو الكتب المنسوب لـ«إدريس» ﷺ هو من هذا القبيل.

نختم هذا البحث برواية عن النبي الأكرم ﷺ.

يقول أبو ذر: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر».

ثم يضيف قائلاً فسألته كم أنزل الله من كتب السماوية؟ قال: «١٠ كتب، ١٠ كتب

على آدم و ٥٠ كتاباً على شيث و ٣٠ كتاباً على إدريس و ١٠ كتب على إبراهيم (التي يبلغ مجموعها مائة كتاب) والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان»<sup>١</sup>.

❦❦❦

## ٤ - الفرق بين الرسول والنبي

«نبي» من مادة «نبا» بمعنى «الرسالة» أو «الرسالة المهمة»، وإنما يطلق «النبي» على الأنبياء الإلهيين، نظراً لإيصالهم رسالة الله إلى الخلق، وقيل أحياناً إن هذه المفردة مأخوذة من مادة «نبر» (على وزن حمزة) بمعنى الرعدة والسمو، وإطلاق هذه المفردة على الأنبياء إنما هو لعلو مقامهم ومرتبته.

«رسول» هي في الأصل من مادة «رسل» (على وزن فاعل) التي أصلها الحركة بستوذة وسكينة على حد قول الراغب هي المفردات، وحيث إن المبعوثين من قبل الله مأمورون بمعاملة الناس بهدوء وسكينة فقد أطلقت لفظ «رسول» عليهم، لكن لكلمة «الرسول» معنى واسعاً شاملاً لكل من الملائكة وكذلك لآلبياء الإلهيين، وقد استعمل كلا المعنيين في القرآن بشكل مكثف.

على أية حال فاستعمال كل من اللفظي «نبي» ثم «رسول» ومشتقاتهما كثير جداً في القرآن، وحول الفرق بينهما أي من الذي يسمى نبياً ومن يسمى رسولاً؟ فالحديث طويل جاء في روايات متعددة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا في معرض الإجابة عن السؤال عن الفرق بينهما: «النبي الذي يرى في منامه (ويستلم الوحي الإلهي عن هذا الطريق) ويسمع الصوت (صوت الملك) ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت، ويرى في المنام، ويعاين الملك»<sup>١</sup>.

كما يعتقد البعض أن «النبي» هو الذي يستلم الوحي، سواء كان مكلفاً بإبلاغه أم لا، لكن لو سألوه فسيجيب حتماً، أمّا الرسول فهو صاحب شريعة، ومأمور بإبلاغها دون انتظار للسؤال أو الطلب.

وبعبارة أخرى فـ «النبي» هو كاطبيب لظاهر الذي يقابل المرضى في عيادته، فهو لا

١ هذا هو الحديث الذي نقله المرجع الكلاسيكي عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام أصول الكافي، ج ١ ص ١٧٦ كما نقل نفس هذا المضمون في رواية أخرى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (بتفسير بسيط)، وورد نفس هذا المضمون في روايتين أخريين إحداهما عن الإمام الباقر عليه السلام والأخرى عن كلا الإمامين (الباقر والرضا عليهما السلام) في أصول الكافي بتفاوت بسيط، المصدر السابق، ص ١٧٦ و ١٧٧.

يذهب وراء المرضي، أما لو راجعه أحدهم فس يقتصر في علاجه، أما الرسول فهو كالطبيب السيار الذي يطوي المدن والقرى ولجبال و سهول والصعاري، ويتوجه إلى كل مكان ليتعرف على المرضى ويشرع في علاجهم، إذ هو في الحقيقة عين نابعة يسعى معينها وراء العطاشى، وليس كمحزن الماء الذي يبحث عنه الظمئان!

الجمع بين هذا المعنى والذي سبقه هو في غاية السهولة، إذ كلما كانت المسؤولية أكبر كلما كان استلام الوحي أوضح - وبعبارة أخرى فهناك تناسب طردي بين حجم المسؤولية وبين وضوح استلام الوحي - فالنبي يرى في سما فقط أو يسمع صوت الملك، أما الرسول فيعاين الملك في اللفظة أيضاً

كما اعتبر البعض الرسل أصحاب شريعة جديدة، أما الأنبياء فليس من الضروري أن تكون لهم شريعة.

التأمل في آيات القرآن يبين أن مقامي «النوطة» و «الرسالة» قد جمعا في كثير من الموارد في شخص واحد، مثل نبي الإسلام ﷺ الذي أعطي له كل من عوابي النبي وكذلك الرسول في الآيات القرآنية<sup>١</sup>

وكذلك الكثير من الأنبياء الإلهيين الآخرين كانوا يتمتعون بمقامي النبوة والرسالة، (وبناء على هذا فالدين يقولون بوجود نسبة «عموم والخصوص المطلق» بينهما، إنما ينطلقون من هذه الآيات).

لكنهما ظهرا في بعض الآيات كمعينين متقابلين وكأنهما مفهومان متعايران، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج / ٥٢) إذ يجب أن يكون الرسول والحالة هذه مكلفاً بالسمي لإبلاغ الرسالة الإلهية إلى الخلق

١ نقرأ في سورة (الأعراف / ١٥٧) حول سي الإسلام: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، وجاء في سورة (الأحزاب / ٤٥): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ أَوَّلَ مَا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾. ونقرأ في سورة (مريم / ٥١) حول موسى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ وفي نفس السورة الآية ٥٤ حول إسماعيل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾، إذ يبدو من هذه الآيات أن كلا هذين المفهومين قد جمعا في شخص واحد.

والإنذار والبشارة دون «النبي».

نستنتج من هذا البيان أن لكل من هاتين لمعردتين معنيين إثنين، تجتمعان في أحدهما وتتقابلان في الآخر.

❦❦❦

### ٥ - لماذا ظهر الأنبياء للكبار من منطقة خاصة؟

يثار أحياناً السؤال عن ظهور الأنبياء أولى العزم أصحاب الشريعة والكتاب السماوي من الشرق الأوسط طبقاً لصريح تواريخهم، فقد ظهر نوح عليه السلام في أرض العراق<sup>١</sup>، وكان مركز دعوة إبراهيم عليه السلام العراق والشام كما سافر إلى مصر والحجاز.

وظهر موسى عليه السلام في مصر ثم جاء إلى فلسطين. وكان مركز ولادة وظهور ودعوة المسيح عليه السلام الشام وفلسطين، وظهر في الإسلام صلى الله عليه وسلم في الحجاز.

كما عاش الأنبياء الآخرون غالباً في هذه المناطق وبشكل بحيث يمكن القول: إن منطقة الشرق الأوسط كانت مركزاً لظهور الأنبياء في العالم<sup>٢</sup>.

فما هو السبب وراء ظهور كل أولئك الأنبياء من هذه المنطقة من العالم بالذات؟ وهل ياترى كانت المناطق الأخرى في عنى عن بعثة الأنبياء أو قبولهم؟

❦❦❦

### الجواب:

لدى التأمل في كيفية شوء المجتمعات البشرية وظهور حصاراتها لا يبقى هناك إبهام في هذه المسألة يبعث على التساؤل ولا استفهام، إذ إن أقطاب مؤرخي العالم يصرحون بأن الشرق (خصوصاً الشرق الأوسط) كان مهداً للحضارة الإنسانية، وأن المنطقة التي يطلق

١. تقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كُتبت الكوفة ومسجدنا في زمن نوح عليه السلام وكان منزل نوح وقومه في قرية على متن الفرات مقابل غربي الكوفة» (تفسير المياشي، تفسير سورة هود، ج ١٩).

عليها اسم الهلال الخصيب (الهلال الخصيب، شاره إلى المنطقة التي تبدأ من وادي النيل وتمتد إلى مصب دجلة والفرات وشط العرب وتظهر في الحارطة على شكل هلال كبير) هي مهد الحصارات العظيمة في العالم

حضارة مصر القديمة التي تعد أقدم حضارة عرفتها البشرية، وحضارة بابل في العراق وحضارة اليمن في جنوب الحجاز، وكذلك حصاره إيران والشامات، كلها نماذج للحضارات البشرية المعروفة.

والآثار التاريخية الباقية في هذه المناطق والكتابات الحجرية، كلها شواهد حية على هذا المدعى.

إن عودة الحضارة الإنسانية في هذه المناطق إلى سبعة آلاف سنة أو أكثر من جهة، والملازمة الشديدة بين الحضارة الشريفة وبين ظهور الأنبياء الكبار، نظراً للحاجة الماسة للناس المتحضرين إلى الأديان الإلهية أكثر من غيرهم، ضماناً للقوانين الحقوقية والاجتماعية، وتعصيراً لطاعات طربهم الإلهية، مع الحد من الإعتداءات والمقاسد من جهة أخرى، دفعتنا للقول بأن حاجة إنسان اليوم إلى الدين خصوصاً هي الدول الصناعية المتطورة هي أكبر من أي زمان آخر.

الأقوام المتوحشة أو البعيدة عن ألوان المدنية ليس لها ذلك الإستعداد لتقبل الأديان، بل ليس لها القدرة على نشرها على قرص تعبتها بها

لكن حينما يظهر الدين في المراكز المتحضرة لا يلبث أن يمد بجذوره ليشمل باقي النقاط، وذلك لاستمرارية تردد الآخرين على مثل هذه المناطق، أملاً في حل مشاكلهم فضلاً عن تمرکز وسائل الدعاية والإعلام فيها أكثر من غيرها.

يمكن أن يقال: إذن فلماذا ظهر الإسلام الذي هو أكبر الأديان السماوية في منطقة متأخرة حضارياً؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول. لو دققنا النظر في الحارطة الجغرافية لرأينا أن هذه المنطقة المتأخرة أي «مكة» كانت في الواقع همزة وصل بين آثار خمس حصارات كبيرة

وعريقة، بل هي بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحصارات.

ففي الشمال حصار الروم الشرقية والشامات، وفي الشمال الشرقي حصار إيران والكلدانيين والآشوريين، وفي الجنوب حصار اليمن، وفي الغرب حصار مصر القديمة. ولنفس هذا السبب بالصبط وضع الإسلام وضمن مرحلة انتشاره واتساعه كل امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته وصهرها في بودقته حيث أخذ إيجابياتها وألقى سلبياتها، كما أضاف إليها مسائل عقائدية وعملية مهمة حتى أشرقت شمس الحصار الإسلامية على كل هذه المناطق من أقصاف إلى أقصافها.

الخلاصة هي أنه ومع الأخذ بنظر الاعتبار لما ذكرناه سابقاً يتضح السبب وراء بعث الله الحكيم لأنبيائه العظام من منطقة الشرق الأوسط، ولماذا كان مشرق الأرض قاعدة لانطلاق الأديان الإلهية الكبيرة؟



## ٦- تكامل الأديان

مقدمة. تاريخ الأنبياء جزء من تاريخ الأديان

تعرض القرآن وفي آيات عديدة لبيان تاريخ الأنبياء ومن هنا سميت الكثير من سور القرآن بأسماء الأنبياء العظام أو أسماء أممهم، حتى أن تاريخ نبي عظيم مثل موسى بن عمران ﷺ تمّ التعرّض له في عدة سور ومن مختلف الأبعاد.

بدیهي أن ذكر هذه التواريخ وبهذه الكثافة ليس لقضاء الوقت أبداً، بل لأجل أن الكثير من مميزات الأديان السماوية والأفكار والأخلاق الدينية والمعارف الإلهية، يمكنها أن تتجسّد بشكل حي بين ثنايا هذه لتواريخ وأن تنعكس أمثلتها الحية من خلالها.

من هنا يمكن القول ومن أجل التعرف على مسألة البوّة، والحقائق المتعلقة بأنبياء الله ورسله، ينبغي التحقيق في تواريخهم بدقة أو بعبارة أخرى فإن التحقيق في تاريخ الأنبياء يعدّ جزءاً من تاريخ الأديان والمسائل المنعّقة بالبوّة.

ولا شك في أن هذا التحقيق يمكنه أن يكمل ما ورد في مختلف فصول هذا الكتاب، بل

وأن يجسد المسائل العلمية المعقدة أمام الأنصار  
 لكن نظراً لسعة الأبحاث المتعلقة بتاريخ الأنبياء في القرآن المجيد، بحيث تتطلب  
 تخصيص العديد من المجلدات لذلك، فستجنب الخوض فيها فعلاً، وسنعرض إلى «تاريخ  
 الأنبياء في القرآن المجيد بشكل موضوعي» عند إتاحة الفرصة إن شاء الله، وهو بحث مفيد  
 وجذاب.



كما قيل في الأبحاث المتقدمة، فأصول الأديان السماوية إنما وجدت واحدة، والتفاوت  
 إنما يكمن في الفروع والجزئيات فقط

نفس هذا الأمر يشير الاستفسارات التالية: لماذا ظهر الأنبياء أولو العزم واحداً بعد الآخر  
 بين المجتمعات البشرية بكتب وأديان جديدة؟ وما الحاجة إلى الأديان الجديدة مع وجود  
 الأديان السابقة، حينما يكون الأصول واحداً؟ ولماذا يعلن أخيراً عن الخامسة بحيث إن  
 البشرية لا تحتاج بعد ذلك إلى نبي جديد أو دين جديد؟

الإجابة عن هذا الاستفسارات تنص من خلال التعمق في مصموم الأديان الإلهية،  
 صحيح أنهم جميعاً قد جعلوا من التوحيد أساساً للدين، لكن من اليديهي أن إدراك الأقوام  
 البدائية لهذه المسألة لم يكن كإدراك الذين واحهوا المسألة بعدهم بآلاف السنين.

أو بعبارة أخرى فالجزئيات المتعلقة بالتوحيد في الذات والأفعال وفي العبادة  
 والحاكية والحاكمية ليست بذلك الشيء الذي يتناسب والمستوى الفكري للأقوام  
 الأولى، إذ كانوا يقتنعون بمعاهيم بسيطة واجمالية عن مسألة التوحيد، ولم يخوضوا أبداً في  
 هذه الجزئيات المعقدة.

وهذا الشيء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للمسائل الأخرى المتعلقة بـ «المعاد» و«منزلة  
 الأنبياء» وأوصافهم، وكذلك الجزئيات المتعلقة بـ «العبادات»، إذ كلما زادت معرفة أهل  
 الأرض بهذه المسائل، وثمت القابليات جيلاً بعد جيل تمّ تعليمهم المزيد من الجزئيات،  
 فضلاً عن أن التطور الحصري كان قد عقد حياة البشرية يوماً بعد آخر، وهذا التعقيد



استلزم بدوره سنّ قوانين جديدة لحلّ المشاكس الناتجة عن ذلك، ولذا ظهر الأنبياء للوجود واحداً بعد الآخر من أجل إنقاذ الناس وحلّ مشاكلهم

هذه المسألة يمكن بيانها بشكل أفضل من خلال هذا المثال: حدّ بظر الاعتبار المراحل الدراسية للأطفال والفتيان والشباب، بدءاً بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، ومرحلة التخصص، إذ العلوم المختلفة التي تدرّس في هذه المراحل ثابتة تقريباً، لكنّها مختلفة بحسب المستويات، فطلبة كُتُبهم يدرسون الرياضيات مثلاً، ابتداءً بطلبة المدارس الابتدائية ومروراً بطلبة الإعداديات وانتهاءً برسالة الدكتوراه في الرياضيات، في حين أنّ مستوياتها متفاوتة كثيراً، إذ كلّما رُادّ ستعداد الطالب كلّما ارتفع مستوى الدروس أكثر، ومن هنا تأتي المراحل الدراسية الخمس (الابتدائية والمتوسطة والإعدادية والجامعية والدكتوراه)

والأديان الخمسة التي بعثها الله للبشرية شبيهة ببعض الشيء بهذه المراحل، نوح عليه السلام كان مسؤولاً عن تربيته وتعليم الناس في أول مرحلة، إبراهيم عليه السلام في المرحلة الأخرى وكذلك موسى وعيسى، كان كلّ واحد منهم معلماً وأستاذاً لإحدى هذه المراحل، لتصل السوبة إلى آخر مرحلته، ويكفل حاتم الأنبياء محمد ﷺ بالتعليم فيها

ومن هنا يتّضح الجواب عن السؤال الثاني الذي كان يدور حول كيفية إمكان تكامل الأديان في منطقة واحدة والإعلان عن حانيتها؟

الدليل واضح، إذ كما أنّ الإنسان يصل في مراحل الدراسة إلى ما يطلق عليه بـ «التخرج»، أو بعبارة أخرى أنّه يصل إلى المستوى الذي يكون قد استلم فيه الأصول العامة والبنائية من معلمه، بحيث يتمكن لوحده من حلّ مسائل المستحدثة في ظلّ تلك العموميات.

فنبى الإسلام ﷺ أيضاً قد جاء بتعاليم وأصول تحلّ عن طريقها كافة المشاكس المستقبلية، كما يمكن للمسلمين مواصلة طريق تكاملهم في ظلّ تلك الأصول والتعاليم، والقرآن المجيد ذلك الكتاب الذي يكشف لتمعّن فيه عن حقائق جديدة متناسبة مع متطلبات كلّ عصر.

هذا الكلام لا يعني أن إنسان عصرنا قد بلغ مرتبة تغنيه عن الأنبياء كما يتوهمه بعض المغفلين، بل على العكس فهو يعني أن أصول تعاليم حاتم الأنبياء ﷺ واسعة جامعة وبشكل بحيث يمكن من خلالها التغلب على مشاكل العصر ومسائلها.

ولابد أنك تسأل لماذا لم تغط هذه الأصول لنوح عليه السلام من البداية؟ نقول في جواب هذا السؤال، وذلك لنفس السبب الذي لم تدرس دروس مرحلة الدكتوراه في المرحلة الابتدائية وذلك لعدم وجود القابلية والاستعداد لتقبلها.

وسياتي إن شاء الله شرح أوفى لهذه المسألة في بحث الخاتمية عن مباحث النبوة الخاصة.

وهنا تصل المباحث الكلية للنبوة (النبوة العامة)، بهايتها شاكرين الله على هذا التوفيق.



رَبَّنَا / اجْعَلْنَا مِنَ النَّاغِينَ الْحَقِيقِينَ الْقَلَصُ الْمَخْلَصِينَ لِأَنْبِيَائِكَ الْعِظَامِ

إِلَهِنَا : أَيْقِظْ أُمَّ الْعَالَمِ الْعَاقِلَةَ مِنْ سَيِّئَاتِهَا

العميق لتجتاز بسلوكها طريق الأنبياء والأولياء  
مشاكل الحياة الجمّة وتعال سعادة الدارين ولتتبع  
بأن طي هذا الطريق مرهون باتباع الوحي والإيمان  
بالله والأنبياء.

إِلَهِنَا: وَفَقْنَا لشر تعاليم الإسلام، وخاتم

الأنبياء التي تنبض بالمشاط والحيوية في كل أرجاء  
المعمورة بوسائل الإتصال المتطورة لروحي ظمأ  
العطاشى يزلال تعاليمهم

آمين يارب العالمين والحمد لله أولاً وآخراً.

الحادي عشر من شهر صفر ١٤١٣

## الفهرس

### فلسفة بعثة الأنبياء ﷺ في التصور القرآني / ٥

٧	القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل ﷺ
٩	جمع الآيات و تفسيرها..
٩	أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء:
٩	١ و ٢- التربية والتعليم ..
١٣	٣- إقامة القسط والعدل...
١٥	٤- حرية الإنسان..
١٧	٥- النجاة من الظلمات ...
١٨	٦- البشرى والإبذار ..
١٩	٧- إتمام الحجة ..
٢٠	٨- رفع الاختلاف ..
٢٣	٩- التذكير (بالنسبة للبدیهيات والمستقلات العقلية) ..
٢٥	١٠- الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة ..
٢٦	ثمرة البحث:
٢٧	توضیحات
٢٧	١- فلسفة بعثة الأنبياء والرسل في الروايات الإسلامية ..
٢٩	٢- الفایة من إرسال الرسل في التصور العقلي ..

- أ) عجز الإنسان عن التقني الدقيق ..... ٢٩ ..  
 ب) التنسيق بين التكوين والتشريع ..... ٣٢ ..  
 ج) التربية العلمية ..... ٣٣ .....  
 ٣- أسلوب المخالفين ..... ٣٥ ..

### الخصائص العامة للأنبياء ﷺ / ٤١

- الخصائص العامة للأنبياء ﷺ ..... ٤٣ ..  
 جمع الآيات و تفسيرها ..... ٤٤ ..  
 ١- صدق الحديث ..... ٤٤ .....  
 ٢- الالتزام بالعهود والمواثيق ..... ٤٥ .....  
 ٣- الأمانة ..... ٤٦ .....  
 ٤- الرعية والشفعة الفاتقار ..... ٤٨ .....  
 ٥- الإخلاص والإيثار الكامل ..... ٤٨ .....  
 ٦- البر والإحسان ..... ٥٠ .....  
 ٧- عدم الخشية من غير الله تعالى ..... ٥١ .....  
 ٨- التوكل المطلق على الله تعالى ..... ٥٢ .....  
 ٩- الإخلاص المنقطع النظير ..... ٥٣ .....  
 ١٠- اللين والمحبة وحسن الخلق ..... ٥٤ .....  
 ١١- الفوز في المعن الشاقة ..... ٥٦ .....  
 ثمرة البحث: .. ٥٧ ..

### شروط الرسالة / ٥٩

- التقوى والعصمة ..... ٦١ ..

٦٣.....	جمع الآيات وتفسيرها
٦٣. ....	كيف يكون المذنبون دعاةً للتعوى؟
٧٢. ....	من هم أهل البيت؟
٨٠	ثمرة البحث.

### تنزيه الأنبياء ﷺ / ٨١

٨٣	تنزيه الأنبياء
٨٣	١- آدم ﷺ
٨٧	ثمرة البحث.
٨٨	٢- نوح ﷺ
٨٩ ..	٣- إبراهيم ﷺ
٩٥	٤- يوسف ﷺ
٩٨.	٥- موسى ﷺ
١٠٦	٦- داود ﷺ
١٠٩	٧- سليمان ﷺ
١١٤	٨- يونس ﷺ
١١٧ ..	٩- نبي الإسلام ﷺ
١٣٠	١٠- الأنبياء السابقون بشكل عام
١٣٠	اسطورة الآيات الشيطانية والخرائيق
١٣٣.	نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الخرائيق.
١٣٨...	ثمرة البحث:

### أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء ﷺ / ١٣٩

١٤١..	أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء ﷺ
-------	---------------------------------

- يقول في بحث عصمة الأنبياء ﷺ: ..... ١٤١
- الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء ﷺ: ..... ١٤٥
- ١- العوامل الداخلية - النفسية ..... ١٤٥
- ٢- دليل الاعتماد ..... ١٤٨
- ٣- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعثة ..... ١٥٠
- ٤- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ ..... ١٥١
- ٥- عدم أهلية غير المعصوم لتلقي الوحي ..... ١٥٣
- ٦- أدلة أخرى ..... ١٥٣
- أسئلة متعددة: ..... ١٥٥
- ١- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبرية»؟ ..... ١٥٥
- ٢- هل تنسجم العصمة مع التقية؟ ..... ١٥٨

### المنزلة العلمية للأنبياء ﷺ / ١٦١

- المنزلة العلمية للأنبياء: ..... ١٦٣
- ما هو علم الأسماء؟ ..... ١٦٤
- توضيحات ..... ١٦٨
- ١- حدود علم الأنبياء ﷺ ..... ١٦٨
- ٢- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء ﷺ ..... ١٦٩

### مصادر علم الأنبياء ﷺ / ١٧٥

- مصادر علم الأنبياء: ..... ١٧٧

### الأنبياء ﷺ وعلم الغيب / ١٨٣

- جمع الآيات وتفسيرها ..... ١٨٦

- النتيجة: ..... ١٨٩
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ١٩٠
- الثمرة من مجموع آيات علم الغيب: ..... ١٩٧
- روايات علم الغيب: ..... ٢٠٠
- حدود علم الغيب وكيفيته: ..... ٢٠٤

### إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل / ٢٠٩

- إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل ..... ٢١١
- العلوم الأخرى للأنبياء في القرآن المجيد: ..... ٢١٢
- ١- تعلم موسى من الخضر ..... ٢١٢
- ٢- اطلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية ..... ٢١٤
- ٣- معرفة يوسف بتفسير الأحلام ..... ٢١٥
- ٤- العلم بمنطق الطير ..... ٢١٦

### طرق معرفة سفراء الله / ٢١٩

- طرق معرفة سفراء الله ..... ٢٢١
- (١) الإعجاز ..... ٢٢٣
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ٢٢٤
- الإعجاز، أول دليل على النبوة: ..... ٢٢٤
- ثمررة البحث: ..... ٢٣٠
- توضيحات ..... ٢٣٠
- ١- ما هي حقيقة الإعجاز ..... ٢٣٠
- ٢- العلاقة بين الإعجاز والنبوة ..... ٢٣٦

٢٣٨.....	٢- الاختلاف بين معجزات الأنبياء ﷺ
٢٣٩.....	٤- السحر لا يضاهي المعجزة
٢٤٤.....	٥- منطق منكري الإعجاز
٢٥١.....	(٢) التحقيق في مضمون دعوة الأنبياء ﷺ
٢٥٣.....	(٣) جمع القرائن
٢٥٤.....	روحية المتهم وسواجه:
٢٥٥.....	إرشادات القرآن حول هذين الدليلين:
٢٥٩.....	(٤) شهادة الأنبياء السابقين

### مسألة الوحي / ٢٦٣

٢٦٥.....	« كيفية الارتباط بعالم الغيب »
٢٦٦.....	جمع الآيات وتفسيرها
٢٦٦.....	طرق الارتباط بعالم الغيب: مركزية تكبير رسول الله ﷺ
٢٧٠.....	توضيحان
٢٧٠.....	١- أقسام الوحي وكيفيته في الروايات الإسلامية
٢٧٢.....	٢- الوحي في كلمات الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين
٢٧٣.....	إتقادات
٢٧٥.....	تقد وتعليل:

### الأصول العامة لدعوة الأنبياء ﷺ / ٢٧٧

٢٧٩.....	الأصول العامة لدعوة الأنبياء
٢٨١.....	جمع الآيات وتفسيرها
٢٨١.....	وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً:
٢٩٣.....	ثمرة البحث:



### الأنبياء ﷺ في القرآن المجيد / ٢٩٥

- الأنبياء في القرآن المجيد ..... ٢٩٧
- ١- عدد الأنبياء في القرآن: ..... ٢٩٧
- ٢- الأنبياء أولوا العزم في القرآن ..... ٣٠١
- ٣- الكتب السماوية للأنبياء ..... ٣٠٣
- ٤- الفرق بين الرسول والنبي ..... ٣٠٥
- ٥- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصة؟ ..... ٣٠٧
- ٦- تكامل الأديان ..... ٣٠٩
- مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان ..... ٣٠٩



مركز تحيية تكملة علوم ديني